مجلة

البحوث والدراسات

دورية أكاديمية محكمة يصدرها المركز الجامعي بالوادي

العدد الرابع ـ السنة الرابعة : محرم 1428 هـ / يناير 2007 م

ISSN 1112 - 4958

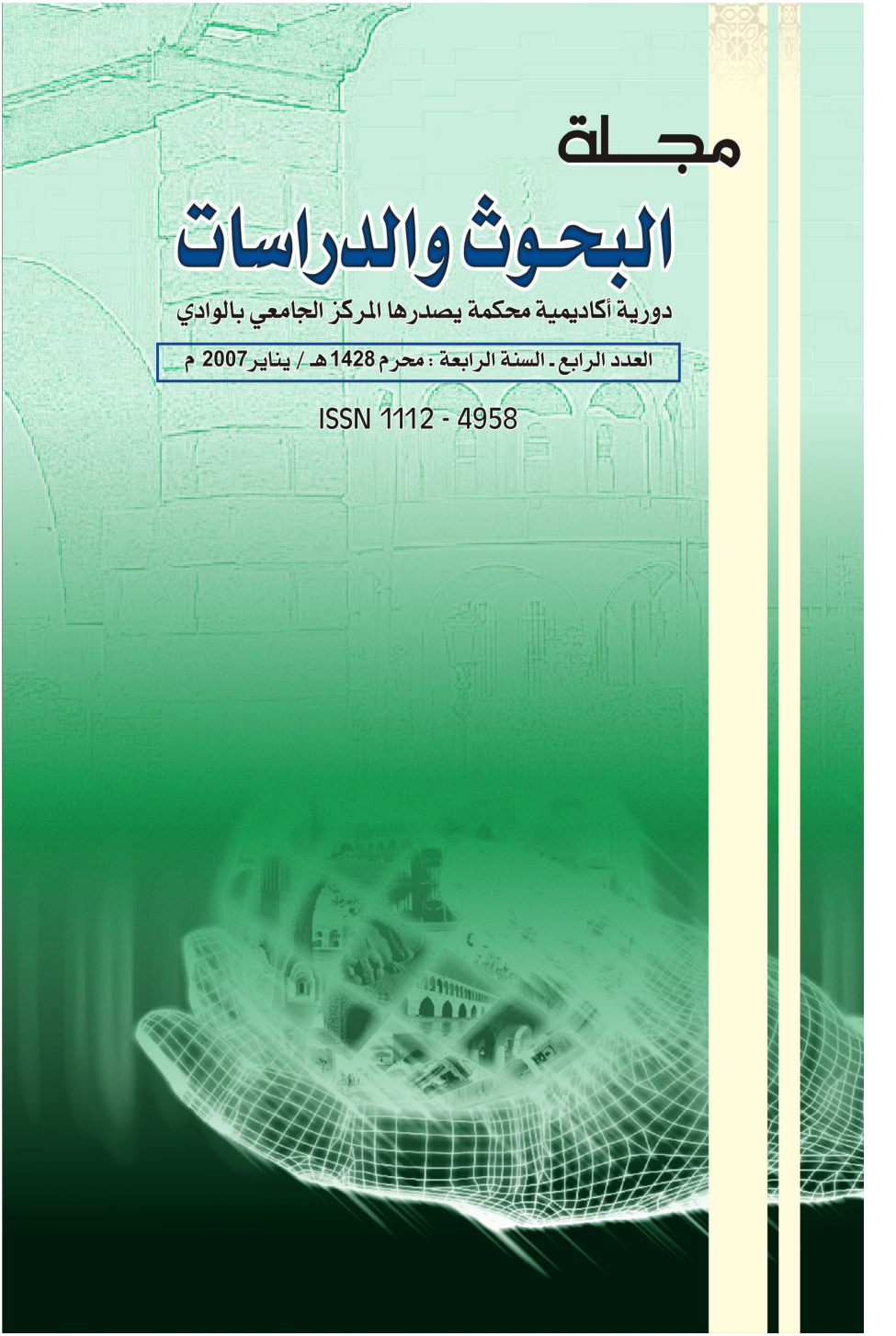

منشورات المركز الجامعي بالوادي

مجلة
البحوث والدراسات

دورية أكاديمية محكمة يصدرها المركز الجامعي بالوادي

العدد الرابع ـ السنة الرابعة : محرم 1428**هـ / يناير** 2007 **م**

المدير العام

د. عز الدين حفطاري

مدير المركز الجامعي بالوادي

رئيس التحرير

إبراهيم رحماني

هيئة التحرير

أحمد زغب	زكرياء دمدوم
عادل محلو	علي ذهب
محمد السعيد عقيب	المكي دراجي

توجيه جميع المراسلات إلى :

رئيس تحرير مجلة البحوث والدراسات ، المركز الجامعي بالوادي

حي النور ـ ص . ب : 789 الوادي 39000 الجزائر .

تلفاكس: 03 71 21 032 أو: 65 47 24 032

Email : Bouhouth_d @ yahoo.fr

ISSN 1112 – 4958 –05

أعضاء الهيئة العلمية الاستشارية

أ.د. إبراهيم سعد الله
(جامعة الوادي)

أ.د. الأمين شريط
(جامعة قسنطينة)

أ.د. الهاشمي لوكيا
(جامعة قسنطينة)

أ.د. صالح مفقوده
(جامعة بسكرة)

أ.د. عمر سعد الله
(جامعة الجزائر)

أ.د. محمد الناصر بوغزالة
(جامعة الجزائر)

أ.د. محمد خان
(جامعة بسكرة)

أ.د. محمد ملياني
(جامعة وهران)

د. إبراهيم بختي
(جامعة ورقلة)

د. أحمد جلايلي
(جامعة ورقلة)

د. الطاهر سعد الله
(جامعة الوادي)

د. راسم مسير الشمري
(جامعة بابل - العراق)

د. كمال عجالي
(جامعة باتنة)

د. محمد زغداوي
(جامعة قسنطينة)

د. عبد العزيز دادي
(جامعة قسنطينة)

د. موسى رحماني
(جامعة بسكرة)

أ.د. أبو بكر لشهب
(جامعة الوادي)

أ.د. عبد الله بوخلخال
(جامعة الأمير عبد القادر)

د. علي قريشي
(جامعة باتنة)

د. عبد القادر دامخي
(جامعة باتنة)

أ.د. فيصل بن حليلو
(جامعة قسنطينة)

أ.د. محمد حمزة بن قرينة
(جامعة ورقلة)

أ.د. محي الدين مختار
(جامعة ورقلة)

د. فتحي خلفاوي
(جامعة ورقلة)

د. أحمد بن ناصر
(جامعة الجزائر)

د. آدم قبي
(جامعة ورقلة)

د. بشير بن عيشي
(جامعة بسكرة)

د. صالح العلي
(جامعة دمشق - سوريا)

د. محمد بوعمامة
(جامعة باتنة)

د. مسعود مزهودي
(جامعة باتنة)

د. علي آجقو
(جامعة بسكرة)

د. محمد الطاهر بوياية
(جامعة عنابة)

قائمة المحتويات

مجلة البحوث والدراسات : العدد الرابع . السنة الرابعة

محرم 1428 هـ / يناير 2007 م

الموضوع	رقم الصفحة
□ افتتاحية العدد : كلمة السيد المدير العام للمجلة	
□ كلمة رئيس التحرير	
□ التصوف الإسلامي : المفهوم والنشأة « دراسة تحليلية » بقلم : د. عبد الرحمن تركي	11
□ محاسن الشورى وإشكالية لزومها في النظام السياسي الإسلامي . بقلم : د. عبد الكريم حامدي	23
□ التشريع المصلحي المعاصر بين النظرية والتطبيق . بقلم : أ. محفوظ بن صغير	35
□ ملامح نقد المرويات عند المحدثين . بقلم : أ. عائشة غرابلي	53
□ دراسة تاريخية لمناهج تعليم القرآن الكريم بين الماضي والحاضر « مجتمع وادي سوف نموذجا» . بقلم : أ. علي غنابزية	67
□ دور الشيخ العلامة أحمد العبيدي في الجهاد العلمي . بقلم : أ. عاشوري قمعون	85
□ الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين والمنظمات العالمية للطلبة . بقلم : أ. محمد السعيد عقيب	119
□ المدخل المنظومي وتحديات العولمة . بقلم : أ. عمر روينة	135
□ آفاق السياحة الجزائرية . بقلم : أ. محمد الناصر حميداتو	143

□ البنوك والمحيط الاقتصادي الجديد في الجزائر .
بقلم : أ. عبد الله غالم 157
□ الاقتصاد غير الرسمي « اقتصاد الظل » كشكل من أشكال التهرب الضريبي . بقلم : د. مقدم عبيرات و أ. أحمد بساس 171
□ المخطط المحاسبي للدولة (PCE) إطار جديد للمحاسبة العمومية. بقلم : أ. عبد السميع روينة 187
□ واقع تسيير الإنتاج بين النظرة الغربية (MRP) والنظرة اليابانية (JIT). بقلم : أ. محمد قريشي 201
□ التنبؤ بأزمات الأسواق المالية .
بقلم : أ. علي قابوسة 219
□ اللغة والفكر والمعنى.
بقلم : د. محمد بوعمامه 235
□ سؤال الهوية في خطاب المرويات الشفاهية .
بقلم : أ. أحمد زغب 249
□ شخصية الشيخ العالم وأبعادها في رواية«الزلزال» للطاهر وطار .
بقلم : د. علي زغينة 259
□ التداخل النصي الجزائري / الجزائري : دراسة في الشعر الجزائري المعاصر . بقلم : أ. جمال مباركي 273

ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي كاتبه ، ولا يمثل بالضرورة رأي المجلة

البحوث والمقالات التي تصل المجلة ولا تستجيب لشروط النشر المعتمدة لا نلتزم بعرضها على هيئة التحكيم كما لا نلتزم بردها لأصحابها .

قواعد النشر في المجلة

ترحب المجلة بكل إسهامات الأساتذة والباحثين ، ويشترط في البحوث والدراسات المرشحة للنشر بالمجلة ما يأتي:

* المعالجة الموضوعية وفق الأسلوب العلمي الموثق .
* الالتزام بأصول البحث العلمي وقواعده العامة والأعراف الجامعية في التوثيق الدقيق لمواد البحث .
* أن تكون الهوامش في آخر البحث متضمنة إعطاء معلومات ببليوغرافية كاملة .
* تقدم البحوث مكتوبة على جهاز الحاسب الآلي مطبوعة من ثلاث نسخ مرفقة بنسخة على قرص مرن مع مراعاة التصحيح الدقيق في جميع النسخ .
* وضع ملخص بالعربية وآخر بالفرنسية أو الإنجليزية لا يتعدى الواحد خمسة أسطر .
* أن يرفق الباحث بموضوعه ورقة متضمنة التعريف به وبدرجته وإنتاجه العلمي، وكذا عنوانه البريدي والالكتروني إن وجد ، ورقم هاتفه .
* أن يقر الكاتب أن البحث أو المقال لم يسبق نشره أو أرسل للنشر في مجلات أخرى .
* تخضع المواد الواردة لتحكيم الهيئة العلمية الاستشارية للمجلة .
* يجري إعلام الكتاب بقرار الهيئة العلمية الاستشارية وهيئة التحرير ، ولا تعاد المواد المعتذر عن نشرها لأصحابها .

توجه جميع المراسلات إلى العنوان التالي :

رئيس تحرير مجلة البحوث والدراسات
المركز الجامعي بالوادي
حي النور- ص . ب : 789 الوادي 39000 الجزائر .

افتتاحية العدد :

كلمة السيد مدير المركز الجامعي

يسعدني أن أزف إلى إخواني الأساتذة والباحثين وإلى أبنائي وبناتي الطلبة والطالبات العدد الرابع من مجلة البحوث والدراسات التي يتشرف المركز الجامعي بالوادي بإصدارها منذ أربعة أعوام .

وإنه ليحدوني الأمل الكبير في أن تقدم هذه المجلة الفائدة العلمية المرجوة منها ؛ ذلك أن المؤسسة الجامعية ليست بمدرجاتها وحجرات الدراسة فيها فحسب ، وإنما هي أيضا بحجم الأعمال والإبداعات الفكرية والأدبية الخلاقة، بحيث ترفع من مستوى الأداء الاجتماعي والفكري للمنتسبين إليها والمتعاملين معها ، وتتطلع بجهود الجميع إلى الرقي والازدهار .

لقد حرصت الجامعة الجزائرية بتوجيه ومؤازرة من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي على دعم البحث العلمي بمختلف الصور والأساليب ، ووفرت الإمكانيات المادية الهائلة للتدريب والتكوين وتحسين المستوى ، ورصدت الوزارة جهودا وأموالا طائلة لتقريب المادة العلمية من الأستاذ والطالب ، وتمكين وتسهيل الاستفادة من جميع الفرص المتاحة ، ويأتي البحث والنشر العلمي داعما لتلك المسيرة ومحفزا للهمم لأجل التطلع إلى مستقبل أفضل ، ونحسب أن هذه المجلة التي نصدرها لبنة في بناء البحث العلمي الذي حرصت الجامعة الجزائرية على إرساء قواعده ودعمه وتشييده .

تمنياتنا بالتوفيق والنجاح لمسعى هذه المجلة الفتية ولطاقمها العلمي من الأساتذة والباحثين، وإلى المزيد من العلم والعمل والاجتهاد .

مدير المركز الجامعي بالوادي
المدير العام المجلة
د. عز الدين حفطاري

كلمة رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين .

وبعد،

يشق العدد الرابع من مجلة البحوث والدراسات طريقه في مشوار البحث الأكاديمي بباقة متنوعة من الدراسات المتخصصة، في فروع علمية وأدبية كثيرة، تقدم للقارئ زادا فكرياً محترماً، ووجبة ثقافية معتبرة .

وقد استهل هذا العدد موضوعاته بالدراسات الإسلامية ابتداءً من بحث حول التصوف الإسلامي للدكتور عبد الرحمن تركي، ثم دراسة حول إشكالية لزوم الشورى في نظام الحكم للدكتور عبد الكريم حامدي، ويأتي بعدها بحث حول التشريع بالمصلحة وتطبيقاته للأستاذ محفوظ بن صغير ، ويتبع بدراسة حول النقد عند المحدثين للأستاذة عائشة غرابلي .

أما الدراسات التاريخية فنستهلها ببحث للأستاذ علي غنابزية يعالج مناهج التعليم القرآني بمنطقة وادي سوف، ثم يقدم الأستاذ عاشوري قمعون دراسة يعرف من خلالها بشخصية الشيخ أحمد العبيدي العلمية، ثم يقدم الأستاذ محمد السعيد عقيب بحثا يعالج علاقة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بالمنظمات العالمية للطلبة . ثم يأتي بحث بعنوان : المدخل المنظومي وتحديات العولمة للأستاذ عمر روينة.

ونستهل البحوث الاقتصادية بموضوع للأستاذ محمد الناصر حميداتو حول آفاق السياحة بالجزائر، ثم دراسة تعالج وظيفة البنوك في المحيط الاقتصادي الجديد في الجزائر للأستاذ عبد الله غالم، يلي ذلك موضوع للأستاذين مقدم عبيرات وأحمد بساس يتطرق لمسألة الاقتصاد غير الرسمي ومشكلة التهرب الضريبي، ثم يقدم الأستاذ عبد السميع روينة بحثا حول إطار جديد للمحاسبة العمومية من خلل المخطط المحاسبي للدولة، يليه بحث حول واقع تسيير الإنتاج بين النظرة الغربية والنظرة اليابانية للأستاذ

محمد قريشي، ويأتي في خاتمة الدراسات الاقتصادية موضوع التنبؤ بأزمات الأسواق المالية للأستاذ علي قابوسة .

أما البحوث والدراسات اللغوية والأدبية فنستهلها بموضوع يعالج جدلية اللغة والفكر والمعنى للدكتور محمد بوعمامه، يليه بحث للأستاذ أحمد زغب حول سؤال الهوية في خطاب المرويات الشفاهية، ثم يقدم الدكتور علي زغينة دراسة في رواية « الزلزال » للطاهر وطار يتطرق فيها لشخصية الشيخ العالم وأبعادها . وجاء في خاتمة أبحاث المجلة موضوع في الشعر الجزائري المعاصر للأستاذ جمال مباركي يعالج فيه مسألة التداخل النصي الجزائري / الجزائري .

والجدير بالذكر أن الموضوعات التي وصلت المجلة خلال هذا العام أكثر مما كان متوقعاً ، حيث تجاوزت المائة بحثٍ بكثير، مما جعل مهمة النظر في مدى استجابة تلك البحوث لشروط النشر بالمجلة تأخذ من الوقت والجهد القدر الوفير، ولا تزال موضوعات كثيرة في قائمة الانتظار للفصل النهائي في أمر برمجة نشرها في الأعداد اللاحقة إن شاء الله تعالى .

كل ذلك ينبئ عن مستقبل موفّق . إن شاء الله تعالى . لهذه المجلة الفتية والتي نأمل أن تتفرع عنها إصدارات أخرى بحيث يتخصص كل إصدار بمجال تخصصي معين ، بما يخدم العلم والبحث والمعرفة .

كما تؤكد لنا الاتصالات الكثيرة التي تلقيناها من مؤسسات وشخصيات علمية رفيعة المستوى داخل الوطن وخارجه على القبول الحسن لما تم إنجازه، وأن الحرص شديد على دعم هذا المشروع العلمي الطموح .

هذا، ونجدد التأكيد على إخواننا الباحثين بضرورة مراعاة شروط النشر المثبتة في كل عدد من المجلة؛ وذلك حتى تسهل مهمة عرض البحوث على التحكيم، ثم الشروع في إعادة تهيئتها للطباعة .

والشكر موصول للسادة أعضاء الهيئة العلمية، وللإخوة الباحثين على ثقتهم في المجلة، وحرصهم الشديد على خدمة أهدافها العلمية النبيلة.

رئيس التحرير

الأستاذ : إبراهيم رحماني

التصوف الإسلامي : المفهوم والنشأة

« دراسة تحليلية »

بقلم

د/ عبد الرحمن تركي

أستاذ بمعهد الآداب واللغات. المركز الجامعي بالوادي .

ملخص :

نرى في هذا المقال مسار التصوف الذي نشأ كعلم منذ القرن الثاني الهجري، والذي كان في البدء حياة زهدية قائمة على التأمل وإحياء الروح ومحاسبة الذات والبعد عن الخلق، والذي (أي التصوف) تمثل في شخصيات وطوائف انتهجته واشتغلت به كطريق متميز بين الطوائف الأخرى كالفقهاء واللغويين والمؤرخين والفلاسفة، وبهذا صار منهجا دينيا واتجاها نفسيا له دوافعه وأبعاده وملامحه، ثم ظهر نظام الطريقة كتطور طبيعي لحاجات الناس وظروفهم الاجتماعية والثقافية، وللمكانة السامية التي كان عليها مشايخ التصوف وأئمته ولوظيفتهم التربوية والتعليمية انتشرت حلقات العلم والذكر في المساجد والزوايا .

The summary:

This article focuses on one of the most Important religious trends in Islam: it is Souffism which has started during the second century of the Hidjra.

This trend was firstly based on the principle of simple living, soul revive, auto-judgment and life in isolation.

Souffism has became an independent religious and psychological movement thanks to the efforts of the individuals and factions who had adopted it. For that reason the (Tarika system) emerged as a natural development for people needs as well as their social and cultural conditions.

The most Important position enjoyed by the spiritual leaders of this trend has helped spread its religious preaching and scholar teachings either in mosques or in Zaouia

مقدمة :

جذب التصوف إليه كعلم وسلوك ومنهج اهتمام العلماء والفلاسفة والباحثين فكتبوا عن نشأته واشتقاقه ومقاماته وأحواله، كما كتبوا عن سير الزهاد والمتصوفة ونقلوا أقوالهم وآثارهم العلمية والعملية .

وممن كتب في التصوف قديما الحارث بن أسد المحاسبي (ت 243 هـ) وكتابُه (الرعاية لحقوق الله)، وأبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي (ت 378 هـ) وكتابه (اللمع في التصوف)، وأبو بكر محمد بن إبراهيم الملقب بالكلاباذي (ت 380 هـ) وكتابُه (التعرف لمذهب أهل التصوف)، وأبو طالب محمد بن علي المكي (ت 386 هـ) وكتابه (قوت القلوب)، وأبو القاسم عبد الكريم القشيري (ت 465 هـ) وكتابُه (الرسالة القشيرية) [1] ، وأبو حامد الغزالي (ت 505 هـ) وكتاباه (المنقذ من الضلال) و(إحياء علوم الدين)، وأبو العباس أحمد زروق الفاسي (ت 899 هـ) وكتابُه (قواعد التصوف)، كما أفرد عبد الرحمن بن خلدون (ت 808 هـ) فصلا في مقدمته لتعريف التصوف ونشأته وأعلامه .

واقتداء بمن سبق من أهل العلم كتب مفكرون وباحثون معاصرون عن التصوف، منهم عباس محمود العقاد الذي أفرد فصلا للتصوف في كتابه (التفكير فريضة إسلامية)، وعبد الحليم محمود الذي كتب عن أعلام التصوف وآثارهم، ومحمد علي أبو ريان الذي تحدث عن التصوف عند ابن سينا وعند الغزالي في كتابه (تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام)، كما تحدث عن التصوف عند شهاب الدين (يحي بن حبشي) السهروردي في كتابه (أصول الفلسفة الإشراقية) .

ومن هؤلاء الباحثين يوسف زيدان الذي اهتم بالكتابة في التصوف لاسيما من الجانب الأدبي، ومن مؤلفاته (شعراء الصوفية المجهولون) و(عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصوفية) و(ديوان عبد القادر الجيلاني) و(الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر) .

وجذب التصوف إليه اهتمام المستشرقين فتعددت دراساتهم وأبحاثهم حوله، وأثارت دهشتهم وولعهم الشخصيات المشتهرة في مجاله مثل رابعة

العدوية والحسن البصري وأبو القاسم الجنيد بن محمد وأبو حامد الغزالي ومحي الدين بن عربي (ت 638 هـ) والحسين بن منصور الحلاج (ت 309 هـ) وشهاب الدين السهروردي (ت 580 هـ) .

ونذكر من هؤلاء المستشرقين : من المستشرقين الفرنسيين لويس ماسينيون في دراسته عن الحلاج[2]، وجان شوفلييه في دراسته عن التصوف والمتصوفة لاسيما في المغرب العربي[3]، وروجيه إرنالديز في كتابه (رسل ثلاثة لإله واحد)[4]، ومن الانجليز جب هاملتون في كتابه (دراسات في حضارة الإسلام)[5]، ورينولد نيكلسون في كتابه (تراث الإسلام)[6]، وسبنسر ترمنجهام في كتابه (الفرق الصوفية في الإسلام)[7]، ومن الإسبان آسين بلاسيوس في دراسته لشخصيتي ابن عربي وأبي حامد الغزالي[8].

وبعد نظر في كتاباتهم وقراءة متمعنة نجدهم تساءلوا هل أن التصوف هو البقعة المشتركة التي تلتقي عندها الديانات الثلاثة (الإسلام واليهودية والمسيحية) ؟، وبحثوا عن العلائق والصلات النظرية والعملية التي تربط بين التصوف الإسلامي والمسيحي ؟، كما تساءلوا هل أن أصول التصوف في الدين الإسلامي أجنبية، من الرهبانية السريانية[9] أو من الأفلاطونية المحدثة[10] أو من الزرادشتية الفارسية[11] أو الفيدانتا الهندية[12]، أم أن أصوله نشأت من التعمق في تأمل القرآن واستخراج ما يدعو إلى الزهد والخلوة والانقطاع عن الخلق ؟ .

ونحن هنا نتناول تعريف التصوف ونشأته وتطوره عبر مراحل الزمن مبينين نوع المفاهيم والأفكار التي حملها وأهم عناصرها .

. تعريف التصوف :

التصوف كلمة حادثة في الحضارة العربية الإسلامية، طرأت قبل المائتين من الهجرة، إذ لم يتسم بها المسلمون في عصر النبي عليه الصلاة والسلام أو بعده مع أنهم متصفون بكل ما تحمله هذه الكلمة من فضائل وأخلاق وما تتضمنه من صفاء وإخلاص وتطهر، وكان السبب في ظهورها (أي كلمة التصوف) أنه لما تغير الوضع الديني والاجتماعي، وحدثت عادات وأعراف وحصل التنافس بين الفرق والطوائف فكل فرقة تدّعي أن فيها زهادا، انفرد زهاد عامة المسلمين

وخواصهم باسم التصوف، يقول ابن خلدون : " هذا العلم (أي علم التصوف) من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عامّا في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة ."[13] .

أما ما يتعلق باشتقاق كلمة (التصوف) وتعريفه من الناحية اللغوية فقد اختلف الباحثون وكثرت الأقوال، ويمكن إجمالها فيما يلي :

1- التصوف من الصوف، يقال تصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص، والصوف غالب لباس المتصوفة لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب[14]، وهذا ما يذهب إليه ابن خلدون[15][16] .

2- التصوف من الصوف، لأن المتصوف كالصوفة المطروحة لا تدبير لها، أو هو من صوفة القفا للينها، فالصوف هين لين كهي[17] .

3- من الصِّفة أو الصفا وضده الكدورة، إذ جملته (أي التصوف) اتصاف بالمحامد وترك الأوصاف المذمومة، واشتقاق التصوف من الصفا بعيد في مقتضى اللغة[18] .

4- أو هو منقول من الصُّفة[19]، لأن صاحبه تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الوصف، وهذا الاشتقاق أيضا بعيد في مقتضى اللغة، وكذلك النسبة إلى الصف، وإن كان المعنى أن المتصوفة في الصف الأول بقلوبهم[20] .

5- التصوف في أمم الغرب المسيحية يشتق من الخفاء أو السر، ويطلقون عليه اسم (مستسزم) Mysticism أي السرية أو المعاني الخفية، فخاصته المميزة له عندهم هي البحث في البواطن والتعمق في الأسرار المغيبة وراء الظهور[21] .

6- ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنه كاللقب [22] .

ومن حيث الاصطلاح فالتصوف علم أخلاق وسلوك ومعاملة، يسميه البعض (علم الأخلاق)، والبعض (مقام الإحسان)[23]، ومبناه على الزهد والعبادة، وهدفه تصفية النفس من الرعونات والرذائل وتنقية الأفئدة من الأدواء والأمراض الباطنية، والسير بالنفس من مقام إلى مقام أعلى والتدرج بها والانتقال من حال إلى حال أفضل إلى رتبة السمو والرقي والكمال .

والتصوف كذلك علم أخروي من حيث أنه يحاول إخراج العبادات والمعاملات من حدود الفقه الجامدة وإعطائها مفهومات جديدة ترتكز على الباطن (الوجدان) دون إغفال للظاهر في الدين ليرتقي الإنسان إلى درجة القرب من الله تعالى والفوز بمعيته والتمتع بالنظر إليه في جنة الخلد في الآخرة فعُرف بعلم الباطن، وهو كذلك علم عملي أخلاقي من حيث إنه يرتبط بالمجاهدة والأحوال والمقامات، وتربية نفس الإنسان من حيث الذوق والوجدان والقلب والروح ومنها إلى سائر الأعضاء والجوارح لذلك عدّه بعض الباحثين (علم النفس الإسلامي)[24] .

وقد أورد القشيري والكلاباذي تعاريف عديدة للتصوف، منها[25] :

1- التصوف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني .
2- هو أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام.
3- هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده .
4- هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق .
5- هو ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع .
6- هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة .
7- هو الانقطاع عن الخلق والاتصال بالحق .
8- هو حفظ الأوقات، وهو أن لا يطالع العبد غير حدّه، ولا يوافق غير ربّه، ولا يقارن غير وقته .

وأهم ما يلاحظ على تعاريف التصوف أنها[26] :

أولا . إن اختلفت ألفاظها ومبانيها فإن معانيها متقاربة .

ثانيا . إن ما ذكر فيها من أوامر ونواهي ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : أعمال قلبية باطنية كالإخلاص والحب والخوف والرجاء والخشوع والزهد وإيثار ما عند الله، وإنكار الكبر والعُجب والرياء والغفلة والغرور .

القسم الثاني : أعمال ظاهرية كالذكر والصلاة والزكاة والصوم والحج، وهذه الأعمال تبنى على أساس الأعمال القلبية، وهي من آثارها .

. نشأة التصوف وتطوره :

تزامن نشوء التصوف في الإسلام كعبادة وخلق وسلوك بظهور الإسلام نفسه، ذلك أن الرعيل الأول من المسلمين رجالا ونساء اتسموا بالتقوى والخشوع والإنابة إلى الله والخوف من عقابه والرجاء والطمع في ثوابه ورضوانه، والتضحية بالمال والنفس في سبيله، واتسموا بطلب الآخرة والسعي لها والزهد فيما في أيدي الناس وإماتة شهوات الجسد، كما اتسموا بالخُلق الفاضل كالصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

لكن لم يؤثر عن الجيل الأول في الملة الإسلامية أنهم تسموا بالصوفية أو المتصوفة، وإنما عرف هذا المصطلح بعد ذلك، وصار علَمًا على العلم الذي يرسم الطريق الباطني الموصل إلى المعرفة والكشف وإزالة الحجب عن الحقائق والأسرار والتوسل بالمعرفة إلى القرب من الذات الإلهية، قال القشيري : " لم يتسمّ أفاضلهم (أي المسلمين) بعد رسول الله ﷺ في عصرهم بتسمية علم سوى محبة رسول الله ﷺ إذ لا فضيلة فوقها فقيل لهم الصحابة، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمى من صحب الصحابة التابعين، ورأى في ذلك أشرف سمة، ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة . "[27] .

إذن ظهر التصوف كسلوك ثم تحول إلى علم ومعرفة، وصار له أعلام كالحارث بن أسد المحاسبي البغدادي الذي كان من الزهاد المتكلمين على

العبادة والزهد في الدنيا والمواعظ، وكان فقيها متكلما مقدما، كتب الحديث وعرف مذاهب النساك، وهو بصري الأصل، مات ببغداد سنة 243 هـ، وله من الكتب : كتاب التفكر والاعتبار، وله كتب كثيرة في الزهد وأصول الديانة، والرد على المعتزلة[28]، ومثل أبي القاسم الجنيد بن محمد الذي ولد ونشأ بالعراق، وكان رئيسا من رؤساء المتصوفة وورعا زاهدا، مات سنة 297 هـ[29]، والفضيل بن عياض الذي جاور الحرم المكي حتى مات سنة 187 هـ[30] .

وشهد التصوف بعد هؤلاء تطورا على يد أبي حامد الغزالي الذي انقلب من مدرسة المتكلمين إلى المدرسة الصوفية، والذي تميز بتفكير نقدي[31]، وكان كتابه (إحياء علوم الدين) - الذي تأثر به متصوفة المغرب العربي وفقهاؤه وأُولعوا به[32] . محاولة لتأسيس أحكام الفقه وصياغتها صياغة صوفية روحانية بالبحث عن أسرار العبادات ومقاصدها وآداب العادات وحقوق الإنسان من حيث الدين والجوار والرحم، والتمييز بين الفضائل والرذائل[33] .

تلا الغزالي اعتماد الكثير من الفقهاء أبرزهم عبد القادر الجيلاني (ت 561 هـ) للصوفية كطريقة للتربية والتعليم والهداية، ويبدو أن الجيلاني وتلاميذه الذين نشروا طريقته في بقاع المشرق والمغرب العربيين بواسطة رحلات الحج عادوا بالتصوف إلى جذوره الأولى بالتركيز على تعليم القرآن والحديث مقتدين بأشخاص مثل الحسن البصري والحارث المحاسبي والجنيد بن محمد' ومما دعوا إليه توازي التصوف والشريعة، فكل حقيقة لا تشهد بصحتها الشريعة فهي زندقة، وتوازي الطهارتين الباطنة والظاهرة[34] .

ويُعدّ انتشار حلقات العلم والذكر حول علماء ومفسرين وفقهاء النواة الأولى لنشأة الطرق الصوفية فيما بعد، والتي انتشرت في كثير من الأقطار العربية والإسلامية، وضربت جذورها في الميادين الاجتماعية والسياسية والثقافية، والتي أعطت العناية للاستجابة لتطلعات المجتمعات والشعوب في النواحي الدينية والتعليمية لاسيما عند ضعف الدول وانحطاطها .

وفي أثناء مسيره امتزج التصوف لدى بعض أقطابه مثل الحسين بن منصور الحلاج وشهاب الدين السهروردي بالأفكار الغنوصية[35] مثل الاتحاد والحلول ووحدة الوجود، وقد استخدم هؤلاء التحليلات الميتافيزيقية عند

كبار الفلاسفة وخاصة ابن سينا الذي تأثر بالأفلاطونية المحدثة وبعناصر فارسية فتكلموا في الأنبياء ورسالتهم وفي علاقة المخلوقات بخالقها وحلول الإله في نفس الصوفي أو الوحدة بين (الأنا الإنساني) و(الأنا الإلهي)[36]، كما تكلموا في الإشراق وفي وحدة الوجود، وقد صاغوا خلاصة آرائهم نثرا أو في قصائد مطولة يعتبر بعضها من أجمل ما في الأدب العربي[37] .

كما امتزج التصوف أثناء مرحلة الانحطاط والجمود التي سادت العالم الإسلامي، امتزج بأفكار تقديس الأشخاص والبحث الحثيث عن الكرامات وخوارق العادات والقصص الغريبة، والتمسح بالأضرحة والاعتقاد القوي بنفعها وضرها، مما أدى إلى ضمور طلب العلم من مظانه وغياب الأخذ بالأسباب .

وبسبب هذه الأفكار التي امتزجت بالتصوف خلص بعض المستشرقين إلى أن التصوف بكامله في نشأته وتطوره تأثر بعوامل أجنبية عن الدين الإسلامي كالنصرانية أو الزرادشتية أو الثقافة اليونانية القديمة، ومن هؤلاء المستشرقين آدم متز الذي يقول في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) : " وتدل أقدم الكتب الصوفية التي وصلت إلينا، وهي مصنفات الحارث بن أسد المحاسبي المتوفي سنة 243 هـ/858م دلالة واضحة على أنه تأثر بالنصرانية تأثرا، فإنه قد بدأ أحد كتبه بمَثل الباذر المذكور عن المسيح عليه السلام[38]" [39]، والمستشرق اجنتس جولد تسيهر الذي يقول في كتابه (العقيدة والشريعة في الإسلام) : " وقد حاكى هؤلاء الزهاد المسلمون وعبّادُهم نُساك النصارى ورهبانَهم .." [40]، ويقول كذلك : " ومما هو جدير بالذكر أن فقرات الأناجيل التي يكثر الاستشهاد بها في الحِكم التي تحث على الزهد والتي تتحدث عن طير السماء التي لا تبذر ولا تحصد ولا تكدس ولكن يغذيها خالقها، هذه الفقرات توجد بنصها تقريبا في لب هذه المبادئ الخاصة بالتوكل .."[41] .

ومن هؤلاء المستشرقين المستشرق دي بور (ت . ج) الذي يقول في كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام) : " هذه النزعة التي كانت موجودة منذ عهد الإسلام الأول، قويت بتأثير عوامل ترجع إلى النصرانية وإلى مؤثرات فارسية . هندية، ونمت وعظم أمرها بتأثير تقدم المدنية والنفور من الانغماس في الدنيا، فنشأت عن ذلك مجموعة ظواهر دينية يطلق عليها عادة اسم التصوف "[42] .

وبناء على هذه الرؤية اعتقد بعضهم أن التصوف في الحضارة العربية الإسلامية يماثل التصوف في الحضارات والملل الأخرى، أو بعبارة أخرى أن التصوف هو المنطقة المشتركة التي تلتقي عندها كل الديانات لاسيما اليهودية والمسيحية والإسلام، وأن المتصوفة المسلمين يقتربون كثيرا من رهبان النصارى مهما كانت التعارضات العقائدية والتشريعية بينهم، وذلك من حيث الاشتراك في صفات العزلة والاختلاء ونبذ ملذات الحياة وأخلاق المحبة والخوف والرجاء [43] .

خاتمة :

اتضح في هذا المقال تعدد تعاريف التصوف واشتقاقاته، وهي وإن تعددت تؤكد على الاهتمام بالجانب الباطني من المعرفة، وعلى التركيز على أسرار العبادات وآثارها القلبية والروحية وثمارها الأخلاقية، كما اتضحت نشأة علم التصوف كغيره من علوم الإسلام الحادثة في القرن الثاني الهجري، ثم تطوره وتنوع تياراته واتجاهاته .

واتضح كذلك مدى الحاجة إلى تحقيق ما هو من مذاهب الصوفية وما هو ضمن مقاماتهم وأحوالهم وضمن مصطلحاتهم ومفاهيمهم، وتمييز ما كان دخيلا عليهم من تصورات وعقائد وعادات ليست من التصوف في شيء .

وبرغم اهتمام المفكرين والكُتّاب والأدباء بالتصوف إذ نجد في مؤلفاتهم خُطبا وأشعارا وقصصا وحكايات متعددة عن أخلاق أئمة التصوف ومآثرهم، برغم هذا مازال التراث الصوفي يحتاج إلى بحوث ودراسات، لذا فإني أوصي بتوجيه البحث العلمي إلى إحياء هذا التراث وتحقيقه ونشره وبيان قيمته وأهميته، وشرح مدى فاعليته الاجتماعية بالمقارنة مع جوانب الثقافة الأخرى .

. الهوامش :

1 ـ كتب القشيري عبد الكريم بن هوازن رسالته المشهورة سنة 437 هـ إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام، وذلك أنه لما رأى انقراض أكثر شيوخ الصوفية المحققين وفساد حال كثير من الباقين ألّف رسالته، وذكر فيها سيرا من سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم لتكون قوة للصوفية وعونا على صلاح أمرهم . (آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج2، ص483) .

2 ـ نجيب العقيقي : المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، ج1، ص 263، وعبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الثالثة 1993م، ص 529، 530.

3 ـ جان شوفليي : التصوف والمتصوفة ، ترجمة عبد القادر قنيني، دار إفريقيا الشرق، بيروت، طبعة 1999م .

4 ـ روجيه ارنلديز : رسل ثلاثة لإله واحد، ترجمة وديع مبارك، منشورات عويدات، بيروت ـ باريس، الطبعة الأولى، 1988م .

5 ـ جب هاملتون : دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس ومحمد يوسف نجم ومحمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1979م .

6 ـ رينولد نيكلسون : تراث الإسلام، تعريب جرجيس فتح الله، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1978م .

7 ـ بعد اطلاعي على هذا الكتاب لاحظت أخطاء مطبعية كثيرة وعسرا في فهم كثير من الفقرات لرداءة الترجمة ـ سبنسر ترمنجهام : الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة عبد القادر البحراوي، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1997م .

8 - العقيقي : المرجع السابق، ج2، ص 194 .

9 ـ السريانية نسبة إلى النصارى السريان الذين تولوا ترجمة كتب اليونان إلى العربية خاصة في العهدين الأموي والعباسي . (دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية، بيروت، ط5، 1981م، ص 19) .

10 ـ الأفلاطونية المحدثة : مدرسة فلسفية يونانية اندمجت فيها عناصر شتى من المذاهب الدينية والفلسفية بما في ذلك السحر والتنجيم والعرافة، من أهم رجالها : أفلوطين (ت 270م) الذي يرى أنه على قمة الوجود يوجد (الواحد) ـ أي الله ـ وهو الخير بالذات الذي تصدر عنه الموجودات صدورا ضروريا عن طريق الفيض أو الإشعاع النوراني، ولذلك سميت هذه المدرسة بمدرسة الفيض وسميت الأقانيم الصادرة . (محمد علي أبوريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ص 68، 69، 70) .

11 ـ الزرادشتية : أتباع زرادشت الذي ظهر بفارس في القرن السادس قبل الميلاد، من مبادئهم القول بإلهين اثنين للخير والشر والنور والظلمة . (الشهرستاني : الملل والنحل، تحقيق أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الخامسة، 1996م، ج1، ص 281، 282) .

12 ـ الفيدا كتاب الهندوس المقدس، يتضمن أناشيد دينية وعبارات يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين، ومقالات في السحر والرقى والتوهمات الخرافية، والفيدانتا فلسفة الهند الأخلاقية تضمنت مبادئ صوفية كمبدإ وحدة الوجود . (أحمد شلبي : أديان الهند الكبرى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط10، 1997، ص 45، 46، 72) .

13 ـ ابن خلدون : المقدمة ، دار القلم، بيروت، الطبعة السابعة 1989م، ص 467 .

14 ـ يرفض القشيري هذا الاشتقاق، ويقول بأن القوم لم يختصوا بلبس الصوف . (أبو القاسم القشيري : الرسالة القشيرية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م، ص 312) .

15 ـ ابن خلدون : المقدمة، ص 467 .

16 ـ هذا المنحى في تعريف التصوف الذي يتبناه ابن خلدون يذهب إليه المستشرق سبنسر ترمنجهام حيث يقول : " أطلق مصطلح صوفي أولا على الزهاد المسلمين الذين ارتدوا الملابس الصوفية الخشنة ومنها جاءت كلمة تصوف ..." (سبنسر ترمنجهام : الفرق الصوفية في الإسلام، ص 21) .

17 ـ أبو العباس الفاسي : قواعد التصوف، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ص 24 .

18 ـ القشيري : الرسالة القشيرية، ص 312، وأبو العباس الفاسي : قواعد التصوف، ص 24، وابن خلدون : المقدمة، ص 467 .

19 ـ أهل الصفة : قوم اعتكفوا في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بالمسجد، واشتغلوا بالعبادة والعلم، ليس لهم أهل ولا مال، وإذا جاءت رسول الله هدية بعث إليهم منها، وإذا جاءته الصدقة أرسل بها إليهم ولم يصب منها . (جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي : صفة الصفوة، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1996م، ج1، ص 333) .

20 ـ القشيري : الرسالة القشيرية، ص 312، وأبو العباس الفاسي : قواعد التصوف، ص 24، وابن خلدون : المقدمة، ص 467 .

21 ـ العقاد : التفكير فريضة إسلامية، ص 107 .

22 ـ القشيري : الرسالة القشيرية، ص 312 .

23 ـ ورد مقام الإحسان في حديث جبريل عليه السلام، وفيه : " قال (أي جبريل) يارسول الله ما الإحسان ؟ قال : أن تخشى الله كأنك تراه فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك، قال صدقت . " رواه مسلم في صحيحه من كتاب الإيمان باب الإسلام ما هو وبيان خصاله، (الجامع الصحيح، دار الفكر، بيروت، ج1، ص 31) .

24 ـ صالح نعمان : أصالة التصوف الإسلامي وأهميته في الحياة المعاصرة، مجلة معهد أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، السنة الأولى، العدد الأول، ديسمبر 1998م، ص 121، 122 .

25 ـ القشيري : الرسالة القشيرية، ص 312، 313، 314، والكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق محمود النواوي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط2، 1980م، ص 109 .

26 ـ صالح نعمان : المرجع السابق، ص 124، 125 .

27 ـ القشيري : الرسالة القشيرية، ص 21 .

28 ـ القشيري : الرسالة القشيرية، ص 32، وابن النديم : الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1997م، ص 230 .

29 ـ أبو القاسم القشيري : المصدر السابق، ص 50، وابن النديم : المصدر السابق، ص 229 .

30 ـ أبو القاسم القشيري : المصدر السابق، ص 25 .

31 ـ انتقد الغزالي الفلاسفة في كتابه (تهافت الفلاسفة)، كما انتقد المتكلمين والفلاسفة والباطنية أصحاب التعاليم والإمام المعصوم في كتابه (المنقذ من الضلال) .

32 ـ الطاهر بونابي : التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7 الهجريين / 12 و 13 الميلاديين، دار الهدى، عين مليلة، ط 2004، ص 63 .

33 ـ ينظر : أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين، دار القلم، بيروت، ط3، ج1 (الفهرس، ص 321، 322، 323)، ج2 (الفهرس، ص 357، 358، 359)، ج3 (الفهرس، ص 389، 390، 391) .

34 ـ ممدوح الزوبي : الطرق الصوفية، ظروف النشأة وطبيعة الدور، الأهالي للتوزيع، دمشق، ط1، 2004م، ص 112، 113 .

35 ـ الغنوصية : مبدؤها العرفان وهو ليس العلم بواسطة المعاني المجردة والاستدلال كما هو الحال في المعرفة الفلسفية المنطقية، بل هو المعرفة الحدسية الحاصلة من اتحاد المعارف بموضوع المعرفة، أما غاية هذه المعرفة فهي الوصول إلى عرفان الله بكل ما في النفس من قوة حدس وعاطفة وخيال، وتعد بكشف الأسرار الإلهية وتحقيق النجاة، وقد تفاعلت مع الوثنية واليهودية والمسيحية في العصر العباسي . (محمد علي أبوريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، ص 79) .

36 ـ يؤمن المتصوفة القائلون بالاتحاد والحلول أن المحبة حركة شوق إلى اتحاد لتتعدى الاتحاد إلى وحدة المحب بالمحبوب فيفنى من بدوا وكأنهما طرفان متقابلان ليبقى الواحد في حقيقة، كما يؤمنون أن ذات الله تعالى يمكن أن تمتزج بذات البشر بحيث يصبح الفرد البشري إلها وينادي أنا الحق . (ممدوح الزوبي : المرجع السابق، ص 68، 69) .

37 ـ جورج شحاته قنواتي : الفصل الثامن (الفلسفة وعلم الكلام والتصوف)، ضمن كتاب (تراث الإسلام)، تصنيف جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، ترجمة حسين مؤنس وإحسان العمد، عالم المعرفة، الكويت، ط3، 1998، ج2، ص 74، 75 .

38 ـ ويؤيده مترجم الكتاب محمد عبد الهادي أبو ريدة فيقول : " وينقل المحاسبي في كتابه (الرعاية لحقوق الله) عن بعض الحكماء تمثيل الهادي بالباذر، وكلامه بالبذر، والناس بأرض صالحة مثمرة، أو أرض ذات شوك يخنق الزرع، أو صخر أملس لا يمكن الزرع من النماء، وتدل المقارنة بين كلام المحاسبي وبين مثل الباذر في إنجيل لوقا مثلا (الفصل السابع والعشرين) على أن المحاسبي ينقل عن السيد المسيح عليه السلام ". (محمد عبد الهادي أبو ريدة : هامش كتاب الحضارة الإسلامية لآدم متز، ج2، ص 467)، ولكن بمراجعة كتب الحديث النبوي نجد أن المثل يشبه إلى حد كبير نص حديث شريف يرويه مسلم في صحيحه من كتاب الفضائل باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ به من الهدى والعلم، (الجامع الصحيح، دار الفكر، بيروت، ج7، ص 63) .

39 ـ آدم متز : المرجع السابق، ص 466 .

40 ـ أجناس جولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر، دار الرائد العربي، بيروت، ص 136 .

41 ـ أجناس جولد تسيهر : المرجع نفسه، ص 135، 136 .

42 ـ دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية، بيروت، ط5، 1981م، ص 125، 126 .

43 ـ وحول هذا الاقتراب خاصة في مجال المحبة والإيمان القلبي يقول المستشرق روجيه ارنلديز : " فالقلب إذا هو المحور الذي تتجه نحوه الرسائل الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام) مهما كانت تعارضاتها العقائدية " ، ويقول " لكن يتفق لكل منهم (اليهودي والمسيحي والمسلم) وهو يعيش قيمه الخاصة أن يتمكن من الانفتاح على قيم الاثنين الآخرين فينبثق تشارك أكيد ويتألق على مستوى الاختبار الديني، اختبار يكون القلب وحده قادرا عليه " (روجيه ارنلديز : رسل ثلاثة لإله واحد، ص 61، 62) .

محاسن الشورى وإشكالية لزومها في النظام السياسي الإسلامي

بقلم:
د/ عبد الكريم حامدي
أستاذ محاضر بكلية العلوم الاجتماعية والإسلامية. جامعة باتنة.

الملخص:

تشكل الشورى أحد المبادئ الهامة في نظام الحكم في الإسلام أمر بها القرآن الكريم وعمل بها رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده لما فيها من المحاسن الكثيرة، لكنها أهملت على أيدي الخلفاء الأمويين مما كان له أثر سيء بعلاقة الحاكم بالمحكوم وأدى ذلك إلى ضعف الأمة وانقسامها إلى طوائف وفرق . واليوم تسعى الدول العربية الإسلامية إلى استعادة الشورى في أنظمتها البرلمانية متأثرة بالديمقراطية الغربية، لكن الإشكال المطروح قديما وحديثا هل الشورى واجبة ابتداء وانتهاءً ؟ أي هل يجب عليه أن يستشير أعضاء الحكومة والبرلمان وهل عليه أن يأخذ بنتائج الشورى أم أن ذلك غير واجب هذا ما يعالجه هذا البحث.

The summary:

The council or advice (Eshourah in arabic)is one of the main principles of the political system in Islam.

The holy Qur'an ordered muslims to parctice Eshourah. The prophet – peace be up on him- and the calipgs after him practiced Eshourah.

But, it was neglected by the Amawian's caliphs (the caliphs from the tribe of bany oumaia), which let a very bad effects on the relationship between the governors and the people.

Thus, the Ummah get more and weak and separated into several parts and groups.

Nowadays, the Islamic and Arabic stats work to take back again Eshouah in their parliamentary systems, influenced by the occidental democracy.

The asked questions about this subject- in the past and now- are:

Is it obligatory to practice Eshourah ?

Is the governor obliged to practice Eshourah with the members of the government and the parlaiment?

Is he obliged to take in consideration the results of Eshourah or not?

These are the main themes treated in this research.

تشكّل الشّورى إحدى المبادئ والرّكائز الهامّة في النّظام السّياسي الإسلامي، حيث جاء الأمر بها في القرآن مخاطبا الرّسول ﷺ ومن بعده من الحكّام والرؤساء المسلمين، يأمرهم بفتح باب المشورة في القضايا العامّة التي لم ينزل فيها نص، قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [159 ـ آل عمران] ، أي: «وشاورهم في الأمر العام الذي هو سياسة الأمّة في الحرب والسّلم، والخوف والأمن وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية »[1]. فهذه الآية أقرّت الشّورى كمبدأ من مبادئ الحكم والسّياسة الشّرعية، والأمر بها وإن جاء مخاطبا الرّسول ﷺ فهو عام له ولمن بعده ممّن يتولّون شئون السّياسية، والنّصّ جاء جازما وقاطعا لا يدع شكّا في أن الشّورى مبدأ أساسي، لا يقوم النّظام الدّيني والمدني من دونه[2]. كما جعل القرآن الشّورى من الصّفات الممدوحة في المؤمنين، وخاصيّة من خصائصهم الملازمة لهم، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [38 ـ الشّورى]، فالآية جعلت الشّورى من صفات المؤمنين وأخلاقهم وخصائصهم، والمعنى: « يتشاورون فيما بينهم ولا يعجلون ولا ينفردون بالرأي »[3]، وهذا النّص مكّيّ النّزول، نزل قبل قيام الدّولة الإسلامية، وهو يؤصّل لمبدأ الشّورى، ويمهّد لها كنظام اجتماعي، تتّصف به الجماعة المؤمنة، فكانت دلالته أوسع وأعمق من الشّورى السّياسية المتعلّقة بالدّولة وشئون الحكم[4]. فهاتان الآيتان، أقرّتا الشّورى العامّة والخاصّة، كمبدأ سياسي واجتماعي، تتّصف به الجماعة المسلمة في محيطها الاجتماعي، كما يتّصف به الحاكم في محيط الدّولة، ولا شك أن الأمر بها لما فيها من المقاصد الجليلة والمحاسن المفيدة، وهذا لا إشكال فيه، إنما الإشكال الذي طرح قديما وما زال مطروحا حديثا في السّاحة الفكرية والسياسية هو: هل أنّ الشورى ملزمة ؟ أي هل أنها واجبة على الحاكم ابتداء وانتهاء؟ أي: هل يجب عليه أن يعرض الأمور العامّة على المجالس النيابية، ويلتزم بما تسفر عنها من نتائج وقرارات ؟

وقبل الإجابة على هذا الإشكال وما ثار فيه من خلاف ، يستحسن بيان ما في الشّورى من محاسن وقيم سياسية ؛ لأن ذلك سيمهّد ويساعد على معرفة أصوب الآراء .

محاسن الشّورى:

أصّلت الآيتان السّابقتان للشّورى، دون تعليل أو بيان للحكمة منها، وقد اجتهد العلماء في استنباط المحاسن التي من أجلها شرعت الشّورى، كأساس للحكم، نذكر منها خاصّة:

أوّلا : إنّ في الشورى أخذ برأي الجماعة أو الأكثرية، ومن ثمّ يكون هذا الرأي أقرب إلى الصّواب وأبعد عن الخطأ، وأولى من الاستبداد بالرّأي؛ لما في ذلك من غلبة الظّنّ بوقوع الخطأ[5]، وهذا هو السرّ في دعوة الإسلام إلى الاجتماع في إقامة الشّعائر المختلفة، كصلاة الجماعة، والعيدين، وغيرهما ؛ لما في الاجتماع من القوّة، والصّلاح، والمنفعة، ما لا يوجد في الانفراد[6].

ثانيا: لما في الشّورى من تطييب للخواطر، واستجلاب للمودّة[7]، ورفع لأقدار المستشارين وتأليف لهم على الدّين[8].

ثالثا: للدّلالة على أنّ الشّورى مشروعة، وأنّها قاعدة محكمة ماضية إلى يوم القيامة، وليست أمرا خاصّا بالرّسول[9].

رابعا: لما في الشّورى من قضاء على النّزعة الفردية الاستبدادية المؤدية إلى احتقار للآخرين، وتقييد حرّياتهم . ففي الشّورى غرس للنّزعة الجماعية في أمور السّياسة والتّشريع، فتكون المسئولية قاسما مشتركا بين الحاكم والمحكوم، فتتحقّق بذلك ذاتية الفرد والجماعة معا[10].

خامسا: في المشورة عصمة للحاكم من اتّخاذ قرارات فردية تضرّ بمصالح الأمّة، دون إدراك منه لأضرارها وعواقبها، ولا سبيل بعد وقوع الضّرر إلى دفعه أو إصلاحه، فكانت الشّورى مانعا من الوقوع فيما يضرّ بمصالح الأمّة[11].

سادسا: في الشّورى تذكير بأنّ الأمر ليس للحاكم ولا للحكومة، بل الأمر للأمّة جمعاء، وما الحاكم إلاّ وكيل ونائب عن الأمّة في تسيير شئونها

الدّينية والدّنيوية، وكذلك تذكير للأمّة بأنها شريك في الأمر أيضا، فلا تتخلّى عن واجبها[12].

سابعا: في الشّورى، احترام للعقل الإنساني، والإرادة الإنسانية، وحرّية الرأي، واحترام للفطرة البشرية في التعبير وإبداء الرأي، وتبادل وجهات النّظر[13].

هذه أهمّ المحاسن التي من أجلها شرعت الشّورى وأمر بها الحاكم باعتباره وكيلا عن الأمة في حفظ مصالحها.

مدى إلزامية الشورى:

بعد ظهور ما في الشورى من محاسن فردية واجتماعية وسياسية، ونطاقها، فما مدى إلزاميتها على الحاكم ؟ أي: هل هي واجبة عليه نحو المحكومين، بحيث لا يقضي أمرا إلا بعد مشورتهم؟ وهل هو ملزم باحترام نتائج الشورى وقراراتها ؟

حكم الشورى ابتداء:

اختلف الفقهاء في حكمها ومدى وجوبها ابتداء على رئيس الدولة على قولين[14] :

الأول: الشّورى غير واجبة، إنما هي مندوبة، فإذا قام بها الحاكم استحقّ الثواب في الآخرة، والثّناء في الدنيا، وإذا لم يقم بها وتركها فلا جناح عليه، واحتجّ أصحاب هذا الرأي بالأدلة الآتية:

- إنّ الرسول ﷺ ترك المشورة في قضايا كبيرة، كصلح الحديبية، وقتال بني قريضة، وغزوة تبوك. وإنما شاور الصّحابة في البعض الآخر، لا ليدل على أنها واجبة، إنما تطييبا لقلوبهم، وليكون ذلك أنشط لهم فيما يفعلونه، فيقاس الخليفة والحاكم من بعده على الرسول ﷺ في عدم وجوب الشورى.

- عمل الخليفة أبي بكر رضي الله عنه حيث لم يشاور الصحابة في إنفاذ جيش أسامة، وفي حروب الرّدة، وقتال مانعي الزكاة.

. إن الأصل في الأشياء الإباحة، وإنّ الوجوب لا بدّ له من دليل، وبما أنه لا دليل على الوجوب ، فإن الأصل هو عدم الوجوب.

الثاني: الشّورى واجبة على الحاكم ، بحيث يأثم إذا تركها ، واحتجّوا بالأدلة الآتية:

ـ آيتا الشّورى، فالآية الأولى أمرت بالشورى، والأمر محمول على ظاهره من الوجوب، ولم يرد ما يصرف هذا الظاهر عن الوجوب إلى النّدب، والثانية ذكرت الشورى بين فريضتين هما: الصلاة والزكاة، فدل ذلك على أنها من الفرائض.

ـ التزام الرسول ﷺ بالشّورى في وقائع لا تحصى، منها: وقعة بدر، ووقعة أحد، وغيرها حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه : « **ما رأيت أحدا أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ**»(15)

. عمل الخلفاء، حيث ساروا على منهج الرسول ﷺ في اتباع نهج الشورى في مسائل عامة كثيرة، أبرزها تولية الخلافة، فدل ذلك على وجوب الشورى.

الرأي الراجح:

والرّاجح من الرأيين هو الثاني؛ لما يلي:

. حملا للنص الآمر بالشورى على ظاهره؛ لأنه لم يرد ما يصرفه عن هذا الظاهر إلى الندب.

. إنّ الوقائع التي ترك فيها الرسول ﷺ الشّورى، هي من الوقائع التي نزل فيها الوحي، فصلح الحديبية ،وقتال بني قريظة، وغزوة تبوك، كانت وحيا، ولم يكن توقيتها متروكا للرأي والاجتهاد . وعلى فرض أن الرسول لم تكن الشّورى واجبة عليه، فإنه لا يقاس عليه؛ لتأييده بالوحي تصويبا وتخطئة.

ـ أما ترك أبي بكر للشورى في بعض القضايا فكانت تنفيذا لأمر الرسول ﷺ، أو عملا بالنصوص، فإنفاذ جيش أسامة كان تنفيذا لأمر الرسول قبل وفاته، وأما حرب المرتدّين فكانت عملا بالنص الذي يوجب إقامة أركان الدّين، ومنها الزكاة.

ـ إنّ القول بالوجوب هو الذي يتماشى مع روح الشّريعة ومحاسنها من تشريع الشّورى، فالقول بعدم وجوبها سينسف بالمصلحة منها، ويؤدّي حتما إلى تسلّط الحكام وجورهم[16]، ولهذا قال ابن عطية: « الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب» [17]، وإلى القول بوجوب الشورى مال أكثر فقهاء العصر[18] .

حكم الشورى انتهاء:

هل يلتزم رئيس الدولة بنتائج الشّورى، أم يجوز له أن يعرض عنها ويخالفها، اختلف في ذلك الفقهاء قديما وحديثا على رأيين:

الرأي الأول:

لا إلزام في الشّورى، ولرئيس الدولة أن يوافق أهل الشّورى ويأخذ برأيهم أو يخالفهم ويأخذ برأيه وبه قال جمع من الفقهاء ، محتجّين بما يلي:

. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ﴾ ، قال قتادة في تفسيرها: « أمر الله نبيه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويتوكل على الله لا على مشاورتهم »[19]، وجا في تفسير الطبري: « فإذا ما صحّ عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نابك وحزّ بك من أمر دينك ودنياك، فامض لما أمرناك به على ما أمرناك، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها »[20]، وهذا يعني أن نتائج الشّورى غير ملزمة، فيجوز للحاكم أن يخالفها .

ـ سنّة الرسولﷺ العملية في صلح الحديبية، حيث استشار أصحابه، ووافقوه في بادئ الأمر، ومضى متّجها إلى مكة، حتى إذا بركت الناقة، وعلم أنها ممنوعة، ترك الرّأي الذي كان قد أشير به عليه، وأعلن قائلا : « والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها »[21]، فهذا يعني أن الشّورى إنما شرعت للتبصر بها، لا للإلزام أو التصويت على أساسها[22].

. عمل الخلفاء، ومنها ما فعله أبو بكر في جيش أسامة وفي حرب المرتدين، حيث أنّ النبي ﷺ أمر أسامة بالتوجّه على رأس الجيش إلى فلسطين، لكن

الرسول وافته المنيّة قبل خروجه، فتوقّف أسامة حتى بويع أبو بكر بالخلافة، فأرسل إليه عمر بن الخطاب يستأذنه بالرجوع؛ ليكون بجانبه ويسهم في دفع شرّ المرتدين عن المدينة، لكن أبا بكر رفض هذا الرأي وقال:" والله لو علمت أن السّباع تجر برجلي إن لم أردّه ما رددته ولا حللت لواء عقده رسول الله ". وأمّا موقفه من المرتدّين فقد مال إلى قتالهم مع أن أكثر الصحابة كانوا مخالفين له؛ بسبب ضعف المسلمين وكثرة المرتدين، ولكن أبا بكر ظل متمسّكا برأيه حتى شرح الله صدر أصحابه فاتبعوه، وكذلك عمر بن الخطاب خالف مستشاريه في مسألة تقسيم سواد العراق. وهذا يدل على أنّ لرئيس الدولة أن يخالف الأغلبية ولا يلتزم برأيهم.

- إن رئيس الدولة مسئول مسئولية كاملة وتامّة عن أعماله، فلا يجوز إلزامه بتنفيذ رأي غيره من غير اقتناع وهو كاره له غير راض به.

- إنّ صواب الرأي والخطأ يستمدّان من ذات الرأي وطبيعته لا من كثرة أو قلة القائلين به، فليست الكثرة لذاتها دليلا قاطعا أو راجحا على الصّواب، كما أن القلة ليست دليلا قاطعا أو راجحا على الخطأ، إذ يمكن أن يكون الخطأ مع الكثرة، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة فقال: ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ [116- الأنعام] ، وقال: ﴿ قُلْ لاَ يَسْتَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ ﴾ [100 - المائدة]

اعتراضات وأجوبة :

وردّ هؤلاء على عدد من الاعتراضات التي قد يعترض بها على القول بعدم إلزامية الشورى، منها :

- إن قالوا: أن النبي ﷺ أخذ برأي الأكثرية في غزوة أحد مع أنه كان يميل إلى عدم الخروج.

والجواب : أنه ﷺ أخذ برأيهم ؛ لأنه رأى ذلك، لا لأن الأخذ برأي الأكثرية ملزم.

- إن قالوا: ما فائدة المشاورة إذا لم يلتزم بها رئيس الدولة برأي من يشاورهم أو برأي أكثريتهم ؟

والجواب: فائدة المشاورة تظهر في ظهور الرأي الصواب والمظنون، ولرئيس الدولة أن يأخذ بالصواب، فإذا لم يأخذ به، فمعنى ذلك أنه لم يقتنع به، لا لكونه يريد العناد والخلاف.

. إن قالوا: أن الله تعالى أمر بالمشاورة، وهذا الأمر يتضمّن الأخذ برأي من يشاورهم .

والجواب: المشاورة غير التّنفيذ، فالله تعالى أمر بالمشاورة، وينقضي حقّ هذا الأمر بإجراء المشاورة فعلا، أما التنفيذ فشيء آخر، وهو متروك لرئيس الدولة حسب ما يراه، مادام الأمر اجتهاديا[23].

الرأي الثاني:

الشّورى ملزمة للحاكم ، وعليه أن يتّبع ما تسفر عنه من نتائج، واحتجوا بما يلي:

. قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ ، ووجه دلالتها على لزوم الشّورى، أنّ العزم لا يكون إلا بعد الشّورى ، ولذلك قال القرطبي في تفسيرها نقلا عن قتادة: إن « العزم هو الأمر المروّى المنقّح ، وليس ركوب الرأي دون روية عزما »[24]، وقال الطبري: « فإذا ما صحّ عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نابك وحزّ بك من أمر دينك ودنياك، فامض لما أمرناك به على ما أمرناك، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها» [25] ، فيرى الطبري أن العزم والتوكّل على الله إنما يكون في الأمر الذي يصدر فيه الرسول ﷺ عن وحي الله تعالى إليه ، وأمره إياه بفعل شيء معين، فعند ذلك لا يجوز للرسول ﷺ أن ينظر إلى رأي أهل شوراه، بل عليه أن ينفّذ ما أمر به وافق ذلك آراءهم أو لم يوافقهم. وهذا يعني أن العزم يكون في القضايا التي نزل فيها الوحي فلا مجال فيها للشّورى، أما ما لم ينزل فيه وحي فيبقى على أصل الالتزام بنتائج الشورى. وجاء في تفسير ابن كثير ما يدل على أن العزم يفيد لزوم الشورى ، حيث قال: عن علي بن أبي طالب قال: سئل رسول الله عن العزم ، فقال: « مشاورة أهل الرأي ثم إتباعهم » [26]، فالآية تفيد أن الحاكم ملزم بتنفيذ ما أجمع عليه أهل الشورى أو ما انتهت إليه غالبيتهم .

- احتجوا بما رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمان بن غنم أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: « لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما »[27]، فالحديث يدل على رجحان رأي الاثنين على الواحد، ومن ثم رجحان رأي الأكثرية على الأقلية .

الرأي الراجح :

الرّاجح من القولين هو رأي القائلين بلزوم الشورى[28] ؛ لقوّة أدلتهم وضعف أدلة المخالفين ، ولكون هذا الرأي يتفق ومحاسن الشّورى ومقاصدها.

- إن تفسير الإمام الطبري الذي يفيد عدم إلزامية الشورى يعبّر عن وجهة نظر خاصة به، ومع التّسليم بأن الرّسول ﷺ لم يكن ملزما بنتائج الشّورى مع أصحابه، فإن ذلك لا يسري إلى من بعده من الخلفاء والحكّام؛ لكون الرّسول مؤيّدا بالوحي تسديدا وتصويبا، وليس كذلك الحكّام من بعده.

- أما الاحتجاج بصلح الحديبية فإنّ الأمر فيها لم يكن محلّا للشورى، بل صدر فيها عن وحي من أوّله إلى آخره، بدليل أن الرسول بيّن أنّ مرجعه فيها هو الوحي الأعلى عندما توقّفت ناقته وقال لأصحابه : « حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها »[29]، ومن ثمّ فلا علاقة لما حدث في صلح الحديبية بموضوع الشّورى، ولا دليل فيه على لزومها أو عدم لزومها، وفعل الرّسول فيه تصرّف بمحض الوحي فلا يصلح لقياس غيرها عليها .

- أما موقف أبي بكر من بعث جيش أسامة، فأبو بكر نفّذ ما كان الرسول ﷺ أمر به أسامة ولم يتمّ بسبب وفاته ﷺ، فالمسألة خارجة عن محلّ الشورى؛ لذا أمر أبو بكر أسامة أن يخرج بالجيش، ولم ينتظر موافقة معارضيه، وكان ردّه لهم حاسما: « ما كنت لأمنع بعثا أنفذه رسول الله »، وهذا صريح في أنه كان منفّذا لأمر رسول الله ومتّبعا له.

- أما موقف أبي بكر من حروب الردّة وقتال مانعي الزكاة، فقد كان الخلاف بينه وبين الصحابة قائما في البداية ، ثم زال الخلاف برجوع المخالفين إلى رأيه، وهو ما عبّر عنه عمر بن الخطاب لما قال: « فو الله ما هو

إلا رأيت الله عز وجل شرح صدر أبي بكر، فعرفت أنّه الحق» [30]، وهذا يدل على وقوع الإجماع في قتالهم.

. وأما ما فعله عمر بن الخطاب في تقسيم أراضي العراق، فإنه يشبه ما وقع لأبي بكر في قتال المرتدّين، حيث خالفه في البداية بعض الصحابة، وبقي عمر يشاورهم حتى اقتنعوا برأيه، وعمل في الأخير بما انتهت إليه الشورى.

. إن القول بأن الأغلبية لا حجّة لها احتجاجا بقوله: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضلُّوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ} بعيد عن الصواب؛ لأن هذا وارد في التكاليف الكونية وليس في التكاليف الشرعية، إذ قد يضل الناس عن أكثر حقائق الكون، ومن ثم لا يصلون إلى معرفة الله عن طريقها.

. إن القول بعدم لزوم العمل بثمرة الشورى ونتائجها يفضي إلى أن يصبح الأمر بها لا معنى له سياسيا، وصوريا شكليا فارغا من أيّ مقصد وحكمة، إذا العبرة بالخواتيم والثمرات. وليس المقصد منها مجرّد تطييب الخواطر، فهذا لا يعدو أن يكون مقصدا ثانويا، إنما المقصد الأقوى منها انتقاء أصوب الآراء والخطط التشريعية والتنظيمية من أهل الرّأي من ذوي العلم والخبرة والبصر السّديد.

. إن القول بعدم لزوم الشورى يؤدّي لا محالة إلى فتح باب الاستبداد في الحكم، والتفرّد بالرأي، وهو يشكّل أمرا خطيرا يتنافى ومقاصد الشريعة الإسلامية من احترام الحرّيات الفردية والجماعية، فيجب حينئذ سدّ الذريعة إلى ذلك حتما؛ لأن ما أدى إلى الفساد يأخذ حكم الفساد ذاته.

. وإذا كانت القاعدة تنصّ على أن الوسيلة تأخذ حكم الغاية، وكانت الشورى من الواجبات والعزائم، فإن الأخذ بنتائجها وثمراتها من العزائم أيضا، تطبيقا لتلك القاعدة، وإلا وقع التناقض بين الوسيلة وغايتها.

هذا هو الرأي الذي يتّفق ومحاسن الشّورى ومقاصدها، وإلا كانت شورى صورية؛ ولأن الوسائل تأخذ حكم الغايات، وبه جاءت السنّة العملية، وعمل به كبار الخلفاء، والله من وراء القصد.

ـ الهوامش :

(1) رشيد رضا : تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت ، لبنان، ط2 (199/4).
(2) سيد قطب : في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1398/7هـ 1978م، (501/4).
(3) الشوكاني : فتح القدير، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1383/2هـ ـ 1963م (540/4).
(4) سيد قطب : المرجع السّابق، المجلد الخامس، (3165/25)
(5) رشيد رضا : المرجع السّابق ، (199/4)
(6) الرّازي : التّفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1401/1هـ ـ 1981م، (68/9).
(7) الشوكاني : المرجع السّابق، (393/1)
(8) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، مصر، ط1387/3هـ ـ 1967م، (252/4).
(9) الشوكاني : المرجع السّابق، (393/1)
(10) الدّريني : خصائص التّشريع في السياسة والحكم، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1407/2هـ ـ 1987م، ص: 414.
(11) عبد الكريم زيدان : أصول الدّعوة، قصر الكتاب، البليدة، الجزائر، ط1999/م، ص: 218.
(12) زيدان : المرجع نفسه، ص: 218.
(13) محمود الخالدي: قواعد نظام الحكم في الإسلام، مؤسسة الإسراء، قسنطينة، الجزائر،ط1411/1هـ - 1991م، ص: 196
(14) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، لبنان، ـ بدون تاريخ ـ (420/1)
(15) أخرجه ابن حبان في صحيحه (217/11)
(16) عبد الغني بسيوني: نظرية الدولة في الإسلام، الدار الجامعية، بيروت، لبنان ،ط1982/م، ص: 127
ـ الدريني: المرجع السابق، ص: 451.
(17) القرطبي: المصدر السابق ،(242/4)
(18) عبد القادر عودة: الإسلام وأوضاعنا السياسية، دار الزيتونة، باتنة، الجزائر، ـ بدون تاريخ ـ ص: 210
ـ شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، القاهرة، مصر،ط1403/11هـ ـ 1983م ص: 440
ـ البوطي: فقه السيرة، دار الشهاب ، باتنة، الجزائر، ـ بدون تاريخ ـ ص: 218.
ـ عبد الكريم زيدان :المرجع السابق ، ص: 217 .
(19) القرطبي: المصدر السابق،(244/4)
(20) الطبري: جامع البيان،دار المعارف، مصر، ـ بدون تاريخ ـ (346/7)
(21) أخرجه أبو داود في سننه(85/3)، والبيهقي في السنن الكبرى(219/9)
(22) البوطي: المرجع السابق، ص: 324 .
(23) انظر/ زيدان: المرجع السابق، ص: 221
(24) القرطبي: المصدر السابق، (244/4)
(25) الطبري: المصدر السابق ، (346/7)
(26) ابن كثير : المصدر السابق،(1/ 420)

(27) ابن كثير: المصدر السابق،(1/ 420) ، والحديث رواه أحمد في مسنده (227/4) ، وانظر: مجمع الزوائد للهيثمي(53/9)

(28) انظر/ ـ سليم العوا : في النظام السياسي الإسلامي ، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1410/1هـ ـ1989م، ص: 160 ـ عبد القادرعودة: المرجع السابق،ص: 162 ـ رشيد رضا: المرجع السابق، (4/ 199) ـ بسيوني: المرجع السابق، ص:134 ـ الدريني: المرجع السابق، ص: 453 ـ محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، دار ريحانة، الجزائر، ط1420/1هـ ـ1999م، ص: 79 .

(29) رواه البخاري في صحيحه (974/2)، وأبو داود في سننه (95/3)

(30) انظر: سيرة ابن هشام، القاهرة، مصر،ط/1914هـ(365/2)

التشريع المصلحي المعاصر بين النظرية والتطبيق

بقلم

أ/ محفوظ بن صغير

أستاذ مساعد مكلف بالدروس بمعهد العلوم القانونية والإدارية

المركز الجامعي بالوادي

الملخص :

يقدم هذا البحث معالجة شرعية لمبدأ الأخذ بالمصلحة المرسلة نظريا من خلال التطرق إلى مفهومها وشرعيتها في حدود الاعتبار بشروطها ومراعاة ضوابطها التي تجعلها تساير متطلبات العصر دون مصادمتها للنصوص الشرعية . ذلك لأن النصوص الشرعية متناهية والحوادث والمستجدات غير متناهية، وعليه فحيثما وجدت المصلحة الحقيقية الملائمة لمقاصد الشرع فثم شرع الله ، وليس على إطلاقها، حيثما وجدت المصلحة الملائمة لروح التشريع فثم شرع الله . هذا وقد جاء هذا البحث مؤكدا مرونة الشريعة الإسلامية من خلال بعض النماذج التطبيقية التي أساسها المصلحة المرسلة المسايرة لمتطلبات العصر ومدى قدرتها على حل المشكلات المستجدة ، في إطار مقاصد الشريعة الإسلامية. كون المصلحة في الشريعة الإسلامية شاملة للمنافع الروحية والمادية والدنيوية والأخروية، وملائمة للدين ومتفرعة عنه بخلاف المصلحة في الأنظمة الوضعية.

The summary:

This research presents a legal treatment to the principle of the free benefit. This subject is detailed through the following sub- titles:

The definition of the free benefit, its legality, the conditions and rules which lead and guide the free benefit to go with the real needs without any conflicts with the legal texts.

We Know that the legal texts are limited, and the actions and needs are limitless, so, we find the legal act wherever find real benefit, which is surely adequate to the aims of shari'a.

This research emphasized on the flexibility of the Islamic Shari'a through some

practical examples related to the free benefit. This later might be up to date , and able to solve the new problems.

The free benefit in Islamic shari'a is wide, containing the spiritual material benefit, related to this life, or the other life.

Our religion used to accept and save the benefits, in contrary to the human systems.

This research discussed what is summarized above.

أولا : مفهوم المصلحة لغة واصطلاحا

1 . المصلحة لغة : كادت كلمة اللغويين تتفق حول المعنى اللغوي للمصلحة، كونها نقيض المفسدة ومرادفة للمنفعة وزنا ومعنى.

قال صاحب اللسان: « والمصلحة الصلاح، والمصلحة واحدة المصالح، والاستصلاح نقيض الاستفساد»[1]. وقريب من هذا التعريف ورد في ترتيب القاموس المحيط:« والمصلحة واحدة المصالح، واستصلح نقيض استفسد »[2]، ومن هنا نعلم أن المصلحة والمفسدة ضدان لا يجتمعان.

وعند التحقيق نجد أن اللغويين، وحتى علماء الصرف، لم يتكلموا في تفسير المصلحة وإيضاح معناها، بل قرروا أن كل ما فيه حسن حال ويحقق منفعة وصلاحا عاما أو خاصا فهو مصلحة، وكل ما فيه سوء حال وتلحقه مضرة وفساد عام أو خاص فهو المفسدة.وبهذا يكون مدار تحقيق المصلحة وتفسيرها لغة أن كل ما كان سبيلا لجلب المنافع في مقابل دفع المضار فهو مصلحة، وكل ما كان سبيلا لدفع المضار في مقابل جلب المنافع فهو مصلحة. فنقيض الفساد هو الصلاح الذي هو عين المصلحة المحققة للنفع الخالص.

2 . المصلحة اصطلاحا:

اختلفت تعابير الأصوليين وتباينت تعاريفهم للمصلحة، وتعيين المقصود منها شرعا على أقوال نوردها فيما يلي على سبيل التمثيل لا الحصر:

فعرفها الإمام الغزالي . رحمه الله . بقوله: " المصلحة هي عبارة في الأصل عن جلب منفعة، أو دفع مضرة، ولسنا نعني به ذلك، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكننا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة"[3].

فالإمام الغزالي فرق في الأخذ بالمصلحة، فجعل منها ما يعد مصلحة وما لا يعد، فهناك من المصالح ما تكون مندرجة ضمن مقصود الشرع ومنها ما قد

تكون ناشئة عن حكم الهوى وخاضعة له فتصير غير معتبرة شرعا، فهو محق في ذلك، لأنا نقيد المصلحة ونجعلها داخلة ضمن مقصود الشرع ومندرجة فيه، فإنها قد تفوت على الخلق مصالح ضرورية. ذلك لأن ما يعد عند امرئ مصلحة ومنفعة قد تعد عند الشارع مفسدة، وحتى أن الناس يختلفون في تقديرهم للمصلحة، وعليه فما يعد عند قوم مصلحة قد يعد عند آخرين مفسدة وهكذا.

وقد تطغى النزعة الفردية على المصلحة الجماعية، أو تطغى النزعة الجماعية على مصلحة الفرد الحقيقية وذلك لتحقيق كل من الفرد والجماعة مآربه ومصالحه الذاتية ومن ثم يحدث الجور ويعم الفساد. فحتى يكون الحكم عدلا في توزيع المصالح والمنافع، لابد أن تكون هذه المصالح مندرجة تحت مقصود الشرع ومنضبطة بضوابطه المحددة.

- وعرفها الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بقوله: "ويظهر لي أن نعرفها بأنها وصف للفعل الذي حصل به الصلاح أي النفع منه دائما أو غالبا للجمهور أو للآحاد"[4].وقد بدا من تعريفه هذا أن المصلحة عامة وهي ما فيه صلاح عموم الأمة أو الجمهور، وخاصة وهي ما فيه نفع الآحاد على حد تعبيره وكذا يلمح من تعريفه هذا التغاضي عن الضابط الشرعي فحيث ما وجد شرع الله فثم المصلحة بعينها حتى ولو لم يعقل معناها؛ إذ لا سبيل للعقل إلى إدراكها في الجانب التعبدي فإذا وجدت مصلحة في أمر من الأمور عارية عن الضابط الشرعي فإنها لا تعتبر.

ونورد فيما يلي تعريفا مختارا للمصلحة[5]: « تطلق ويراد بها المنفعة سواء أكان النفع عاما أم كان خاصا غالبا أو مغلوبا عاجلا أو آجلا....» هذا من الجانب اللغوي.

- أما الجانب الشرعي لها[6]: «فهي المنفعة التي قصدها الشارع الحكيم لعباده من حفظ دينهم، ونفوسهم وعقولهم، ونسلهم، وأموالهم، طبق ترتيب معين فيما بينها».

ثانيا: الاعتبار الشرعي للمصلحة:

قال الإمام الرازي في تقسيم المصالح بالإضافة إلى شهادة الشرع:

« أعلم أن المصالح بالإضافة إلى شهادة الشرع ثلاثة أقسام:

أحدها: ما شهد الشارع باعتباره.

وثانيها: ما شهد الشارع ببطلانه.

وثالثها: ما لم يشهد له بالاعتبار، ولا بالإبطال نص معين»[7].

1. المصالح المعتبرة شرعا:

قال مصطفى شلبي في تعريفها: «هي ما قامت الأدلة الشرعية المعينة على رعايتها واعتبارها بأن أمرت بتحصيل أسبابها الموصلة إليها»[8] ويرجع حاصلها إلى القياس.

وقد استقرأها العلماء بتتبعهم لنصوص الكتاب والسنة فما وجدوها تخرج عن المصالح الثلاث الشاملة لمجموع المصالح التي وضعت الشرائع لأجلها.

وفي هذا المقام يقول الشاطبي:" باستقراء أدلة الشريعة الكلية والجزئية ثبت قطعيا أن الشارع قاصد إلى حفظ المصالح الضرورية والحاجية والتحسينية"[9] وإن من أول مقاصد الشريعة صيانة الضروريات ثم ضمان ما سواها[10].

فالمصالح المعتبرة شرعا منها ما يرجع إلى حفظ أمر ضروري أو حفظ أمر حاجي أو تحسيني.

يقول الشاطبي: "مجموع الحاجيات، ومجموع التحسينيات يصح اعتبار كل منها بمثابة فرد من أفراد الضروريات"[11]. فالمقاصد الضرورية في الشريعة الإسلامية أصل الحاجيات والتحسينيات[12].

وعلى كل فإن المقاصد الضرورية في الشريعة أصل للحاجبة والتحسينية كما يقول الشاطبي[13]، وتمثيل ذلك:

1. أن الضروري أصل لما سواه من الحاجي والتحسني.

2. إن اختلال الضروري يلزم منه اختلال الباقيين بإطلاق.

3. إنه لا يلزم من اختلال الباقيين اختلال الضروري.

4. إنه قد يلزم من اختلال التحسيني بإطلاق أو الحاجي بإطلاق اختلال الضروري بوجه ما.

5. إنه ينبغي المحافظة على الحاجي وعلى التحسيني للضروري.

وعليه فإذا تكاملت هذه المقاصد فإن الحياة تستقيم وتستمر ولا يختل نظامها ولا يلحق أفرادها حرج فيحدث التوازن وعلى هذا فالأحكام الشرعية التي شرعت لحفظ الضروريات أهم الأحكام وأحقها بالمراعاة وتليها الأحكام التي شرعت لتوفير الحاجيات ثم الأحكام التي شرعت للحاجيات كالمكملة التي شرعت لحفظ الضروريات[14].

2. المصالح الملغاة :

وأما النوع الثاني من المصالح فهي المصالح الملغاة: وهي ما شهد الشارع ببطلانها[15]. بمعنى أنها خالفت مقتضى دليل شرعي نصا كان أو إجماعا، وقامت الأدلة الشرعية على عدم اعتبارها شرعا فلا يصح التعليل بها ولا بناء الأحكام الشرعية عليها لما ينجر عنها من مفاسد.

قال الشاطبي: " هي ما شهد الشارع برده فلا سبيل إلى قبوله، إذ المناسبة لا تقتضي الحكم لنفسها وإنما ذلك مذهب أهل التحسين العقلي، بل إذا ظهر المعنى، وفهمنا من الشارع اعتباره في اقتضاء الأحكام فحينئذ نقلبه فإن من المراد بالمصلحة عندنا ما فهم رعايته في حق الخلق من جلب المصالح ودفع المفاسد على وجه لا يستقل العقل بدركه على حال، فإذا لم يشهد الشارع باعتبار ذلك المعنى، بل برده كان مردودا باتفاق المسلمين"[16].

ومن أمثلة ذلك: أكل الأموال الربوية على ما فيها من تحقيق المصلحة المتمثلة في زيادة الثروة ونمائها، إلا أن الشارع الحكيم، ألغاها وأبطل التعامل بها، فلم يبق مجال لتحقيق المصلحة من ورائها بدليل قوله تعالى ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾[17]. وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ﴾[18].

وكذا مصلحة مساواة البنت بالابن في الميراث لتساويهما في الصلة بالأب المتوفى وبالأخوة الجامعة بينهما، فإن الشارع الحكيم قد ألغى تلك المصلحة التي سببها التساوي في الصلة بقوله تعالى: ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ [19]. فهما يتفاوتان في مغانم نصيب الإرث لتفاوتهما في مغارم الأعباء والالتزامات، من نفقات ومهور وغير ذلك.

فكل ما كانت فيه مصلحة معتبرة شرعا، فإنها بالضرورة لا تنجر عنها مفسدة وما كانت فيه مصلحة وهمية ألغاها الشرع، فإنها بالضرورة تنجر عنها مفاسد.

وخلاصة القول أن التشريع بناء على مصلحة اعتبرها الشارع بأي نوع من أنواع الاعتبار تشريع سائغ وهو بالقياس، والتشريع بناء على مصلحة ألغاها الشارع اعتبارها تشريع غير سائغ ومعارضة لمقاصد الشرع[20].

3 . المصالح المرسلة (الاستصلاح)

وأما النوع الثالث من المصالح فهي المصالح المرسلة: وهي كل مصلحة داخلة في مقاصد الشارع ولم يرد في الشرع نص باعتبارها بعينها أو بنوعها ولا باستعبادها، فهي تدخل في عموم المصالح التي تجتلب بها المنافع وتجتنب بها المضار، والتي جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيقها بوجه عام، ودلت نصوصها وأصولها على مراعاتها بوجه عام، والنظر إليها في سائر نواحي الحياة، ولم يحدد الشارع لها أفرادا وأنواعا ولذا سميت مرسلة [21] أي مطلقة، فهي الملائمة لمقاصد الشريعة ولا يشهد لها نص خاص بالاعتبار أو الإلغاء.

قال الغزالي:"وكل مصلحة رجعت إلى حفظ مقصود شرعي علم كونه مقصودا بالكتاب والسنة والإجماع فليس خارجا من هذه الأصول لكنه لا يسمى قياسا بل مصلحة مرسلة"[22].

ويعبر عنها بعضهم بالمناسب المرسل، وبعضهم بالاستصلاح، وبعضهم بالاستدلال المرسل وذلك أن كل حكم يقوم على أساس يمكن النظر إليه من ثلاث جوانب:فمن نظر إلى جانب المصلحة المترتبة عليه عبر عنها بالمصالح المرسلة، وهي التسمية الشائعة، ومن نظر إلى جانب الوصف المناسب الذي يستوجب ترتيب الحكم عليه تحقيق تلك المصلحة عبر عنها بالمناسب

المرسل، ومن نظر إلى جانب الوصف المناسب أو المصلحة عبر عنها بالاستصلاح أو الاستدلال[23].

فحقيقة المصلحة المرسلة: هي كل منفعة داخلة في مقاصد الشريعة دون أن يكون لها شاهد بالاعتبار أو الإلغاء.

ثالثا: الضوابط الشرعية للمصلحة:

لا تكون المصلحة مشهودا لها بالاعتبار إلا إذا كانت وفق الضوابط الآتية:

1 . عدم معارضتها لنص أو إجماع كقياس صحيح:

إن أول ضابط للمصلحة في الشريعة الإسلامية هو عدم معارضتها للأدلة الشرعية المتفق عليها، لأن معرفة مقاصد الشريعة إنما تمت استنادا إلى الأحكام الشرعية المأخوذة من أدلتها التي هي الكتاب السنة والإجماع والقياس. والمدلول لا يقوى على معارضة دليله، فإن عارضت منها شيئا فهي باطلة يجب ردها وتقديم النص عليها، لأن معيار الأخذ بالمصلحة هو الاعتبار الشرعي لها[24].

2 . اندراج المصلحة ضمن مقاصد الشريعة:

وذلك بأن تكون المصلحة مندرجة فيما قصده الشارع من مراعاة مصالح الناس، ومقاصد الشارع تنحصر في حفظ خمسة أمور: الدين، النفس، العقل، النسل، المال. فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول فهو مصلحة وكل ما يفوت هذه الأصول أو بعضها فهو مفسدة ودفعها مصلحة وهي واقعة في ثلاث مراتب الضروريات والحاجيات والتحسينيات، وعليه فمن خالف هذه المقاصد بأن تكون وسيلة لهدم روح تلك المقاصد فإنه يدخل ضمن نطاق المفاسد ويكون خارجا عن نطاق المصالح المعتبرة[25].

3 . عدم تفويتها مصلحة أهم منها أو مساوية لها:

إذا شهد للمصلحة دليل من النص أو الإجماع أو القياس أو كانت موافقة لمقاصد الشرع كانت معتبرة في ذاتها، فإن تعارضت ولم يمكن الجمع بينهما كان ترجيح إحداهما على الأخرى محل نظر في قيمة المصالح في حد ذاتها فنقدم ما يراه الشارع حسب أهميته من تقديم ما يحفظ الدين على ما يحفظ النفس وتقديم ما يحفظ النفس على ما يحفظ العقل إلى آخره.

وكذا بالنسبة لتعارض الضروري مع الحاجي والحاجي مع التحسيني فإننا نقدم ما هو ضروري على غيره من الحاجي والتحسيني عند التعارض [26].

رابعا: شروط العمل بالمصلحة المرسلة

اختلف الأصوليون في تحديد شروط العمل بالمصلحة على مذهبين:

1 . شروط العمل بالمصلحة عند الغزالي ومن وافقه.

وهذا المذهب يمثله بعض علماء الشافعية وفي مقدمتهم الإمام الغزالي في المستصفى، والبيضاوي في المنهاج، والسبكي في جمع الجوامع، وأصحاب هذا المذهب يشترطون في المصلحة المعمول بها أن تكون **ضرورية** وهي التي تكون من إحدى الضروريات الخمس وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال [27].

وكلية: بمعنى أنها توجب نفعا عاما للمسلمين ولا تخصص ببعض الأفراد دون البعض [28].

وقطعية: بمعنى أنها تثبت بطريق لا شبهة فيه.. وذلك حتى لا تختلط بمفسدة، أو تشوبها شائبة التشهي والتلذذ في الأخذ بها.فعلى رأيهم، إذا تحققت هذه الشروط في المصلحة كانت بعيدة عن الهوى، ومتماشية مع روح التشريع الإسلامي، الذي من مقاصده جلب المصالح ودرأ المفاسد.

2 . شروط العمل بالمصلحة عند المالكية ومن وافقهم

في مقابل رأي الغزالي وبقية الشافعية، نجد مذهبا آخر يمثله المالكية والحنابلة: فقد اشترطوا شروطا بتوافرها تبنى الأحكام على رعاية المصلحة، و إلا فلا، وهي كالآتي:

أ . أن تكون المصلحة ملائمة لمقاصد الشرع: بحيث لا تنافي أصلا من أصوله، ولا دليلا من دلائله.[29] فالملاءمة تكون لاتفاق المصالح مع مقصود الشارع المراد تحصيله وذلك بكونها من جنسه أو قريبة منه وليست غريبة عنه، وإن لم يشهد لها دليل خاص بذلك [30].

ب . أن يكون تقدير المصلحة في الأمور ذات المناسبات المعقولة المؤسسة شرعا على رعاية المصالح فلا مدخل فيه للتعبدات وما جرى مجراها من الأمور الشرعية[31]. ويعلل ذلك الشاطبي بقوله:"لأن عامة التعبدات لا

يعقل لها معنى على التفصيل كالوضوء والصلاة، والصيام في زمن مخصوص دون غيره والحج ونحو ذلك[32] ".

وعليه فإذا ثبت بالبحث وإنعام النظر أن المصلحة حقيقية ومعقولة في ذاتها، لا وهمية غير معقولة في ذاتها، جاز بناء الحكم عليها لكونه يجلب نفعا أو يدفع ضررا، فتكون بهذا متفقة في الجملة مع المصالح التي قصدها الشارع، أما إذا كانت المصلحة وهمية فلا يسوغ بناء الحكم عليها. وذلك كمن يتوهم المصلحة في سلب الزوج حق التطليق من زوجته وجعله بيد القاضي وحده في جميع الحالات، فإن هذا التشريع لا توجد فيه مصلحة بل على العكس فيه فساد للأسرة ومضرة، حيث يصير ارتباط الزوج بزوجته على أساس من الإكراه، لا على أساس من الرضا المودة، وكذا مصلحة تحكمها داعية الهوى في تشريعها[33] .

ج. أن يكون حاصل الأخذ بها راجع إلى حفظ أمر ضروري ورفع حرج لازم في الدين:

ومرجعها إلى حفظ الضروري ويكون من باب « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» فهي إذا من الوسائل لا من المقاصد ورجوعها إلى رفع الحرج راجع إلى باب التخفيف لا إلى التشديد كما يقول الشاطبي[34] .

وهذه خلاصة القول: في الشروط التي اشترطها العلماء في الأخذ بالمصلحة، حتى لا يكون إعمالها إعمالا للهوى والتشهي وغير ذلك، لأن حاصل هذه القيود أنها تجعل المصلحة حقيقية لا ظنية.

خامسا: المصلحة ومتطلبات العصر

لا تعني كلمة التطور العصرية عصرنة الشريعة وتطورها، لأن شريعة الله ثابتة غير قابلة للتطور وهذا خصوصا في أمور العبادات و المقدرات الشرعية وفي غير هذا فقد رسمت لنا الشريعة الأصول الكلية و الخطوط العريضة التي نتطور في ظلها، ونتماشى تحت رعايتها بما يحقق لنا المصالح التي جاءت الشريعة لتحقيقها دون مخالفة أو إهمال لنصوصها.

يقول في ذلك الشيخ علي حسب الله: « إن كلمة التطور خدعة دسها أعداء الإسلام في أفكار المسلمين للقضاء على مبادئه، ويؤسفنا أن يتأثر بها

بعض الناس، فنسمع منهم من يقول: " إن شريعة الإسلام متطورة" وما هي بمتطورة ولكنها تضع الحدود الصحيحة للتطور الإنساني السليم [35]».

وعليه فإذا اقتضت منا مقتضيات العصر ومتطلباته الأخذ بالمصلحة التي توافق هذه التطورات، نظرنا أولا إلى شرعية هذه المتطلبات وعدم شرعيتها وحكمنا بما يوافق الشرع وبما يدخل تحت مقاصده العامة وهذا عند عدم وجود نص شرعي أو دليل من الأدلة المتفق عليها، وهذه التطورات في أمور المعاملات العصرية تتصف بصفات ثلاثة:

1 . **الشرعية:** وهي الأمور الموافقة للشرع وحكم فيها أنها شرعت لعلل تقتضيها فهي تدور معها وجودا وعدما، ولا يقال في مثل هذه الحالة أن الحكم قد تغير أو أهمل ، ولكن الحكم الشرعي ثابت والضرورة لها حكمها الاستثنائي، فإذا انتهت الضرورة عاد حكم النص.

2 . **غير الشرعية:** [36] وهي الأمور التي تعارض النصوص بدعوى جلب المصالح فهذه باطلة ولا شأن لتطور العصر وتغير أحواله. ومثل هذا سفور المرأة وتبرجها في الطرقات وكشف عوراتها والمحرمات فيها للناس دون حياء بدعوى التمدن والتحضر وهذه في الحقيقة دعوى جاهلية، فهذه المصلحة المتوهمة في هذا ملغاة و لا مجال للعمل بها لمخالفتها النصوص الشرعية.

3 . **ما اتسمت بغير الشرعية:** لكن بتعديل طفيف وتهذيب لها تخرج من ربقة المفاسد إلى زمرة المصالح . وذلك مثل البنوك الربوية فهذه الفوائد التي تعطيها البنوك محرمة بالإجماع، إذا فلا مناص لنا وحتى تكون هذه المعاملة الضرورية في المجتمع الإسلامي شرعية في الربح والخسارة، بأن تنص في عقودها على أنها مضاربة إسلامية بين أشخاص وهيئة البنك ، فتعمل هيئة البنك على استثمار تلك الأموال في التجارة المشروعة التي تنفع المسلمين وبهذا نهذب هذه المعاملة المحرمة التي عليها معظم البنوك في العالم الإسلامي، ونعود بها إلى الأصل الحلال بعيدة عن الحرام.

سادسا: البواعث الداعية إلى الاستصلاح

ليس من سبيل للتوسع في الاستصلاح إلا إذا توافرت دواعي ذلك، وليس من سبيل لاستنباط الحكم الشرعي في واقعة ما إلا بعد إنعام النظر من طرف المجتهد في ذلك، وهذه العوامل والبواعث التي تكون سندا للمجتهد في أن يأخذ بها بقاعدة الاستصلاح هي كما يلي: [37]

1 . **جلب المصالح:** وهي الأمور التي يحتاج إليها المجتمع لإقامة حياة الناس على أقوى أساس. كفرض الضرائب العادلة بمقدار الحاجة لأجل تمويل الخدمات العامة والمشروعات الهامة المفيدة [38].

2 . **درء المفاسد:** وهي الأمور التي تضر بالناس أفراداً أو جماعات سواء كان ضررها ماديا أو ومعنويا.

3 . **سد الذرائع:** وهي سد جميع الأبواب والمنافذ التي يلجأ إليها الإنسان لإيقاع الضرر بغيره أو لإهمال أوامر الشريعة والاحتيال عليها ولو لم يقصد ذلك.

4 . **تغير الزمان:** أي اختلاف أحوال الناس وأخلاقهم وأوضاعهم في حياتهم العامة عما كانت عليه[39].

فهذه مجمل العوامل والبواعث التي تدعو المجتهد إلى أن يجتهد في استنباط الأحكام الشرعية وفق ما تتطلبه رعاية المصلحة العامة.

سابعا: بعض تطبيقات المصلحة المرسلة (الاستصلاح) في هذا العصر

من خلال ما سبق ذكره يمكن عرض بعض النماذج التطبيقية للمصلحة المرسلة في العصر الحديث دون الإخلال بضوابطها أو إهمال شروطها وفق ملاءمتها لمقاصد الشريعة وروح التشريع الإسلامي.

1 . تسجيل عقود الزواج وتوثيقها:

وتوثيق عقود الزواج لا يدخل في أركان الزواج ولا يكون الزواج دونها باطلا أو فاسدا، غير أنه يعتبر مجرد وسيلة لجلب المصالح ودفع المفاسد، وعليه والحالة هذه يدخل في باب المصالح المرسلة. وبفساد الزمان أصبح لهذا التوثيق دور كبير في تحقيق بعض المصالح ودفع بعض المفاسد، وهذا ما أخذ به قانون الأسرة الجزائري في المادتين 22/19 وكذلك نص في المادة 191 على

تسجيل الوصية أمام الموثق وذلك قصد منع النزاعات والخصومات بعد وفاة الموصي أو إنكار الوصية .فالمصلحة تقتضي تثبيت الزواج و إعطائه طابعه الرسمي الذي يكون حجة عند قيام النزاع وبذلك تسمع جميع الدعاوى المترتبة عليه، وكذلك حتى لا يستطيع الزوج إنكار العلاقة الزوجية بينه وبين زوجته وفي هذا الإنكار مفاسد لا تخفى، فلا تبقى حجة للمرأة حتى تطالب بالنفقة لها ولأولادها، وكذا ثبوت الميراث لها ولأولادها. كذلك في التوثيق حفظ للأنساب وصيانة للأعراض، فتدفع بذلك جميع الادعاءات والشبهات.

2 . فرض الضرائب على الرعية:

وتدخل هذه ضمن الأحكام التي تتعلق بشؤون الإدارة العامة المنظمة لمصالح المجتمع، وذلك كأن تكون الدولة في حاجة ماسة إلى تكثير الجنود لسد الثغور وحماية الملك المتسع الأخطار خوفا من العدوان أو نظرا لما تعاينه الدولة من قلة الموارد أو غير ذلك، ففي مثل هذه الحالات للحاكم العادل أن يفرض ضرائب على المقتدرين من رعيته بقدر ما يسدّ حاجة الدولة وبشرط أن تصرف تلك الأموال فيما يحقق مصالح الناس العامة على اختلافها [40].

3 . تنظيم المرور وفق القانون:

وهذه تدخل في أصلي كلي ضروري وهو حفظ حياة الناس وذلك بمنع التصادم بين السائقين، فتخصص جهة معينة للراجلين و جهة معينة لأصحاب السيارات وفق ما جاء به قانون المرور كما تعين فئة معينة ومختصة تقوم بذلك حفاظا على أرواح الناس، وهذا من صميم مقاصد الشرع في حفظ الأرواح، وعليه فاحترام قوانين المرور وتطبيقه هو مراعاة وتطبيق لمقاصد الشريعة في حفظ النفس .

4 . تسجيل عقود الملكية:

إن الأحكام القانونية تقضي بأن هذه العقود العقارية لا تكسب المتعاقد حقوقا عيينة في العقار ما لم تسجل في السجل العقاري وفي هذا محافظة على أموال الناس من الضياع ومنعا من وقوع الخصومات بين الناس وفيه مصالح أخرى عديدة.

5. تخصيص القضاء من حيث الموضوع

بحيث يكون لكل نوع من الدعاوى محكمة خاصة تنظر فيه ويمتنع عليها النظر في سواه كالمحاكم الجنائية لمحاكمة المجرمين والمحاكم الحقوقية للنظر في دعاوى الحقوق المالية إلى غير ذلك من المحاكم المختصة بحسب الدعاوى الزمنية وكثرة الدعاوى والأنظمة وحاجتها إلى الأخصائيين في العلم والاختصاص في توزيع العمل.

6. جعل القضاء والمحاكم على درجات

بحيث يكون أمام المحكوم عليه طريق للطعن في الحكم الصادر عليه أمام محكمة أعلى تستطيع نسخه أو تعديله إذا وجدت فيه جورا أو خطأ [41].

7. قتل مهرب المخدرات وتعزير مروجها:

نظرا لما للمخدرات من آثار سيئة وذلك بسب كثرة انتشارها ولأن المصلحة تقضي إيجاد عقوبة رادعة لمن يقوم بنشرها وإشاعتها سواء عن طريق التهريب أو الترويج، وعليه فإن مجلس هيئة كبار العلماء بالمملكة السعودية في دورته التاسعة والعشرين المنعقدة بمدينة الرياض 1407/06/9 وحتى 1407/06/20 هـ، وبعد دراسة المجلس للموضوع ومناقشته من جميع جوانبه في أكثر من جلسة وبعد التداول في الرأي واستعراض نتائج هذا الوباء الخبيث القتال، وعليه فإن المجلس يقرر بالإجماع على ما يلي:

1 . **بالنسبة لمهرب المخدرات:** فإن عقوبته القتل لما يسببه تهريب المخدرات من إدخال البلاد في فساد عظيم لا يقتصر على المهرب نفسه وأضرار جسيمة وأخطار بليغة تعود على الأمة بمجموعها، ويلحق بالمهرب الشخص الذي يستورد أو يتلقى المخدرات من الخارج ليموّن بها المروجين لها.

2. **أما بالنسبة لمروّج المخدرات:** فإن ما أصدره بشأنه في قراره رقم (85) بتاريخ 1401/11/11 هـ كان في الموضوع ونصه: الثاني: من يروّجها سواء ذلك بطريق التصنيع أو الاستيراد بيعا أو شراء أو إهداء ونحو ذلك من ضروب إشاعتها ونشرها، فإن كان للمرة الأولى فيعزر تعزيرا بليغا

بالحبس أو الجلد أو الغرامة المالية أو بها جميعا حسب ما يقتضيه النظر القضائي وإن تكرر منه ذلك فيعزر بما يقطع شره عن المجتمع ولو كان ذلك بالقتل لأنه بفعله هذا يعتبر من المفسدين في الأرض وممن تأصل الإجرام في نفوسهم.

3 .أنه لابد قبل إيقاع تلك العقوبات من استكمال جميع الإجراءات اللازمة التي تثبت الجريمة .

4 . لابد من إعلان هذه العقوبات عن طريق وسائل الإعلام إعذاراً وإنذار لمن تسوّل له نفسه ارتكاب هذه الجريمة.[42]

8 . جواز تشكيل الأحزاب السياسية [43]

الأحزاب السياسية عبارة عن تكتلات شعبية تخضع لتنظيم معين وتعمل لتطبيق برنامجها المسطر وفق المبادئ العامة للشريعة الإسلامية، وهذا في الحقيقة ما هو إلا وسيلة للوصول إلى وسيلة أكبر منها وهي تولي رئاسة الدولة ومهامها وهذه الأخيرة ما هي إلا وسيلة لتحقيق غاية كبرى وهي تطبيق شرع الله في الواقع، ولا يتنافى تعدد الأحزاب مع ما يقرره الإسلام من أحكام ومبادئ، ذلك أن هذه المبادئ الدستورية العامة التي تبناها الإسلام وهي الشورى والحرية والعدالة والمساواة يصعب حمايتها والحفاظ عليها إلا في ظل نظام يحترم التنظيمات السياسية ويسمح لها ممارسة نشاطها في حدود الصالح العام وأحكام الإسلام، والإسلام دين عالمي يرعى حقوق المسلمين وغير المسلمين فإذا كانت أحكامه موجهة أصلا لتنظيم المسلمين أولا إلا أنه لم يترك غير المسلمين دون حماية، بل هناك مبدأ هام يقضي بحسن المعاملة مع الأقليات الدينية والسياسية داخل الدولة الإسلامية.

وعليه فإن الأحزاب السياسية لها أن تقوم بوظائف عدة أهمها عملية الترشيح لمختلف المناصب السياسية والإدارية وغيرها .

9 . غلبة الحرام على أرض المسلمين:

. إذا عم الحرام الأرض وانقلبت أموال العالم بجملتها محرمة لكثرة المعاملات الفاسدة واشتبه الغصوب بغيرها وعسر الوصول إلى الحلال المحض

ففي مثل هذه الحالة يجوز لكل محتاج أن يأخذ مقدار كفايته من كل مال، لأن تحريم التناول يفضي إلى الهلاك وتخصيصه بمقدار سدّ الرمق يكف الناس عن معاملاتهم الدينية والدينوية ويتداعى ذلك إلى فساد الدنيا وخراب العالم فلا يتفرغون وهم على حالتهم مشرفون على الموت إلى صناعتهم وأشغالهم والشرع لا يرضى بمثله قطعا فيأخذ كل محتاج ما يكفيه لسدّ حاجته دون إسراف ولا تقصير[44].

وعموم القول، فإن الشارع الحكيم قد طلب من المكلف تحقيق المصلحة في كل أحكامه الشرعية فشرع له ما فيه النفع ودفع عنه ما فيه الضرر لكي يتحقق له ما خلق من أجله وهو عمارة هذه الأرض وخلافته فيها وإخلاص العبادة لله تعالى، وهذه لا تتحقق في الواقع إلا إذا تحرى الإنسان أوامر الشريعة ونواهيها فإن المصلحة هنا تكون نسبية قد تشوبها بعض المفاسد فما على المجتهد إلا إعمال نظره في الترجيح بين المصالح والمفاسد عموما، وهذا ما رأيناه في هذه الأمثلة التي هي على سبيل التمثيل لا الحصر.

خاتمة:

بعد هذا العرض السريع لموضوع المصلحة في الشريعة الإسلامية، نكون قد شكّلنا صورة. ولو مجملة. عن هذا الموضوع الهام من موضوعات الشريعة التي تبرز بعمق مدى صلاحية الشريعة في كل عصر ومصر.

ومن هنا تبرز أهمية المصالح في الشريعة، لذا ينبغي اعتبارها أصلا تشريعا مستقلا عند عدم الدليل القطعي كونها أصلا كليا يدلّ على صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان ويؤكد مرونتها بإعطاء كل حادثة مستجدة حكمها الشرعي بحكم أن النصوص متناهية والحوادث غير متناهية والعلم عند الله تعالى.

لذا فإن المصلحة تعدّ الأساس التشريعي الفعال الذي يجعل الشريعة في مستوى متطلبات العصر، ويجب عن تساؤلاتنا الراهنة، ويحسم الكثير من الإشكاليات التي طرحها التطور والتقدم، والتي ظلت عهودا طويلة دون إجابة شرعية شافية كافية، أما باعتماد المصلحة كأساس شرعي مبدئي تلغى كل تلك الإشكاليات وتكون شريعتنا فعلا كما أراد الله أن تكون.

لكن هذا لا يعني أبدا أن يفتح الباب للقول في دين الله بالهوى والتشهي دون اعتماد نص أو دليل نصي، ثم تجعل الحجة في ذلك المصلحة مع سوء فهم وتقدير.

فلذلك، لا سبيل للتوسع في الأخذ بالمصالح في التشريع إلا لمجتهد بصير بمقاصد الشريعة وأصولها الكلية، وفي الوقت ذاته محيط بالواقع وملابساته الخاصة، وبالتالي يمكنه توظيف المصلحة كدليل شرعي توظيفا سليما يكون منطلقه فيه العوامل التالية:

1 . جلب المصالح التي يحتاج إليها المجتمع لإقامة حياة الناس على أقوى أساس.

2 . درء المفاسد المضرة بالناس أفرادا وجماعات، سواء كان ضررها ماديا أم معنويا، وسواء كانت المفسدة واقعة أو متوقعة.

3 . سد الذرائع التي يلجأ إليها الإنسان لإيقاع الضرر بغيره والاحتيال على الشرع والتلاعب بأحكامه.

4 . تغير الزمان واختلاف أحوال الناس وأخلاقهم وأوضاعهم في حياتهم العامة والخاصة.

ويمكن من كل هذا أن نستخلص الضوابط الأساسية التي ينبغي للمجتهد مراعاتها في استنباطه للأحكام الشرعية وهي كما يأتي:

. لا اجتهاد بغير استفراغ الوسع مع امتلاك آليات هذا الاجتهاد.

. لا مجال للاجتهاد مع النصوص.

. الشريعة لا تبيح ما فيه مفسدة راجحة.

. المصالح المعارضة بالنصوص مصالح موهوبة.

. حيث يوجد شرع الله فثم المصلحة وليس العكس.

. المصلحة المرسلة محل اتفاق بين الأئمة الأربعة تحقيقا.

. لا اعتبار للاجتهاد في العبادات والمقدارت الشرعية، واعتباره في ذلك يفتح باب للبدع والأهواء.

الهوامش :

1. ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف 2479/4.

2. الطاهر أحمد الزاوي: ترتيب القاموس المحيط، (840/2) ط3، دار الفكر.

3ـ المستصفى: الغزالي، مطبعة بولاق، 139/1ـ 140.

4ـ الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية، الشركة التونسية للتوزيع، ص 65.

5ـ مصطفى أحمد الزرقا: المدخل الفقهي العام، 91/1، بتصرف

6ـ د. محمد سعيد رمضان البوطي: ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية: مكتبة رحاب، ص 27.

7ـ الرازي: المحصول في علم الأصول، تحقيق طه جابر العلواني، جـ2، 219ـ 220.

8ـ مصطفى شلبي: أصول الفقه، دار النهضة العربية، 1981، ص 286.

9ـ الشاطبي: الموافقات في أصول الأحكام، شرح، عبد الله دراز، دار الفكر، 51/49/2.

10ـ الزرقا: المدخل الفقهي العام، 92/1، بتصرف.

11ـ الموافقات (23/2).

12ـ المصدر نفسه (16/2).

13ـ الموافقات 25/2،18،17.

14ـ خلاف: علم أصول الفقه، الزهراء، ص 206.

15ـ الرازي: المحصول في علم الأصول: ج2/ق3/ ص 288.

16ـ الشاطبي: الاعتصام، ضبطه وصححه: الأستاذ أحمد الشافي، دار شريفة، 352/2.

17ـ سورة البقرة الآية: 275.

18ـ سورة البقرة الآية: 278.

19ـ سورة النساء الآية: 11.

20ـ خلاف: مصادر التشريع فيما لا نص فيه ص 88.

21ـ الزرقا: لاستصلاح والمصالح المرسلة، ص 39.

22ـ الغزالي: المستصفى: (143/1).

23ـ البوطي: ضوابط المصلحة، مؤسسة الرسالة، ص 287، وما بعدها.

24ـ جلال الدين عبد الرحمن: غاية الوصول إلى دقائق علم الأصول، ط1، 39ـ40.

25ـ البوطي: ضوابط المصلحة: 100ـ111.

26ـ غاية الوصول إلى دقائق علم الأصول، ص 48.

27ـ الأسنوي: نهاية السول شرح منهج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي، عالم الكتب، 1982. 387/4ـ 388.

28ـ د/ شعبان محمد إسماعيل: تهذيب شرح الأسنوي على منهاج الوصول إلى علم الأصول، تأليف 192/3ـ193.

29ـ الاعتصام 364/2.

30ـ أصول الفقه الإسلامي، وهبة الزحيلي (799/2)، دار الفكر.

31ـ الزرقا: الاستصلاح والمصالح المرسلة، ص 93.

32ـ الشاطبي: الاعتصام (346/2).

33ـ عبد الوهاب خلاف، مصادر التشريع الإسلامي فيما لا نص فيه ـ، ص 99ـ100.

34ـ الاعتصام (367/2).

35ـ علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، دار المعارف مصر، ص 189.

36 ـ د/جلال الدين عبد الرحمن في كتابه « غاية الوصول إلى دقائق علم الأصول»، ص 118 إلى 12، فما بعدها.

37 ـ الزرقا: المدخل الفقهي العام، الزرقا، 97/1.

38 ـ الشاطبي: الاعتصام 358/2.

39 ـ مصطفى الزرقا، المدخل الفقهي العام، 98/1ـ103.

40 ـ الشاطبي: الاعتصام 358/2.

41 ـ الزرقا: المدخل الفقهي العام، 108/1ـ109.

42 ـ انظر مجلة المجمع الفقهي الإسلامي، نصف سنوية يصدرها مجمع الفقه الإسلامي برابطة العالم الإسلامي العدد السادس السنة الرابعة 1412هـ.

43 ـ مجلة الإسلام اليوم تصدرها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية، العدد 4، تحت عنوان موقف الفكر الإسلامي من الأحزاب السياسية. د/نعمان أحمد الخطيب.

44 ـ أنظر: العز ابن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، دار الجيل، 188/2.

ملامح منهج نقد المرويات عند المحدثين

بقلم

أ/ **عائشة غرابلي**

أستاذ مساعد بكلية العلوم الاجتماعية والإسلامية

جامعة باتنة. الجزائر

الملخص :

لقد قام علماء هذه الأمة بجهود عظيمة في حفظ سنة النبي صلى الله عليه من الزيادة أو النقص، هذه الجهود العظيمة تراكمت بحيث أصبحت تشكل منهجاً علمياً فريدا يقوم أسس واضحة وقواعد متينة تتسم بالموضوعية، إذ علماء هذا الفن تحرروا من الأغراض والأهواء وهم يقعدون أصولهم ويطبقونها على الرواة، فغايتهم العظيمة هي تنقية السنة النبوية من الدسائس والوضع، وأن يبينوا مقبولها من مردودها، ويوضحوا مراتب المقبول منها، ولا يبالوا في ذلك إن قدحوا في قريب أو غريب أو وثقوا مخالفاً لهم في الرأي أو موافقاً ... وهو ما جعل هذه القواعد ترقى إلى أن تكشف أي زيف في أي مروي في شتى العلوم. ولقد شهد بهذه الحقيقة كبار المستشرقين لما وقفوا عليه من دقة هذه القواعد ومتانة هذه الأصول العلمية، والبحث الذي بين أيدينا يكشف بعض ملامح هذه القواعد، ويبين جدارتها وصلاحيتها لأن تطبق على أي مادة تاريخية، حتى وإن لم تكن شرعية.

Résumé:

Les savants de la nation ont été effectué des grandes efforts afin de conserver la sunna du prophète Mohamed (que la paix et la bénédiction d'ALLAH soient sur lui) de toute modification. Ces efforts construirent une méthode scientifique basée sur des règles robustes. L'objectif principal des savants est de conserver la sunna du prophète Mohamed (que la paix et la bénédiction d'ALLAH soient sur lui) et ainsi d'indiquer les traditions qui sont acceptées avec leurs degrés d'acceptation et les traditions refus en respectant l'exactitude, la fiabilité et l'autonomie dans leurs décisions. Les fruits de ces efforts découvrent n'importe quelle fausseté dans les rapporteurs des traditions. Cette réalité est certifiée par les orientalistes qui vu l'exactitude et la robustesse de la méthode utilisée pour conserver la nunna du prophète Mohamed (que la paix et la bénédiction d'ALLAH soient sur lui). Notre étude concerne à indiquer comment on peut appliquer cette méthode à n'importe quelle matière historique même si elle n'est pas légitimité.

لقد شهدت مراحل التاريخ الإسلامي ولادة هذا المنهج، الذي يعتبر بحق شاهداً على ضخامة الجهد الذي تحمله السابقون في وضع القواعد العلمية التي يمكن أن يحتكم إليها في اختبار المرويات مطلقاً سواء كانت مرويات شرعية أو تاريخية ؛ ولهذه القيمة العلمية لهذا المنهج، فإن تعقب نشأة قواعده، ومعاينة ظروفها التاريخية من شأنه أن يوضح الكثير من المعاني المتعلقة بذلك، ويفسر بعض الاختلافات الواردة في جزئيات هذا المنهج، والتي يمكن أن نستعين بها أيضاً في اختيارات الشيخ ناصر الدين الألباني فيما يراه من آراء في تصحيح الحديث وتضعيفه .

. نشأة قواعد التصحيح والتضعيف :

كان عامل إقلال الرواية عن رسول الله ﷺ معتمداً لدى الصحابة بعد التحاق النبي ﷺ إلى جوار ربه، حرصاً منهم على عدم انشغال الناس بالحديث عن القرآن ، روى الشعبي عن قرظة بن كعب قال : « خرجنا نريد العراق، فمشى معنا عمر إلى صرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال : أتدرون لما مشيت معكم ؟ .قالوا : نعم نحن أصحاب رسول الله ﷺ مشيت معنا، فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالحديث فتشغلوهم جودوا القرآن، وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ وامضوا وأنا شريككم، فلما قدم قرظة قالوا حدثنا، قال : نهانا عمر بن الخطاب »[1] .
والشعبي يقول : « جالست ابن عمر سنة فما سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ شيئاً، وكان انس بن مالك يتبع الحديث عن النبي ﷺ بقوله ك أو كما قال حذراً من الوقوع في الكذب عليه »[2] .

كل هذه الآثار وغيرها تدل على أن الصحابة وقفوا على حذر في شأن الحديث فأقلوا من الرواية عن رسول الله ﷺ خشية أن يتخذها المنافقون مطية لأغراضهم الخبيثة ورغم كل هذه الحيطة في شأن الإقلال من الرواية إلا أن الحديث النبوي كتب له أن يروى وينتشر في أنحاء المعمورة لأنه دين، والدين مأمور إبلاغه للناس كافة .

وفي غمرة تبليغ السنة النبوية الشريفة لم يغفل كبار الصحابة عن أمور جوهرية هي بمثابة قواعد وضوابط ابتكروها حفاظاً على السنة من التزيد أو الوضع أو الافتراء على كلام رسول الله ﷺ، من هذه الضوابط :

أولاً : النظر في الأسانيد :

لقد كان النبي ﷺ يحدث في كل الأوقات، وكيفما اتفق له الأمر « وكان من المعتاد لدى الصحابة رواية الأحاديث النبوية في حياة النبي ﷺ، وكان من عادتهم أن يبلغ الشاهد الغائب، وهؤلاء عندما يذكرون شيئاً سمعوه من النبي ﷺ أو رأوه يفعله، كانوا يتنسبون القول أو الفعل إلى النبي ﷺ، بل كان النبي ﷺ يسند القول إلى جبريل عليه السلام، وكان الصحابة يسندون القول إلى قائله سواء كان ذلك النبي أو صحابياً آخر، وهذا المنهج الذي استعمله الصحابة رضوان الله عليهم في حياة النبي ﷺ هو الذي أنتج الإسناد »[3]، وقال عبد الله بن المبارك : « الإسناد عندي من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، فإذا قيل له من حدثك بقي »[4]، ذلك أن نسبة الأحاديث للنبي ﷺ أمر خطير ؛ فلا بد من وجود الإسناد، حتى لا نقع ضحية غفلة الراوي أو تحريفه العمدي للنص النبوي إتباعا لهواه أو جلباً لمصلحته أو مصلحة مذهبه أو طائفته .. فقد كشف المحدثون الوقائع التي تدل على ذلك، ذكر ابن حزم عن الإسناد : « وهذا نقل خص الله به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها وأبقاه عندهم غضاً جديداً على قديم الدهور »[5] ؛ فالاهتمام بالسند من خاصة هذه الأمة .

حتى يعطي الإسناد ثمرته من كشف خطا أو تحريف أو وضع المروي لا بد من أن تعرف حالة الرواة معرفة كاملة إذ بمعرفتهم تقع الثقة فيما يروونه أو تضعف حسب ما يقتضيه حالهم، ولهذا التلازم بين حال المروي والثقة فيما يرويه، قام ما يعرف في لغة المحدثين بالجرح والتعديل .

1 . تعريفه : الجرح عند المحدثين : هو الطعن في راوي الحديث بما يسلب أو يخل عدالته أو ضبطه ن والتعديل عكسه .

لما كانت النصوص والآراء المنقولة في العلوم الإسلامية تحتاج إلى توثيق وتحقيق لكونها معرضة للتصحيفات والأوهام والأخطاء؛ فإن الأحاديث النبوية وآثار الصحابة والتابعين ومن بعدهم أولى بمثل هذا التوثيق

والتحقيق بعزوها إلى من رواها، والنظر في مدى صحة نقلها لنا، ثم إن الاشتغال بالسنة المحمدية، وبما أثر عن السلف الصالح ودراسة أسانيده ومتونه وفقهه من أعظم وأجل ما يشتغل به المسلمون وينصرف إليه الباحثون.

ولعل بداية منشأ التحري في دقة الأسانيد وفحصها، كان في زمن الصحابة رضوان الله عليهم ؛ فبعد التحاق الرسول ﷺ إلى جوار ربه أحس الصحابة بعظم الأمانة الملقاة على عواتقهم، وأدركوا ثقل هذا الحمل العظيم الذي سيسألهم الله تعالى عنه، من تبليغ الرسالة ونصرة الإسلام وانتشال العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الأديان إلى سعة الإسلام، ولقد كان الفضل الكبير للقرآن الكريم والسنة النبوية في رسم منهج سوي إلى كيفية الاهتداء إلى التوثق في الأخبار، والتحري في قبول ناقليها، قال عز وجل في محكم تنزيله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ [6] ، وقال تعالى : ﴿ وإذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ [7] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « كفى بالمرء كذباً [وفي رواية إثماً] أن يحدث بكل ما سمع» [8] . وقال: « من حدث عني بحديث يرى أنه كذب، فهو أحد الكاذبين » [9] .

وهكذا اجتمع في هذا الرعيل من دوافع حفظ السنة ونشرها وتعليمها ومن أسباب التوثق والتورع ما جعله يقوم بأداء الأمانة خير الأداء ولعل أصدق أنموذج لمثل هذا التحرز في النقل والدقة في قبول الأخبار تصرف سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ مع أبي موسى الأشعري حين استأذنه ثلاثاً فلم يأذن له فانصرف، قال أبو سعيد الخدري وهو راوي هذا الحديث يصف ذلك المشهد : « كنت في مجلس من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسى كأنه مذعورا، فقال : استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يأذن لي فليرجع، فقال : والله لتقيمن عليه ببينة : أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ فقال أبي بن كعب : والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم، فقمت فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك » [10] .

ولقد أجاد الإمام الذهبي حينما اعتبر تصرف سيدنا عمر بن الخطاب هذا سنة للمحدثين في التثبت في النقل[11]، وهي حرصه الشديد في تحري الأخبار وناقليها ؛ فكان هذا التصرف إرهاصاً واضحاً للعصور التالية وقاعدة راسخة مكنت من اتساق هذا العلم بعد ذلك .

وعلى هذا النهج سار السلف الصالح بخطى متفاوتة في نقل الأخبار والتثبت في الرواية، وكان دأبهم الاشتغال بأعظم رصيد خلفه أعظم خلق الله .

وبعد فترة من الزمن بدأ الناس يبتعدون عن هذا التراث الفقهي والإرث النبوي حتى بدأ يصعب على كثير من العلماء والباحثين الاهتداء إلى المواطن الأصلية للأحاديث والآثار، وضاق اطلاعهم بمظان وجود كمّ هائل منها، مما استشهد به المصنفون في العلوم الشرعية وغيرها، فكان هذا السبب وغيره[12] من الدوافع التي أدت بالعلماء بمباشرة التصنيف في هذا المجال لأنهم أدركوا خطورة الأمر إن بقي على حاله .

فعلم التخريج إذاً هو واحد من علوم السنة، والذي يتعلق موضوعه بسند الحديث ومتنه . بل هو من أهم العلوم التي تخدم الكتاب والسنة فعن طريقه نستطيع معرفة مواضع الأحاديث والآثار في مصادرها الأصلية وروايتها بأسانيدها وبطرقها المتشعبة .

وينبغي أن نشير إلى أن « الجرح والتعديل » هو في الحقيقة امتداد لجهد الصحابة في التثبت من الأحاديث، فقد سبق أن أشرت إلى إقلالهم في الرواية، إلا أن هذا لا يعني أنهم بالغوا في ذلك إلى حد الإمساك عن الرواية، فقد كانوا ملتزمين بالحذر والحيطة، فما اطمأنت قلوبهم إليه بان كان مشهوراً أو متواترا أو آحاداً لم يكن في رواته من يشك في حفظه وضبطه قبلوه، وما كان خلاف ذلك بان لم تقم البينة على صدق راويه ردوه على قائله، روى الحافظ الذهبي في ترجمة أبي بكر الصديق : « كان أول من احتاط في قبول الأخبار، فروى ابن الشهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورث، فقال : ما أجد لك في كتاب الله شيئاً، ثم سأل الناس، فقام المغيرة فقال : حضرت رسول الله ﷺ يعطيها السدس، فقال له : هل معك أحد؟، فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها أبو بكر رضي الله عنه »[13] ن

فهذا الخبر وغيره يدلنا على أن مراد الصديق في التثبت في الأخبار والتحري لا يسد باب الرواية، ألا تراه لما نزل به أمر الجدة ولم يجده في الكتاب كيف سأل عنه في السنة، فلما اخبره الثقة، ما اكتفى حتى استظهر بثقة آخر ولم يقل حسبنا كتاب الله كما تقول الخوارج [14]، وروى الذهبي أيضاً : « أن عمر قال لأبي وقد روى له حديثاً : لتأتيني على ما تقول ببينة، فخرج، فإذا ناس من الأنصار فذكر لهم، قالوا : قد سمعنا هذا من رسول الله ﷺ، فقال عمر : أما إني لم اتهمك، ولكن أحببت أن أتثبت »[15]، وكذا ما حدث لأبي موسى الأشعري في أمر الاستئذان مع عمر ابن الخطاب [16].

ثانياً : عرض الحديث على القرآن

كان لهذا الضابط أثره البالغ في رد كثير من الأحاديث التي ما فتئ بعض الصحابة يرددونها بدافع الخطأ أو النسيان، أو فهم من اللفظ النبوي خلاف ما أراده النبي ﷺ، وسأعرض لملامح هذا الضابط من خلال عرض هذه الشواهد :

أ. نفقة المبتوتة :

أخرج الإمام مسلم في صحيحه أن أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، أخبره أن فاطمة بنت قيس، خبرته أنها كانت تحت أبي عمر بن حفص بن المغيرة فطلقها ثلاث تطليقات، فزعمت أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تستفتيه في خروجها من بيتها، فأمرها أن تنتقل إلى ابن أم مكتوم الأعمى، فأبى مروان أن يصدقه في خروج المطلقة من بيتها، وقال عروة إن عائشة أنكرت ذلك على فاطمة بنت قيس [17].

ب. تعذيب الميت ببكاء أهله عليه :

عن ابن عمر ... الحديث وفيه دخل صهيب « بعد أن أصيب عمر يبكي ويقول : وا أخاه وا صاحباه، قال عمر : يا صهيب أتبكي علي وقد قال رسول الله ﷺ: « إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه »، فقال ابن عباس : فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة، فقالت : « يرحم الله عمر لا والله لا ما حدث رسول الله ﷺ : إن الله يعذب المؤمن ببكاء أحد، ولكن قال : « إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه، قال وقالت عائشة حسبكم القرآن : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [18]، وفي رواية أخرى قالت عائشة : « رحم الله أبا عبد الرحمان سمع

شيئاً فلم يحفظه إنما مرت على رسول الله ﷺ جنازة يهودي وهم يبكون عليه فقال : أنتم تبكون وإنه ليعذب »[19]، فالسيدة عائشة ﷺ أنكرت على عمر ابن الخطاب رغم كونه من كبار الصحابة فهمه لحديث الرسول وصححته بناء على ما ورد في القرآن الكريم، لن ما نقله عمر مخالف لمنطوق الآية الكريمة وغدا تعارض نصان أحدهما قطعي والآخر ظني، فإنه يقدم القطعي على الظني، واستدلال عائشة على خطأ رواية عمر بمعارضته للقرآن دليل آخر على استعمال الصحابة لهذا المقياس حال وقوفهم على ما ينكرونه من مرويان .

ج. رؤية النبي ﷺ لربه :

قال مسروق دخلت على عائشة فقلت : « هل رأى محمداً ربه، فقالت : لقد تكلمت بشيء وقف[20] له شعري، قلت رويداً ثم قرأت : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ ، فقالت : أين يذهب بك ؟، إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمداً رأى ربه أو كتم شيئاً مما أمر به أو تعلم الخمس التي قال الله تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ﴾ فقد أعظم الفري، ولكنه رأى جبريل لم يره في صورته إلا مرتين : مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في جياد[21] له ستمائة جناح قد سد الأفق »[22]، فالسيدة عائشة رضي الله عنها ترد ما ردد على مسامعها من أن رسول الله ﷺ رأى ربه، بل قد بالغت في إنكار ذلك بأن عبرت عن من أن شعرها قد قف من شدة استعظام ما سمعت، وهذا ما يزيدنا تأكيداً بأن ما خالف القرآن يعد ضابطاً يعرف به صحة الحديث من عدم ذلك .

ثالثاً : عرض السنة بعضها على بعض :

هذا الضابط استخدمه عموم الصحابة في رد كثير من الأحاديث التي عارضت أحاديث قطعوا بأنهم سمعوها من النبي ﷺ، قد تطور منهجهم هذا في مقابلة الأحاديث ببعضها بما يصطلح عليه في علم أصول الفقه بمباحث التعارض والترجيح، فقد سلكوا قواعد معينة لرفع التعارض بين الحديثين، للخلوص إلى الصحيح من غيره، كنماذج على ذلك أذكر :

أ. سؤال أهل الاختصاص :

كثير من المسائل تعرض على كبار الصحابة فيفتون فيها بخلاف المشهور والمستفيض عن رسول الله ﷺ، لكون أكثر هذه المسائل تتعلق بأمور

النساء فلا يجد سبيلاً في العزوف عن أرائهم إلا مراجعة نساء النبي ﷺ، من ذلك مسألة الصائم يصبح جنباً، فعن أبي بكر بن عبد الرحمن قال : سمعت أبا هريرة ﷺ يقص : « من أدركه الفجر جنباً » فذكرت ذلك لعبد الرحمن بن الحارث . أبيه . فأنكر ذلك، فانطلق عبد الرحمن وانطلقت معه حتى دخلنا على عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما فسألهما عبد الرحمن عن ذلك، قال : فكلتاهما قالتا : كان النبي ﷺ يصبح جنباً من غير حلم، ثم يصوم، قال فانطلقنا حتى دخلنا على مروان، فذكر ذلك له عبد الرحمن ، فقال مروان عزمت عليك إلا ما ذهبت إلى أبي هريرة فرد عليه ما يقول، قال : فجئنا أبا هريرة وأبو بكر حاضر، فذكر له عبد الرحمن ف، فقال أبو هريرة أهما قالتاه لك ؟، قال نعم، قال هما أعلم »[23].

ثم رد أبو هريرة ما كان يقول في ذلك إلى الفضل بن العباس قائلاً : سمعت ذلك من الفضل ولم اسمعه من النبي ﷺ، فرجع أبو هريرة عما كان يقول في ذلك »[24]، فهذا الحديث يدل دلالة قطعية على أن الصحابة رضوان الله عليهم، يسلكون في قبول الأحاديث وردها مسلك المقابلة بما صح عن أهل الاختصاص، ويصححون ما حفظوا من روايات بناء على ما تعلموه منهم، باعتبار أنهم الأقرب إلى رسول الله ﷺ، ثم يعزف الواحد منهم عما حفظه إلى ما تعلمه من غيره، ولا يجد حرجاً في ذلك، بل ويصرح انه لم يسمع ذلك من الرسول ﷺ، وإنما أخبره به صاحب آخر .

ب. القيام للجنازة :

وردت فيه أحاديث مختلفة هي :

1. عن عامر بن ربيعة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيتم الجنازة فقوموا لها حتى تخلفكم أو توضع » .

2 . وعن جابر بن عبد الله قال : « مرت جنازة فقام لها الرسول ﷺ وقمنا معه، فقلنا يا رسول الله إنها جنازة يهودي، فقال : إن الموت فزع فإذا رأيتم الجنازة فقوموا » .

3 . وعن علي بن أبي طالب أن رسول الله كان يقوم للجنازة ثم جلس بعد»

4 . وعن ابن مسعود بن الحكم الزرقي، أنه سمع علي بن أبي طالب في رحبة الكوفة وهو يقول : « كان رسول الله ﷺ أمرنا بالقيام في الجنازة ثم جلس بعد ذلك وأمرنا بالجلوس » .

وبالتأمل في الأحاديث السابقة نجد أن بين الحديثين الأول والثاني وبين الحديث الثالث والرابع التعارض . إذ مقتضى الأوليين شرعية القيام للجنازة عند مرورها، وقد اشتمل الحديثان على أمر قوموا، وهي يقتضي الوجوب أو السنية، بينما نجد أن الحديثين الأخيرين مقتضاهما أن القيام غير مشروع للجنائز وغير جائز لأنه منهي عنه، وهما حكمان متقابلان ومتضادان، إلا انه قد دفع هذا التعارض بنسخ أحاديث الأمر بالقيام بأحاديث النهي والأمر بالجلوس، لأن لفظ كان يقوم للجنازة ثم جلس بعد يدل على أن الجلوس ناسخ للقيام . ولهذا قال الشافعي عن أحاديث القيام للجنازة، وهذا لا يعدو أن يكون منسوخاً، وأن يكون النبي ﷺ قالها لعلة رواها بعض المحدثين أنها كانت جنازة يهودي فقام لها كراهية أن تفوته، ويدل على ذلك حديث جابر بن عبد الله « الحديث الثاني » .

ويدلنا على النسخ أيضاً ما روي عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا مرت بكم جنازة، فإن كان مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً فقوموا لها، فإنه ليس تقومون لها ولكن تقومون لمن معها من الملائكة . قال الليث : فذكرت هذا الحديث لمجاهد فقال : حدثني عبد الله بن كيرة الأزدي : قال : إنا لجلوس مع علي ننتظر جنازة إذ مرت بنا أخرى فقمنا، فقال علي : ما يقمكم ؟ . فقلنا : هذا ما أفتانا به أصحاب محمد ﷺ، قال : وما ذلك ؟ .قلت زعم أبو موسى أن رسول الله ﷺ قال : إذا مرت بكم جنازة إن كان مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً فقوموا لها فإنه ليس تقومون لها، ولكن تقومون لمن معها من الملائكة، فقال ﷺ : ما فعلها رسول الله ﷺ قط غير مرة برجل من اليهود، وكانوا أهل كتاب، وكان يتشبه بهم، فإذا نهي انتهى فما عاد لها بعد » .

قال الشافعي : فقد جاء عن النبي ﷺ تركه بعد فعله، والحجة في الآخر من الأمرين من أمر رسول الله ﷺ ، فإن كان الأول واجباً فالآخر من أمره ناسخ للأمر، وإن كان استحباباً فالآخر هو الاستحباب، وإن كان مباحاً لا

بأس بالقيام والقعود، فالقعود أولى لأنه آخر الأمرين من فعله ﷺ . وبهذا يتبين أن التعارض مندفع بالنسخ .

أما مذاهب الفقهاء نتيجة لهذا التعارض في حكم القيام للجنازة فهي ثلاثة :

الأول : أن على الجالس أن يقوم إذا رأى الجنازة حتى تخلفه، استناداً إلى حديث « إذا رأيتم الجنازة فقوموا لها حتى تخلفكم أو توضع » .

الثاني : أنه إذا قام لم يعب عليه، وإن قعد فلا بأس به، وهو قول أحمد، ودليله أحاديث القيام ثم الجلوس بعد ذلك .

الثالث : ليس على احد القيام للجنازة وهو قول أكثر الفقهاء والشافعي ومالك، استناداً إلى أن الأمر بالقيام منسوخ .

وبتطبيق منهج النسخ بين الأحاديث المتعارضة يكون الصحابة قد وجهوا هذا الضابط « عرض السنة بعضها على بعض » توجيهاً سديداً بحيث لا يؤدي إلى إبطال مرويات صحيحة .

رابعاً : عرض السنة على الأصول الكلية للشريعة :

إذا تعارض خبر الواحد والقياس وتعذر الجمع بينهما، كما إذا كان خاصين ولا قرينة على التجوز، أو كانا عامين متساوين ونحوهما،فقد يكون ذلك قرينة على أن الحديث ليس صحيحاً، على أن معنى القياس ليس هو خصوص الدليل الأصولي بل المقصود به الأصول الكلية المقطوع بها في هذه الشريعة،ن والحاصل أنهم اتفقوا في مثل هذه الحال على أنه يقدم **أرجح الظنين الحاصلين منهما**، ولكنهم اختلفوا في أي الظنين أرجح على الوجه الآتي :

1. تقديم الحديث على القياس وإليه ذهب الشافعي وابن حنبل، فها هو الشافعي في كتاب اختلاف مالك في رسالته يقول : «لا قياس مع الحديث»، وإذا وجد الرأي مع الحديث لا يعمل بالرأي مطلقاً، ويعتبر الأخذ بالقياس في موضع النص من جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً، ذلك لأن الاجتهاد بالقياس لا يكون إلا حيث يكون النص، والقياس حمل لغير المنصوص على حكمه بالمنصوص على حكمه، فالقياس فرع للنص الذي هو الأصل فمن قدم

القياس على حديث صحيح النسبة للرسول ﷺ فقد قدم الفرع على الأصل، واجتهد في موضع النص وهو غير جائز .

وإذا ما تتبعنا اجتهادات الإمام ابن حنبل نجده أنه ما كان يجتهد إلا عند ما يعوزه النص، ويعتبرها حالة ضرورة، فقد نقل عنه أنه كان يفتي بقول التابعي لكي يتحرز عن الفتوى بالرأي، كما كان يفضل الأخذ بالحديث الذي ضعف سنده ولم يثبت كذبه على الأخذ بالاجتهاد والعمل بالرأي .

2 . تقديم القياس على خبر الواحد، وقد روي ذلك عن الإمامين مالك وأبي حنيفة، والذي نقل عن مالك أنه ترك الحديث في موضع الرأي في بعض الأحوال، ويذكر عنه روايتان : إحداهما أنه يقدم الرأي على حديث الآحاد، والثانية : أنه يقدم خبر الآحاد على الرأي، يشير إلى ذلك ما جاء في تنقيح الأصول [25] .

وحجة المنع أن القياس فرع النصوص، والفرع لا يقدم على أصله، بيان الأول : كون « القياس فرع النصوص » أنم القياس لا يكون حجة إلا بالنصوص، فهو فرعها، ولأن المقيس عليه لا بد أن يكون منصوصاً عليه فصار القياس فرع النصوص من هذين الوجهين، وأما أن الفرع لا يقدم على أصله فلأنه لو قدم على أصله لبطل الأصل، ولو أبطل أصله لبطل .

ذكر القرافي أن مالك رحمه الله يعطي لهذه القرينة اعتباراً معيناً في النظر في أخبار الآحاد، فالقياس « مقدم على خبر الواحد عند مالك رحمه الله، لأن الخبر، إنما ورد لتحصيل الحكم، والقياس متضمن للحكمة فيقدم على الخبر » [26]، نفس هذه الملاحظة أكدها الشاطبي رحمه الله فسجل أن مالكاً يأخذ بالقواعد العامة ويترك خبر الواحد إذا تعارض معها [27]، ومما ينبغي التنبيه عليه في مذهب مالك هذا . إن صحت نسبته له . أن رده لأخبار الآحاد المعارضة للقياس ليس ذات المعارضة للقياس وإنما كونها المعارضة للقياس تومئ إلى ضعف نسبتها للمشرع، فضعف هذه النسبة هو الذي لم يعطي لخبر الآحاد محلاً للاعتبار، ويتأكد ضعف هذه النسبة بكون خبر الآحاد زيادة على أحادية روايته جاء معارضاً لقاعدة من قواعد الشرع «

المشهورة في الفقه الإسلامي التي تكون في حكم المقطوع به كقاعدة لا حرج في الدين، وقاعدة سد الذرائع وغير ذلك من القواعد العامة الثابتة المقطوع بصدقها، ولأنه يرد خبر الآحاد إذا لم يكن يعتمد على قاعدة إن لم تعاضده قاعدة أخرى »[28].

. تحقيق نسبة هذا المذهب للإمام مالك :

لقد وقع الخلاف في مدى نسبة هذا المذهب للفقه المالكي، فرغم وضوح عبارة القرافي تلك، قال أبو زهرة « لا نقر ما تشير إليه عبارة القرافي وهو تقديم القياس على خبر الواحد على الإطلاق، بل نرى أن القياس يقدم على خبر الواحد إذا اعتمد على قاعدة قطعية، ولم يكن خبر الواحد معاضداً بقاعدة أخرى قطعية، وإنما قدم القياس في هذه الحال لأن خبر الآحاد يكون معارضاً للنصوص المستنبطة منها هذه القاعدة »[29]. وأياً كان الأمر فإن هذا الإجراء المتمثل في تقديم مدلول النصوص الكلي على مدلول لخبر الآحاد يعتبر توظيفاً تشريعياً للمقصد في اختبار ثبوت النص التشريعي ظني الثبوت، ومن الأمثلة التي يظهر فيها هذا الإجراء في الفقه المالكي :

1 . ما ذكره الشاطبي من أن مالكاً أنكر حديث إكفاء القدور التي طبخت من الإبل والغنم قبل القسم، تعويلاً على أصل رفع الحرج الذي شهدت له الكثير من النصوص الشرعية [30].

2. قول مالك في حديث غسل الإناء من ولوغ الكلب سبعاً « يؤكل صيده فكيف يكره لعابه »، وهذا الحديث في نظر ابن العربي جاء معارضاً للأصول القطعية مطلقاً ولم يرد ما يعضده من أصل قطعي آخر فقد « عارض أصلين عظيمين أحدهما قوله تعالى : ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم ﴾[31]، والثاني : أن علة الطهارة هي الحياة وهي قائمة في الكلب »[32] وهذا يدل أن مالكاً رحمه الله لا يترك خبر الآحاد المعارض للأصول إلا في حالة واحدة هي فيما إذا لم يسانده أصل قطعي آخر في دلالته، وهو ما يوهن نسبته للمشرع، وفي اعتبار الإمام مالك لهذا الشرط زيادة في التحقيق والتثبت المناسبين .

وقد اختلف القول عن أبي حنيفة فمن قائل أن أبا حنيفة كان يرد خبر الواحد، إذا كان الراوي له غير فقيه، وكان الحديث مخالفاً للقياس، فإن كان الراوي فقيهاً فإنه يقبل حديثه حتى لو خالف مقتضى القياس .

ويقول آخرون إن أبا حنيفة كان يرد خبر الواحد إذا خالف القياس، يقول ابن عبد البر : « كثير من أهل الحديث استجازوا الطعن على أبي حنيفة لرده كثيراً من أخبار العدول، لأنه كان يذهب في ذلك إلى عرضها على ما اجتمع عليه من الأحاديث ومعاني القرآن، فما شذ عن ذلك رده وسماه شاذاً .

ويفيد كلام بن عبد البر : أن الطعن الموجه لأبي حنيفة قائم على أنه كان يرد أخبار الآحاد ولو كان رواتها عدولاً لأنها خالفت المعاني المجتمع عليها المأخوذة من معاني القرآن والأحاديث بشكل عام، أما أخبار الآحاد التي لا تخالف قاعدة أثبتتها نصوص كثيرة فما كان يردها .

هذه بعض ملامح منهج التصحيح والتضعيف عند العلماء، والتي قد نفصل الكثير من جزئياتها إن دعت الحاجة إلى ذلك في ثنايا هذا البحث .

. الهوامش :

---

1 - جامع بيان العلم، ابن عبد البر، 347/2، تعليق : محمد عبد القادر أحمد عطا، مؤسسة الفكر الثقافية .

2 ـ الحديث والمحدثون، محمد محمد أبو زهو، ص 68.69 . بيروت، دت

3 ـ محمد مصطفى الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، 392/2 .

4 ـ مسلم، الصحيح، المقدمة، 15/1 .

5 ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، 82/2 .

6 ـ سورة الحجرات، الآية 06 .

7ـ سورة النور، الآية 15 .

8 ـ أخرجه الإمام مسلم في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ن ص 31، برقم 70، و أبو داود في كتاب الألباب ن باب التشديد في الكذب، 716/2 برقم 4992، من حديث أبي هريرة .

9 ـ أخرجه الإمام مسلم في المقدمة، باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكاذبين أو التحذير من الكذب عن رسول الله ﷺ، ص 22ـ والترمذي في كتاب العلم، باب فيمن روى حديثاً، وهو يرى أنه كذب، 35/5 برقم 2662 من حديث المغيرة بن شعبة .

10ـ أخرجه البخاري في صحيحه (مع فتح الباري)، كتاب الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثاً، 126/11، مسلم، كتاب الآداب .

11 ـ تذكرة الحفاظ، الذهبي، 6/1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت .

12 ـ ذكر الحافظ العراقي سبباً آخر حول إعراض العلماء الأوائل عن تخريج الأحاديث في مصنفاتهم، وهو أن لا يغفل النظر في كل علم في مظنته حيث قال : (عادة المتقدمين السكوت عما أوردوا من الأحاديث في تصانيفهم، وعدم بيان من خرجه، وبيان الصحيح من الضعيف إلا نادراً، وإن كانوا من أئمة الحديث حتى جاء النووي . وقصد الأولين أن لا يغفل الناس النظر في كل علم في مظنته، وعلى هذا مشى الرافعي على طريقة الفقهاء مع كونه أعلم بالحديث من النووي) . أنظر : المناوي، فيض القدير، 28/1 .

13 ـ تذكرة الحفاظ الذهبي، 2/1 .
14 ـ المصدر نفسه، 3/1 .
15 ـ المصدر نفسه، 2/1 .
16 ـ المصدر نفسه، 6/1 .
17 ـ صحيح مسلم، بشرح النووي، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها، 10 340، ت : الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت
18 ـ المنهاج بشرح النووي، كتاب الجنائز، باب : الميت يعذب ببكاء أهله عليه، 471/6 .
19 ـ صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، 44/3 .
20 ـ وقف شعري : أي قام من الفزع، لسان العرب 138/3 .تقديم عبد الله العليلي ، إعداد : يوسف الخياط، دار لسان العرب، بيروت .
21 ـ موضع في أسفل مكة، معجم البلدان، لياقوت الحموي، 226/2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
22 ـ سنن الترمذي، كتاب التفسير ـ تفسير سورة النجم ـ 368/5، ت: يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان .
23 ـ صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، ـ محمد فؤاد عبد الباقي، 779/2 ـ 780 .
24 ـ المرجع نفسه، 780/2 .
25 ـ جاء في شرح التنقيح، 167/2 : (حكى القاضي عياض في التنبيهات وابن رشد في المقدمات في مذهب مالك في تقديم القياس على خبر الواحد، قولين : ، وعند الحنفية قولان أيضاً، وحجة تقديم القياس أنه موافق للقواعد الفقهية، من جهة تضمنه لتحصيل المصالح ودرء المفاسد، والخبر المخالف لها يمنع من ذلك، فيقدم الموافق للقواعد على المخالف لها)
26 ـ تنقيح الفصول، القرافي، ص 378 .
27 ـ الموافقات، الشاطبي، 21/3 .
28 ـ مالك بن أنس، أبو زهرة، ص 306، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت .
29 ـ المرجع نفسه، ص 304 .
30 ـ الموافقات، الشاطبي 23/3 .
31 ـ المائدة، الآية 4 .
32 ـ الموافقات، الشاطبي، 201/3 .

دراسة تاريخية
لمناهج تعليم القرآن الكريم بين الماضي والحاضر
(مجتمع وادي سوف نموذجا)

بقلم
أ/ علي غنابزية
أستاذ مساعد مكلف بالدروس بقسم التاريخ
المركز الجامعي بالوادي

الملخص :

يدرس هذا الموضوع وسائل وطرق التعليم القرآني المتشابهة في كامل أنحاء الجزائر، مع أخذ منطقة وادي سوف نموذجا للبحث عن تطور المناهج التي سلكها القدامى في نشر القرآن على أوسع نطاق، ويرصد كيف كان الانتشار محدودا في العصور المتأخرة رغم تطور المناهج العلمية وتوفر الإمكانيات المادية والبشرية . ويكشف أن النجاح في هذا التعليم مرتبط بتعاون المجتمع، وخصوصا أطراف العملية التعليمية (المعلم، والتلميذ، والأولياء).

Résumé

Ce thème étudie les moyens et les modes d'enseignement Coranique semblables dans tous les région de l'Algérie.

On a précis Oued-Souf comme exemple pour étudier le développement des méthodes qui étaient utilisées par nos encetres dans la diffusion du Coran sur une grande échelle.

Ce thème étudie aussi les limites de cette diffusion dans la dernière époque malgré le développement des méthodes scientifiques et l'existence des ressources matérielles et humaines.

Enfin, il montre que la réussite des méthodes d'apprentissage est conditionnée par une complémentarité de toute la société surtout ceux de (l'enseignant, l'enseigné, et la famille.?

مقدمة:

لما شرع نور الإسلام في شمال إفريقيا خلال القرن الأول الهجري، شرع قادة الفتح وولاة الأمر في بث أحكام الإسلام ونشر قيم الدين في المجتمع، وكان القرآن الكريم هو المادة الأساسية التي ارتكز عليها التعليم يومئذ، لأن القرآن

هو الروح التي تسري في كيان الأفراد والجماعات، فيرسخ الإيمان، وتمتن أواصر العقيدة، ويربط المسلم بالرسالة الخالدة، لأن تعليم القرآن أولوية عند المسلم، و حفظ ما تيسر منه واجب شرعي حتى يسهل عليه إقامة الصلاة. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ومن هذا المنطلق انتشر التعليم في البلاد، وكان متوازيا مع تعليم السكان أحكام الدين، وفق عدة مظاهر ووسائل :

1) إرسال العلماء والفقهاء لتعليم أحكام الدين وتحفيظ القرآن الكريم، وقد ثبت تاريخيا أن عقبة بن نافع ﷺ (49. 62 هـ)، خصص رجالا من أصحابه . ومنهم شاكر وغيره . لتعليم القرآن، وفعل مثله موسى بن نصير(86 ـ 95 هـ) فقد ترك عند بربر طنجة سبعة عشر، وقيل سبعة وعشرون رجلا، أو الفا من العرب لتعليمهم القرآن والفقه في الدين.[1] وإن صاحب الفضل الكبير على سكان المغرب العربي هو عمر بن عبد العزيز، حينما أرسل إسماعيل بن عبد الله (99 .101 هـ) واليا على المغرب، وأرسل معه عشرة من التابعين كانت مهمتهم تعليم القرآن ونشر مبادئ الدين[2].

2) بناء المساجد التي كانت أهم المراكز العلمية في البلاد الإسلامية، وتم في رحابها تحفيظ القرآن وتعليم أحكام الدين. وأولها مسجد عقبة بالقيروان، ومسجدي تلمسان وأغمات التي أسست من طرف موسى بن نصير، وأسس إسماعيل بن عبد الله والفقهاء المرافقون له المساجد التالية: مسجد الرباطي، وجامع الزيتونة [3].

وكانت تلك المساجد هي الكتاتيب القرآنية التي قامت في وقت مبكر، فقد ذكر الدباغ في معالم الإيمان عن غياث بن شبيب قال: « كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه» [4]، وقد دخل سفيان بن وهب إلى افريقية سنة 78هـ، مما يجعل تاريخ انتشار التعليم القرآني قبل هذا التاريخ مع رسوخه عند أهل البلاد.

وتتشابه وسائل وطرق التعليم القرآني عبر كامل أنحاء الجزائر، ولكن إشكالية البحث تفرض تتبع المناهج التي سلكها القدامى، وكان لها تأثيرها الفعال في نشر القرآن على أوسع نطاق، بينما كان الانتشار محدودا في

العصور المتأخرة رغم تطور المناهج العلمية وتوفر الإمكانيات المادية والبشرية، ويخضع ذلك لظروف متعددة.

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم ارتبط تاريخيا بأحوال البشر أثناء نزوله، وبقي مرتبطا بسلوك الناس في مختلف العصور الإسلامية، وصار لكل بلد أو مجتمع كيفية خاصة في التعامل مع الكتاب الكريم، حفظا (تعلما) أو تلاوة (تعبدا)، أو من خلال ارتباطه بالعبادة (الصلاة)، أو عادات الناس وتقاليدهم وسلوكهم اليومي. ويمثل التعليم القرآني في مجتمع وادي سوف نموذجا للدراسة منذ القرن 17 الهجري، وهو جانب مهم من التاريخ العام للقرآن الكريم عبر العصور القديمة والحديثة.

أولا: أهمية التعليم القرآني في مجتمع وادي سوف:

بدأ الاهتمام بالتعليم القرآني في مجتمع وادي سوف منذ دخول الإسلام إلى المنطقة، إذ كانت الرغبة شديدة في الحفظ، لأن المكسب هو إرضاء الله والتقرب إليه بالآيات الكريمة. ويمكن تتبع سير العملية تاريخيا منذ القرن 17 م كما يلي:

1) التعليم القرآني التلقيني: ويقوم به رجال التصوف، ويدعى أحدهم بالولي أو (المرابط)، مثل الشيخ العارف بالله " أحمد بن عبد الله اللجي" الذي عاش في القرن 17م، والشيخ عباس الغريب بقرية" جلهمة" قرب تاغزوت، وكان يعلم القرآن للكبار في منزلهم وهو على شكل زريبة ويدعى " العريش "[5].

2) مساهمة الدعاة من خارج سوف. وخصوصا بلاد الجريد التونسية. في دفع عجلة التعليم، مثلما فعل الشيخ " سيدي المسعود الشابي" وابنه "علي الشابي" وغيرهم من الدعاة فيما بعد. فضلا عن إرسال الطلبة إلى بلاد الجريد (توزر ونفطة) على شكل بعثات لإتقان الحفظ في زاوية " سيدي المولدي بوعرقية" بتوزر[6]، أو مسجد " الفركوس" قبل التوجه للدراسة بجامع الزيتونة المعمور.

3) بناء المساجد في القرى النائية مباشرة بعد استقرار الفلاحين بالقرب من الغواطين (أي مزارع النخيل)، وأول مؤسسة يفكرون في تأسيسها هي المسجد الذي يتعلم فيه الصغار، ويتعبد فيه الكبار.

4) تأسيس المدارس القرآنية التابعة للعائلات والعروش، وازدهرت في أواخر القرن 19م وخلال القرن 20م في مدينة الوادي وضواحيها. مثل مدرسة القروي بحي لعشاش 1890 [7]، ومدرسة سعدودي بحي المصاعبة في حدود 1901[8]، ومدرسة أجبيرات 1904 بحي لعشاش. وحتى المدارس التي كان محورها الإصلاح مثل مدرسة أولاد أحمد بالوادي 1920 [9]، أو مدرسة النجاح بقمار في أواخر الثلاثينيات، وكان العنوان البارز والشعار الظاهر هو تعليم القرآن، لأن الاستعمار يريده أن يُدَرَّس مجردا عن التفسير والشرح حتى لا يساهم في بث الوعي في نفوس الناشئة، وعندما يحس بذلك الوعي يضيق على المعلم أو يوقف نشاط المدرسة مثلما حدث للمعلم " الشيخ العربي صالحي" في سيدي عون، والذي غادر المنطقة نحو تونس.

5) الاهتمام منذ الاستقلال بالتعليم في المدارس القرآنية التابعة للمساجد، ولكن أثرها كان محدودا مقارنة بالعهود القديمة، مما دفع بعض الغيورين إلى التطوع في المساجد، وأثمر ذلك نبتا حسنا، والذي توج مؤخرا بتأسيس مدارس حرة صار لها الأثر الفعال في تخريج الحفاظ بإتقان كبير.

ولا يوجد طفل في المجتمع . قديما . يتخلف عن القرآن، لأن في تعلمه شرف كبير للعائلة التي يكون فيها " طالبا " أي حافظا للقرآن ،ويحصل لهم الشرف في ليالي رمضان المبارك عندما يقدم ابنهم لصلاة التراويح ، وهذه الرغبة جعلت العادات والتقاليد تتفاعل مع حياة الصبي، فنجدهم يتفاءلون بمولده وخاصة الذكر فيدْعُونَ لبعضهم قائلين: « **الله يَجَعْلَهْ من حفاظين القرآن** »، وعندما يختن الصبي يحتفظ " بالقلفة " فتدفن في زاوية برحاب المسجد تفاؤلا بالقرآن حتى ينشأ الطفل بالمسجد ويتربى على مائدة القرآن. بل يستمر الاهتمام بعد وفاة الصبي، فيحمل أهله " **لفتوح**" ويدخلوه إلى " **الجامع** "، وفي اعتقادهم أن الصبي يتعلم عند الخليل إبراهيم عليه السلام، ولهذا الاعتقاد سنده الشرعي، مثلما ورد في الآثار مما خرجه **البخاري** من حديث الرؤيا عن سمرة وفيه: أن النبي ﷺ رأى في الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس. وقال القرطبي في التفسير: " ألا ترى أن إبراهيم تفسيره أب راحم؛ لرحمته بالأطفال؛ ولذلك جُعل هو وسارة زوجته كافلين لأطفال المؤمنين يموتون صغارا إلى يوم القيامة .

ثانيا: وضعية المعلم والتلميذ في المدرسة القرآنية القديمة (الجامع):

1) **المعلم:** أو مؤدب الصبيان ويدعى " الطالب " لأنه يطلب الأجر من الله ويطلب العلم ثم يصير معلمًا، أو يسمى" **نعم سيدي** " وهي كلمة نشأت بسبب احترام الصبيان للمعلم فيقولون عندما يأمرهم بشيء (نعم سيدي)، ولما تَكَرَّرَ الاستعمال تطور اللفظ إلى مصطلح ينعت به المعلم من جميع الناس، صغارا وكبارا؛ وفي أغلب الأحيان يكون الطالب رجلا متطوعا أو شبه متطوع، يختاره أهل الجهة لصلاحه وحفظه الجيد للقرآن الكريم، فيتولى شؤون المسجد فيصلي بالجماعة إماما، ويعلم الصبيان القرآن، ويعمل في بقية وقته بالفلاحة أو التجارة، وإذا كان الطالب متفرغا للتعليم يكون مورد رزقه ما يحمله إليه الأطفال أو آباؤهم من هدايا ومساعدات عند مناسبات كثيرة ربطت بالتعليم ومراحله وهي:

- **الفتوح:** وهو شيء من التمر أو الطعام الذي يحمل إلى الكُتّاب في أول دخول الصبي، وكلما تحصل على شيء من القرآن الكريم يأتي "**بالختمة** " وهي من الطعام غالبا وتقدم عند بلوغ الطفل لبعض السور المتعارف عليها وهي سورة الإخلاص، والبينة، والأعلى، والنبأ، وسورة الجن، والملك، والجمعة، والمجادلة، والرحمان، والفتح، ويس، والسجدة، والفرقان، ومريم، ويوسف، والأعراف، والبقرة.

- **الحضور:** كما يحمل الأطفال لمعلمهم كل يوم ثلاثاء بعض الأعواد من الحطب " الحضور " أثناء الشتاء من اجل تجفيف الألواح بعد محوها، أو تدفئة مكان الحفظ، أو يحملها المعلم إلى بيته.

- **لربعية:** وهي مقدار من المال يدفعه الطفل المتعلم كل يوم أربعاء ويدعى " الاربعية " ويختلف مقدارها حسب المستوى الاجتماعي، ويتغير المقدار مع ارتفاع المستوى المعيشي.

- **لعبار واللحمة:** وهو شيء من القمح واللحم يقدمها الأولياء للطالب في المواسم والأعياد الدينية، في عيد رجب أو شعبان أو القدري أو عاشوراء أو المولد النبوي الشريف.

- **هدايا العيد:** وهي تقدم في العيد الصغير" عيد الفطر " فيمنح المعلم بعض الألبسة، ويضاف إليها في العيد الكبير" عيد الأضحى " مجموعة من

الكسوة وقندورة وشاش[10] وكبش العيد (لأن الإمام هو قدوتهم في الصلاة وفي ذبح الأضحية) .

ـ **هدايا الخريف:** وفي فصل الخريف يقدم الصبيان لمعلمهم شيئا من التمر بعد قطع الغلة، وهذا يخص العائلات الميسورة فقط.

ـ **أجرة المعلم**: وهي أجرة شهرية من المال تخصص من الأسر الميسورة الحال لمعلم أطفالهم، أو هي أجرة صارت معتمدة من طرف جماعة المسجد، تجمع كل شهر وتقدم للمعلم وخصوصا في النصف الثاني من القرن العشرين.

والمعلم ذو مكانة في المجتمع عند تلاميذه، فلا يستطيع أحدهم أن ينظر في وجهه هيبة منه واحتراما للقرآن الذي يحمله في صدره، وعندما يراه أحدهم في الشارع مقبلا يتحاشى مقابلته من شدة الحياء والخوف والمهابة التي أعطيت له من المجتمع، وإذا تهاون التلميذ في حفظ لوحه أو صدر منه تصرف سيء، يكون جزاؤه الجلد " بالفلاقة "على رجليه، وهذا جعل الأطفال يخافون منه أكثر من آبائهم.

2) **التلميذ:** أقبل أهل سوف على تعليم أبنائهم القرآن الكريم بشغف ولهفة، ومحبة وحرقة، فإذا ظهرت علامات الإدراك، وملامح الاستعداد عند الصبي يدخله والده إلى" كتاب الحي" أو " المدرسة القرآنية" في الجامع القريب أو الزاوية التي تنتمي إليها العائلة، ويرى بعض الناس أن أفضل مرحلة من العمر للدخول هي عند بلوغه سن 5 سنوات، و5 أشهر، و5 أيام. ويستغرق في المدرسة مدة تتراوح ما بين 5 إلى 8 سنوات يتمكن خلالها من حفظ القرآن حفظا جيدا، وهذا جعل أعداد الحفاظ مرتفعا في تلك الأيام، وهذا ما أكده الشيخ حمزة بوكوشة بقوله: " ... والكلمة هي كيف كنا نتعلم القراءة والكتابة ونحفظ القرآن ونتعلم العلم حتى لا تكاد تجد بسوف أميا لأن التعليم منتشر فيها انتشارا غريبا بفضل المؤدبين وبعض الزوايا ."[11] كما عبرت على ذلك الكاتبة الفرنسية "سيللي ميللي " بقولها:"...وليس غريبا أن نجد واحدا من عشرة يحفظ القرآن كله بينما في باقي إفريقيا الشمالية فإن هذه المعرفة خاصة بالطلبة وبعض الخواص بنسبة 1000/1 ..."[12]

وكل طفل ينتمي لهذه المدرسة لابد له من أدوات يستعملها في تعلمه وهي:

- **اللوح**: ويكون من الخشب [13] وأحسنه الذي يتخذ من شجر الزيتون المستورد من تونس، وهو أهم الأدوات لأن الكتابة والقراءة تتم في سطحه الأملس الذي يرافق التلميذ خلال فترة الدراسة بأكملها.

- **الطين**: وهو المادة التي يُمْحَى بها حِبْرُ اللوح(الصمغ) بعد حفظ ما فيه من القرآن، ويصير فارغا من الكتابة بعد جفافه ليكتب فيه الجزء الموالي من القرآن.

- **الدواة والقلم**: وهي محبرة من مادة سوداء اللون تدعى " الصمغ " الذي يستورد ويحرق ويوضع في دواة ومعه شيء من الصوف والماء حتى يصير حبرا صالحا للكتابة. ويكتب اللوح بواسطة قلم من القصب [14] الذي يسن من طرف التلميذ إذا كان مدركا أو يساعده في ذلك أحد الكبار.

- **المصحف**: وهو نسخة من القرآن الكريم، يراجع فيها التلميذ ما حفظه، وكانت مخطوطة في القديم، ولما ازدهرت حركة الطباعة في الأزمنة المتأخرة صارت النسخ المطبوعة في متناول الجميع.

- **المخلاة**: وهي محفظة صغيرة من الصوف أو الكتان، يضع فيها التلميذ الأدوات السابقة الذكر، وكلما حافظ عليها الأطفال دل ذلك على اهتمامهم بالحفظ وانضباطهم في دراستهم. بينما يُعيَّر المتهاون بقولهم في المثل المتداول في هذا المضمار: " لا قلم ولا دوايه ولاو امعمل عالقرايه."

ولا يوجد في هذه المؤسسات التقليدية أي أثاث أو تجهيزات، وإنما الجميع يجلس على الرمل أو فوق فراش بسيط (حصير) محدود الانتشار أثناء فصل الشتاء.

ثالثا: أعمال ومواقيت الدراسة اليومية في العهد القديم:

تفتح المدرسة القرآنية أبوابها مبكرا، وتستقبل طلبتها مع طلوع الفجر، فيكون القرآن هو فطور الصباح، وتم اختيار هذا الوقت لبركته، وتيمنا بالقرآن الكريم، الذي جعل له الفضل الكبير في الوقت: ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: 78]. وقول النبي ﷺ « اللهم بارك لأمتي في بكورها » [رواه أبو داود].

وكان بعض التلاميذ يشربون ما يتقاطر من ماء ممزوج بالصمغ والطين بعد محي الألواح، وهم يتوسمون في ذلك بركة الحفظ، أو يمص أحدهم القلم بعد كتابة لوحه حتى يكسب التوفيق في حفظ الآيات الكريمة، بل كان بعض المعلمين ينصح التلاميذ بأن يكون أول كلامهم عند استيقاظهم من النوم، أن يردد ثلاث مرات النشيد التالي ليكون الله في عونه:

كلام قديم لا يُملُّ سماعه ❖ تنزهوا عن قولي وفعلي ونيتي
به أشتفي من كل داء ونوره ❖ دليل للقلب عن جهلي وحيرتي
فيا رب متعني بسر حروفه ❖ ونَوِّر به قلبي وسمعي ومقلتي
وسهل علي حفظه ثم درسه ❖ بجاه النبي والآل ثم الصحابة
عليه صلاة الله ما هبت الصبا ❖ وعن آله الأخيار أزكى تحيتي
صلاتك ربي والسلام على النبي ❖ صلاة لها ريح من المسك أطيب

وأول عمل يبدأ به الطلبة هو كتابة ألواحهم، وبعد تصحيحها من طرف المعلم يشرعون في قراءتها وتلاوتها عشرات المرات بأصوات مسموعة تشكل سنفونية عذبة الألحان، تحول الجامع إلى أصوات تشبه دوي النحل، فتحل البركات وتتنزل الملائكة بالرحمات والخيرات، ويستمر الحفظ في الفترة الصباحية إلى منتصف الضحى (حوالي الساعة العاشرة) وبعد أخذ قسط من الراحة في البيوت، يعودون في وقت الظهيرة لتبدأ الفترة المسائية وتستمر في مرحلتها الأولى إلى وقت صلاة العصر، وتستأنف بعدها إلى وقت اصفرار الشمس، ثم يتم استعراض الألواح، وبعد حفظها تمحى . الألواح . لتكون جاهزة في اليوم الموالي، بينما يؤجل إلى الصباح كل تلميذ عجز عن استعراض نصيبه حتى يحفظ الآيات في اليوم الثاني، لكن تنالُه العقوبة في حال تهاونه.

وهم يدرسون يوميا ما عدا مساء الأربعاء ويوم الخميس بأكمله وصباح الجمعة، وفي مسائه يستأنفون الدراسة[15] أما العطل فلا تكون إلا أيام الأعياد[16]. وخاصة في عيدي الفطر والأضحى، الذي يحتفل فيهما طلبة القرآن برسم " **خط العيد** " وزخرفته بأشكال فنية وتلوينه،[17] بحجارة تلتقط من الأرض تسمى "المغرة" وهي حمراء مشوبة بصفرة، فتحرق وتخلط مع الخل ويزين بها الأطفال ألواحهم.[18] وحينئذ يقول الأطفال مرددين " **خط العيد**

يا جديد يا حنان يا منان الله يفتح علينا القرآن "، وفي أيام ختم العيد وهي 12 يوما قبل العيد، وستة أيام بعده يرفع اللوح فلا يكتب فيه أي شيء، وتخصص تلك الأيام للتكرار فقط.[19]

رابعا: مناهج وطرق التعليم القرآني (العهد القديم):

يخضع التعليم في المساجد والزوايا والمدارس القرآنية في المجتمع السوفي إلى الطرق والمناهج التقليدية، التي تعتمد أسلوب التلقين، والتكرار، والتدرج مع التلاميذ من البسيط إلى المعقد، ومن السهل إلى الصعب، ومن المجمل إلى المركب، مع مراعاة قدرات التلميذ، دون الاهتمام بفهم المعاني، لأن المقصود هو الحفظ فقط.

ولكن ضمن هذه المناهج تبرز الطرق التربوية الحديثة التي تعتمد على التمثيل بالشكل والصورة مع ضرب الأمثلة انطلاقا من البيئة والوسط الذي يعيشه التلميذ الصغير، والتدريب على إتقان الخط والكتابة، والتمرس في فقه الرسم القرآني بكل حيثياته، ويقسم الطلبة إلى مستويين هما:

ـ **المستوى الأدنى**: ويضم التلاميذ في المرحلة الأولى ويتم تلقينهم" الحروف" العربية ، ويشرف عليهم المعلم بنفسه أو يختار لهم عريفا (مساعدا) من تلاميذه النجباء، ويتدرج بهم بتأني كبير، وصبر طويل كما يلي:

1) تحفيظهم الأحرف الهجائية: وتدعى (أليف) نسبة إلى أول حرف (الألف)، فيحفظوها حرفا حرفا، مع احترام الترتيب ، وحتى يتمكن هؤلاء الصغار من التمييز بين هذه الحروف، يربطها لهم المعلم بصور وأشكال توافق الوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه، وهي طريقة تشبه الصور التي توضع في الكتب المدرسية العصرية، فيشبِّه لهم حرف الألف بالعصا، والباء بالسن الصغيرة، والدال التي تكتب بطريقة ملتوية إلى أعلى وأسفل بالجناحين، والهاء التي بها حلقتين يشبهها لهم بالبطنين، فيقول هكذا " أليف عصا . با اسنينه . تا اسنينه . جيم امعرق . دلْ بوجنحين . ها بوكرشين ...الخ "

2) لفت الانتباه إلى تنقيط الحروف: وبعد التعرف على شكل الحرف يلفت انتباههم إلى النقط التي توجد فوق الحرف أو أسفل منه، أو الإشارة إلى انعدام النقط تماما وتسمى هذه المرحلة باسم " أليف لا شي عليها" فيقولون:

" ألبف لاشي أعليها، والبا واحده ماسْفل (أي نقطة واحدة من أسفل) والتا اثنين من فوق، والحا لاشي عليها ... وهكذا حتى يصل إلى آخرها .. فيقول واليا اثنين ماسفل والهمزه فوق السطر وبالله التوفيق العزيز الرفيق.."

3) تعليم الحركات على الحروف: على أربعة مراحل:

أولها الفتحة وتسمى " النصبة " وتدعى " آنصب" فيقولون: " آنصب، بانصب ،تانصب ، جانصب ..."

وثانيها الضمة وتسمى "الرفعة " وتدعى أورفع، فيقولون: " أُورفع، بُورفع، تُورفع، جُورفع...."

وثالثها هي الكسرة وتسمى " الخفضة " وتدعى إِ خفض ، فيقولون: "إِخفض، بِيخفض، تِيخفض، كِيضفض..."

ورابعها هي السكون وتسمى " الوقفة " وتدعى " آْ قفْ " ،فيقولون: " آَقف، أَبقف، أَتقف،أَدقف..."

وخامسها : تجمع كلها مرة واحدة ويقرا كل حرف بالحركات الأربع، فيقولون: " أليف بالنصب أَ ،بالرفعه أُ بالخفضة إِ، بالوقفة أْ...." و " العين بالنصبه عَ، بالرفعه عُ، بالخفضه عِ، بالوقفه عْ. "

وبعد تعلم الصبي الأحرف الهجائية يربطها له بعض المعلمين بنماذج من الحكم أو الأحاديث النبوية الشريفة أو الأحكام الشرعية والتي تختار وفق الحرف الهجائي الأول، مثلما فعل الطالب " الشيخ علي بالَمْ القماري" في الثلاثينيات في مسجد بيت الشريعة، فقال لهم مثلا :

حرف أليف: **التقى رأس كل حكمة**.(وهي إحدى الحكم، ويوجد حرف الألف في بداية كلمة التقى) .

حرف الخاء: **خياركم من تعلم القرآن وعلمه**. (وهو حديث شريف رواه **البخاري** عن عثمان بن عفان رضي الله عنه).

حرف الزي: زُرْ غبا تزدد حبا.(وهو مثل عربي قديم، وفيه حكمة تربوية جليلة) .

حرف الطاد: **طلب العلم واجب على كل مكلف**.(وهو حكم تعلم الضروري من أحكام الدين) .

حرف اللام أليف: **لعن الله اليهود والنصارى**.(وهو إبراز مسألة الولاء والبراء وخاصة في وقت الاستعمار)

وكان المعلم يؤكد على حفظ تلك المعاني ومن يتهاون يجلد بالعصا.[20]

وبعد إتقان الأحرف الأبجدية، يبدأ في تعليمه **سورة الفاتحة**، وما يليها من قصار السور حتى يتعود على القراءة ويتدرب على الكتابة، وحينئذ ينتقل إلى المستوى الأعلى .

. **المستوى الأعلى**: وهو يضم التلاميذ الكبار عموما، والذين يتجمعون في الصباح الباكر على شكل حلقة يتصدرها المعلم في هيبته ووقاره، ويسود الطلبة الحياء الجم والطاعة المطلقة، والاستعداد الكبير لتلقي الأوامر وتنفيذها بدون مناقشة أو تردد، وكلهم يمتثل للأمر ولسان نفسه يردد " **نعم سيدي** " .

ويبدأ الشيخ في الإملاء على الجميع من اليمين بالتدرج والترتيب . رغم اختلاف مستويات السور . فيكتفي التلميذ فقط بذكر رأس اللوح(وهو بداية الآية التي ختم بها اللوح السابق واصطلح عليها لتكون بداية للوح الجديد).

فيقول الأول مثلا، نعم سيدي ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ... ﴾ فيملي عليه المعلم الشطر الموالي ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [سورة الزمر:74] .

ويقول الثاني: نعم سيدي ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... ﴾ فيكمل له المعلم قائلا : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [سورة النور: 35].

ويقول الثالث: نعم سيدي ﴿ ... حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ... ﴾ فيقول المعلم ﴿ ..أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ ﴾ [سورة البقرة:214].

وهكذا يستمر المعلم في تلقين وإملاء الآيات، ويظهر ذلك في تناسق عجيب، وروح صادقة، وتفاني كبير. وعند الإتمام يقرأ كل واحد اللوح على المعلم فيصحح له أخطاء النطق، وأخطاء الكتابة، ثم تبدأ عملية الحفظ صباحا ومساء، كل تلميذ يقرأ بشكل مسموع ، فيشكلون دويا يشبه دوي النحل يُسمع من مسافات بعيدة. أما عملية الاستظهار أمام المعلم فتتم في المساء، وكل طالب حفظ اللوح يسمح له قبل الخروج (بمحيهِ)، حتى يكون جاهزا لليوم الموالي.

وعند تقدم التلميذ في الحفظ ، يعلمه بعض أحكام المتشابهات من المنظومات المشهورة، وهي كتب مخطوطة منها: الدنفاسي والمصباح والمحمولي .

. طرق المراجعة:

وتتعدد طرق المراجعة في هذه المرحلة التاريخية، وقد تنوعت ومنها:

* المراجعة الفردية: ويقوم بها كل طفل في البيت أو الجامع.
* المراجعة على مسمع المعلم: ويدعى التكرار، وهو نوع من الاستظهار، يقوم به التلميذ مع معلمه وخاصة عندما يعين للصلاة بالجماعة، صلاة التراويح.
* المراجعة الجماعية: وتكون تحت إشراف المعلم في وقت مبكر، أو ما بين المغرب والعشاء.
* الحزب الراتب : و يتم في المساجد ويختم القرآن تكرارا خلال الشهر القمري.

ويعود انتشار القرآن الكريم حفظا واتقانا في وادي سوف خلال هذا العهد إلى عدة عوامل أهمها:

1. المكانة التي يتمتع بها معلم القرآن وهيبته في المجتمع وتقديره واحترامه من طرف الجميع، وخاصة الأولياء.

2. حرص الأولياء الشديد واعتزازهم بحفظ ابنهم للقرآن الكريم فيكون محل افتخار العائلة في شهر رمضان عندما يصلي بالناس صلاة التراويح، ولذلك يتعاون الأب مع المؤدب، ويسأل عن ابنه ولو كان غائبا خارج المنطقة، في أي جزء من القرآن هي سورته.[21]

وعندما يحفظ الطفل القرآن الكريم عن ظهر قلب تقام له وليمة يدعى إليها أصدقاؤه في الكُتّاب، كما يتجول به فوق بغل في أرجاء القرية.[22]

3. إن حفظ القرآن الكريم يجعل الطفل يتعلم القراءة والكتابة، ويوفر له فرصة لمواصلة الدراسة خارج المنطقة، فيرحل إلى جامع الزيتونة المعمور لمواصلة التعليم الثانوي أو العالي.[23]

خامسا: مناهج وطرق التعليم القرآني (المعاصرة):

حدث تطور في حياة المجتمع بعد الاستقلال أثَّر على مختلف النواحي التعليمية، ومنها " التعليم القرآني" الذي خضع لعدة متغيرات على مستوى فئة الطلبة أو الوسائل أو الطرق المتبعة في عملية الحفظ.

أ) خصائص التعليم القرآني المعاصر بوادي سوف:

1) دخول وسائل تعليمية حديثة في الآونة الأخيرة وتمثلت في السبورة والمصحف، تعويضا للوح الخشبي.

2) تكفل بعض الجمعيات بتعليم فئات محددة (مثل فئة الفتيات، والنساء، أو الصبيان والكهول..الخ) حسب برنامج متفق عليه.

3) تحديد عدد الطلبة . خاصة في المدارس الخاصة . والتركيز على النوعية، واصطفاء المتعلمين من بين النجباء الذين لهم قابلية الحفظ، ويتمتعون بإمكانيات عقلية تساعد على التحصيل.

4) الحرص الشديد على متابعة الطلبة ومحاسبتهم على الأجزاء التي تم حفظها، والسهر على توفر الانضباط، واحترام النظام المتفق عليه مسبقا.

5) تحديد مدة زمنية مضبوطة. وخصوصا عند الجمعيات. لحفظ كل القران الكريم، ولا تتجاوز المدة 24 شهراً.

6) توحيد المقدار المخصص للحفظ يوميا (ويتراوح ما بين خروبة وربع حزب)، إضافة إلى توحيد الحفظ في مجوعة متكاملة وقراءة جماعية (بنظام الحلقات أو الصفوف أمام السبورة).

7) الاهتمام الشديد بأحكام ترتيل القرآن، وتوحيد القراءة، واغلبها قراءة ورش عن نافع، مع إجراء دورات في أحكام التجويد في المساجد والجمعيات وخصوصا أثناء العطل.

8) البدء في التحفيظ مباشرة من سورة الفاتحة، مع اختيار التسلسل الذي يتم الاتفاق عليه بالترتيب في المدارس المتخصصة، وحسب الأجزاء في الجماعات الأخرى بالمساجد أو الجمعيات.

9) التخلص من تعليم الأطفال الأبجدية لأن المدرسة الحديثة تكفلت بذلك، ولكن يتم التأكيد على الرسم القرآني الذي يختلف عن الكتابة التعليمية.

10) وتتغير أوقات الدراسة بين الفئات المتعلمة وحسب الظروف الاجتماعية، فالطلبة الذين تفرغوا للحفظ يكون وقتهم طول النهار، بينما يخصص في المساجد بين صلاتي المغرب والعشاء، وعند فئة النساء يتم التفاهم على أوقات أغلبها في المساء.

ب) فئات المتعلمين للقرآن الكريم:

كان التعليم القرآني في العصور السابقة منحصرا في فئة الأطفال (ذكورا)، مع حرمان الفتاة، والمسارعة بتزويجها في وقت مبكر، أو تشغيلها في البيت، فليس لها وقت للتعلم، ولكن تطور الظروف الاجتماعية، وارتفاع المستوى الثقافي أحدث تحولا بارزا، فتعددت الفئات المتعلمة للقرآن الكريم ومنها:

- **فئة الأطفال:** وتضم الفتيان والفتيات منذ السادسة من العمر، ويتم استقبالهم في المساجد والمدارس القرآنية بشكل محدود خلال السنة الدراسية، بينما تستوعبهم جميعا تلك المدارس في العطلة الصيفية بدون استثناء.
- **فئة الشباب:** وهم أصناف، منهم الشباب الذي يتطوع من نفسه لحفظ أجزاء من القرآن، وبعض المتفرغين للحفظ في المدارس القرآنية يكون لهم وقت محدد، وغالبا يدوم سنتين، يتخرج فيها الطالب، أو الطالبة، بحفظ القرآن الكريم بأحكامه، حفظا جيدا، وتقدم له الإجازة من الشيخ الحافظ، التي تمكنه من ممارسة التحفيظ لغيره.
- **فئة الكهول:** يقبل بعض كبار السن من الرجال والنساء على حفظ القرآن على يد المعلم، أو المعلمة، بعدد أقل من الشباب، وقد تخرج من هذه الفئة بعض الحفاظ ،الذين ساهموا في تعليمه لغيرهم، ونشر أحكامه.

ج) طرق حفظ القرآن الحديثة بمجتمع وادي سوف:

- **طريقة الحفظ بواسطة السبورة:**

وهي طريقة يغلب عليها الفعل الجماعي، وتتم بكتابة جزء من القرآن. لا يقل عن خروبة [24] ولا يتجاوز الثمن . وتكون الآيات مشكلة، مع استعمال الألوان في بعض الأحيان والتي تساعد على إبراز أحكام الترتيل.

ويبدأ المعلم بقراءة آية واحدة ويطلب من أحد الطلبة أن يستخرج أحكام الترتيل من تلك الآية، ثم يأمره بقراءتها وأثناء ذلك تصوب الأخطاء،

ويختار طالب آخر، وهكذا دواليك مع بقية الآيات المكتوبة، ثم تدمج مع بعضها في القراءة التي تكون بطريقة جماعية، وبعدد كبير يتجاوز مئة مرة . أي زربة . وتحسب المرات بالسبحة .

وتستعمل في بعض الأحيان . عند التأكد من رسوخ الحفظ . عملية محو الآيات بالترتيب، حتى تصير السبورة فارغة تماما، وحينئذ يستمر الطلبة في القراءة من الذاكرة . ومن ايجابيات هذه الطريقة الروح الجماعية التي تجعل الطالب يتشجع برفاقه، ويتجنب الشرود الذهني، ولكن السلبية الظاهرة هي عدم التحكم في اللحن الذي يقع فيه بعض الأفراد لصعوبة مراقبة كل واحد على انفراد.

❖ **طريقة الحفظ باستعمال المصحف الشريف:**

وهي طريقة يستعمل فيها المصحف العادي في أغلب الأحيان، ومؤخرا بدأ العمل بالمصحف المرتل، وتفتتح القراءة من طرف المعلم الذي يساعد الطلبة على استخراج المواضع التي بها الأحكام الخاصة، وبعد قراءة نموذجية من طرفه يوزع التمارين على عينات من طلبته، ويتم التطبيق فورا وبمسمع الجميع، ويتدخل لتصحيح الأخطاء والتنبيه إلى مخارج الحروف، وتصويب النطق . وبعد الانتهاء من التنبيهات يشرع الطلبة في القراءة الجماعية للجزء المخصص، ويستغرق ذلك كل المدة المخصصة للحفظ، ومن إيجابيات هذه الطريقة التأكد من صحة الآيات وضبطها في المصحف، والتعود على مواضعها في المستقبل عند المراجعة المستمرة، ولكن الظاهرة السلبية . وخصوصا عند الفئات الكبيرة . قلة الوقت المخصص لحصة الحفظ مما يجعل الاستظهار يتخلف لوقت آخر، ولكن الطالب تكون له فرصة ثانية لتثبيت حفظه وإتقانه.

د) نظام المراجعة والتثبيت:

يحتاج الطالب إلى أوقات عديدة للمراجعة والتكرار حتى يحافظ على الجزء الذي تم حفظه، لأن القرآن من خصائصه سهولة الحفظ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:17]؛ ولكنه ينساه إذا لم يتعهد الآيات بالمذاكرة المستمرة، لقول النبي ﷺ: « تعاهدوا هذا القرآن، فو الذي نفس محمد بيده لهُوَ أشد تفلتا من الإبل في عُقُلِهَا » [متفق عليه] . وحرصا على التعهد وضعت عدة

طرق للمراجعة، وفق نظام المدرسة بما يتلاءم مع ظروف الطلبة، وأهم الطرق المشهورة في المنطقة:

- **نظام المراجعة الجماعية**: وتتم في المدرسة تحت إشراف المعلم، فيقسم الطلبة إلى حلقات، تجمع كل حلقة عددا محدودا، ويتولى تسيير العملية أبرز الطلبة حفظا، ويستعين الطلبة بالمصحف والقراءة من الذاكرة، ويكون دور المعلم مراقبة الجميع.
- **نظام المراجعة الفردية**: وتكون في أغلب الأحيان خارج أوقات التعليم، في البيت أو المسجد، بمبادرة من الطالب،أو بإشارة من المعلم الذي يكلف الطالب بتمرين معين، ويتم استعرض ذلك في حصة خاصة بالمراجعة.
- **نظام المراجعة مع المعلم**: وتتم بين الطالب والمعلم باستعراض الجزء المحضر سلفا، ومن ايجابيات هذه الطريقة التأكد من درجة الحفظ، والتنبيه إلى الأخطاء، وتصحيح القراءة وتثبيتها.
- **نظام المراجعة بالتزام الحزب الراتب**: ويكون بعد حفظ القرآن، فيتحتم على بعض الحفاظ الالتزام بجماعة الحزب الراتب في المسجد لأنها تساعده على المراجعة المنظمة الدائمة .[25]

الخاتمة:

إن الدراسة التاريخية للمناهج المختلفة للتعليم القرآني بين عصرين متباعدين تكشف عن عدة حقائق، تجسد آثار التطور في العملية التعليمية، ومن تلك الحقائق الملفتة للنظر:

- تفاني المجتمع في القديم من مختلف فئاته في تعليم أبنائهم القرآن في الدرجة الأولى، ويتم يتعاون المعلم والولي، مع حمل التلميذ على التعلم وأخذه بالشدة، ومتابعته المستمرة بدون انقطاع في مختلف المواسم.
- كثرة الحفاظ للقرآن الكريم قديما بسبب الحرص الشديد من المجتمع. كما سبق الذكر. مما جعل أغلب الأفراد يحفظون القرآن أو أجزاء عديدة، وقلما يتخلف أحد من الذكور على ذلك.
- ارتباط التعليم في العصر الحديث بالمواسم كالعطل، والانقطاع عن تعليمة في بقية الأوقات، بسبب منافسة المدارس الرسمية، ووجود المغريات المختلفة، وتعقد الحياة.

• تفرغ طلبة المدارس الخاصة منذ فترة التسعينات من القرن الماضي، وبداية القرن الحالي، أعادت بعض الاعتبار للتعليم القرآني بشكل ملفت للنظر، وهو يبشر بغد مشرق في المجتمع.

• كان تعليم الفتاة يكاد ينعدم في أغلب الأحيان . في العهد القديم . ولكن التطور الثقافي، وانفتاح المجتمع، وإقبال الفتاة على التعليم الرسمي، رفع الحرج عنها في المدارس القرآنية، فأقبلت على التعلم في المساجد، فضلا عن المدارس القرآنية، وخصوصا بعد تخرجها من الثانوية أو الجامعة، فترى أن القرآن الكريم هو خاتمة حياتها التي تدخل به إلى بيت الزوجية.

وقد أثبتت التجارب القديمة والمناهج التعليمية الحديثة على حد سواء أن التعليم القرآني الناجح، هو الذي يبذل فيه الجهد المتواصل من جميع المهتمين بالقرآن، وهم المعلم والتلميذ والأولياء، ويتعاون المجتمع بأسره، ويصنع المحفزات، ويشجع المعلم، ويوفر كل الظروف والإمكانيات المادية والمعنوية، لأن النتيجة المرجوة لا تقدر بثمن. والعمل التطوعي لا يمكن وحده أن يحقق النتائج الجيدة فلا بد من إردافه بالعمل المنظم الذي يشعر فيه المعلم بالمساعدة والتشجيع من الجميع، وحينئذ يتحقق المطلوب، ويتخرج العدد المعتبر من حفاظ القرآن الكريم.

الهوامش:

(1) عبد الرحمن الجيلالي ـ تاريخ الجزائر العام ـ ديوان المطبوعات الجامعية. ط7. الجزائر. 1994. ج 1. ص140 ، 141.

(2) مبارك بن محمد الميلي ـ تاريخ الجزائر في القديم والحديث ـ تح. محمد الميلي. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.(ب ت). ج2.ص 37 ، 38.

(3) عثمان سعدي ـ عروبة الجزائر عبر التاريخ ـ المؤسسة الوطنية للكتاب. ط2. الجزائر. 1985.ص 84.

(4) الدباغ ـ معالم الإيمان ـ ج1 . ص 120. ط تونس 1330 هـ. نقلا عن الجيلالي، المرجع السابق. ص 141.

(5) محمد العدواني ـ تاريخ العدواني ـ تح أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي.ط1 بيروت. 1996. ص 111 ، 125.

(6) أحمد البختري ـ الجديد في أدب الجريد ـ الشركة التونسية للتوزيع. تونس. 1973. ص 133.

(7) لقاء مع الشيخ محمود القروي بن محمد بالوادي. يوم الجمعة 2000/08/18.

(8) لقاء مع السيد أحمد خراز بالوادي يوم 16/ 8/ 2003.

(9) لقاء مع السيد رشيد حساني بالوادي يوم 8/9/ 2003.

(10) لقاء مع السيد أحمد خراز بالوادي يوم 16/ 8/ 2003.

(11) مراسلة خاصة تلقيتها من الشيخ حمزة بوكوشة بتاريخ 12 جانفي 1994.ص 03.

(12)J. Scelles Millie -Contes Sahariens Du Souf . Maisonneuvre et larose .1964. paris. p 24

(13) Ahmed nadjah- le Souf de Oasis. Edition la maison des livres. Alger 1971. p108.

(14)Andres Voisin-le Souf monographie d'une région saharienne. Paris1985.(manus)p190

(15) لقاء مع المعلم ـ الصادق اقديري بالوادي في 2 جويلية 2000.

(16)Ahmed Nadjah . op . cit p 109

(17) C. Cauvet – Notes sur le Souf et les Souafa.bulletin de la société de géographie d'Alger 1934. p 111.

(18)إبراهيم العوامر ـ الصروف في تاريخ الصحراء وسوف ـ الدار التونسية للنشر.تونس. 1977. ص 43.

(19)لقاء مع المعلم ـ الصادق اقديري بالوادي في 2 جويلية 2000.

(20)لقاء مع السيد علي حني بالوادي يوم الإربعاء 2004/10/20.

(21) رسالة أبي الضياف بن أحمد إلى المغير 4 جمادى الأولى 1315هـ يخبر فيها أن البشير سورته في الحشر.

(22)Andres Voisin-op cit p190

(23) Ahmed Nadjah . op cit p109

(24) الخروبة :هي نصف ثمن من القرآن.

(25) رصد المسيرة التاريخية للتعليم القرآني منذ منتصف الستينات، عندما كنت طالبا متعلما في المدارس القرآنية في مدينة الوادي، وحتى اليوم كباحث متابع لهذا التطور التاريخي.

دور الشيخ العلامة أحمد العبيدي في الجهاد العلمي

بقلم
أ/ عاشوري قمعون
أستاذ مساعد مكلف بالدروس بقسم التاريخ
المركز الجامعي بالوادي . الجزائر .

. ملخص :

عرفت منطقة سوف منذ حداثة نشأتها ، ولاسيما خلال القرنين الماضيين من عصرنا، فقهاء عباقرة اشتهروا بغزارة معارفهم في مجالات الفقه واللغة والتاريخ كتابة وتدريسا، ونذكر بالأخص منهم الشيخ أحمد العبيدي موضوع بحثنا . وقد كرس هذا الأخير حياته العلمية في تكوين الشباب والرفع من المستوى المعرفي لمختلف طبقات الشعب ، مما يستحق منا بكل جدارة، التعريف به.

Résumé :

La région du Souf a connu depuis sa récente existence، et en particulier durant Les deux derniers siècles de notre ère، de brillants théologiens en l'occurrence notre Cheikh Ahmed Obeidi، objet de notre exposé . Ces derniers auraient joué un rôle prépondérant dans la divulgation écrite et orale dans les divers domaines des sciences religieuses، historiques et linguistiques à l´adresse de leurs élèves en particulier et de la population en général. Le but de mon exposé sera donc de faire connaître la vie active de l´un de ces brillants théologiens qu´est le Cheikh Ahmed Obeidi sus–dit.

. مقدمة :

إنه أحد أعلام وادي سوف الذي ساهم حسب طاقته وما توفر له من ظروف، في حركة التربية والتعليم والوعظ والإرشاد، هو الشيخ العلامة، الفقيه، الأصولي، النظار، المجتهد، اللغوي، الحجة، المتصوف، العارف، الأستاذ الإمام أحمد العبيدي شقيق وتلميذ الشيخ الطاهر الذي درس بجامع الزيتونة مع الشيخ عبد الحميد بن باديس، فمن هو الشيخ أحمد هذا ؟ وما مقدار المساهمات التي شارك بها في بناء صرح العلم والتوجيه الديني بمسقط رأسه، وبقرية تقددين بجامعه؟

. مولده ونسبه :

ولد العلامة أحمد العبيدي، أو سيدي بدّه كما يلقبه تلاميذه وأصحابه بالوادي خلال عام 1306هـ/ 1888م بناحية أولاد أحمد بالوادي،[1] وينتمي إلى أسرة فقيرة، حيث كان أبوه صاحب عيال، يمارس حرفة الحدادة للحصول على قوت يومه، ويدعى لعبيدي أو بيدي.[2]

نزح جد العائلة بالقاسم الحداد من أولاد عبد الملك فريق أبي طارفة خلال القرن12هـ/18م. وهم أولاد العبيدي. أصلهم من أولاد سيدي عبيد الساكنين حوالي نفطة، وكان بالقاسم المذكور رجلا تقيا ورعا فآواه يوسف أحد أبناء سيدي مسطور وزوجه بابنته مبروكة فانتسب بذلك للسوافه . وأولدها ثلاثة أبناء وهم علي ونصيب وسعد؛ فمن الأول عماره والعبيدي، ومن الثاني بالقاسم والغالي ومحمد، ومن الأخير علي النقاب، وجاء إلى سوف فاستوطنها مما جعل العائلة تحافظ على نسبها لموطنها الأصلي، بالرغم من أن العائلة عرفت بأولاد الحداد.[3]

تزوج أبوه لعبيدي من امرأة من حي المصاعبه تدعى ضيه بنت مراد فأولدها مجموعة من الأبناء منهم عبد القادر وعلي ومصطفى والشيخان الطاهر وأحمد ثم البشير والعزوزية.[4]

وحسب شجرة النسب التي تحتفظ بها العائلة فإن الشيخ أحمد ينتمي إلى بيت النبوة من نسل أشراف سيدي عبيد؛ فبمقتضى هذه الشجرة فهو أحمد ابن العبيدي بن علي بن بالقاسم بن عماره يصل نسبه إلى علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ .[5]

كان والده يكسب قوت يومه بعرق جبينه مما جعله يحس بصعوبة الحياة، فأبت نفسه إلا أن يعلم أبناءه حتى ييسر لهم سبل العيش وينقذهم من الحالة المزرية التي كان عليها الأهالي وقتئذ،[6] وكان يستعين بأبنائه الكبار مثل عبد القادر وعلي ومصطفى في حرفة الحدادة، ولم يسلم من هذه المهنة الشاقة إلا اثنان من أبنائه هما الشيخان الطاهر وأحمد اللذان نبغا نبوغا فائقا في ميدان الفقه الإسلامي واللغة العربية بمختلف فنونها وألوانها حتى لقب الشيخ الطاهر بمالك الصغير عندما كان يدرس في تقرت.[7]

. دراسته وتعليمه:

كان الشيخ أحمد قد أدخله أبوه إلى جامع النخلة بسوق الوادي لحفظ القرآن الكريم، وكان معه أخوه الشيخ الطاهر وابن عمتهما «نانه» وهو الأديب الكبير والصحفي القدير محمد الأمين العمودي أول أمين عام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومن مؤسسيها الأوائل،[8] وأتم حفظ القرآن قبل سن البلوغ، وقد ذكر لي أنه كان يحمل معه وجبة الغداء نهارا عند ذهابه إلى الكتاب لسرد القرآن تحضيرا لصلاة التراويح.[9] دفع به أبوه إلى الكتاب صبيا بين أترابه ولداته. فعاش مع اللوح والدواة عيشة محيطه الذي تخرج فيه. وسلك سبيل أسلافه وأجداده وعشيرته الأقربين. ومن هذا المنطلق الإسلامي المحض. تعليم القرآن. الذي يضرب بجذوره في منطقة سوف. التي تتميز عن غيرها من المناطق بلسان عربي مبين لا عجمة فيه ولا لوثة. نشأ الشيخ نشأة إسلامية عربية ساعدته كثيرا على مواصلة مساره الدراسي بكل سهولة ويسر حتى نهل من مناهل جميع العلوم السائدة وقتئذ.

أما الشيخ الطاهر الذي خلف شيخه محمد العربي بن موسى[10] بعد وفاته. في التدريس والإمامة بالجامع الكبير بتقرت فقد لقب بمالك الصغير لغزارة علمه واجتهاده الموفق، وكان عمره عند توليه هذا المنصب اثنين وعشرين عاما، أي سنة 1326هـ/1907م.

لم يلتحق الشيخ بالمدرسة الفرنسية بالرغم من معرفته للحرف اللاتيني، إذ عكف على دراسة العلوم العربية والشرعية، من فقه وتوحيد وحديث ونحو وصرف بالوادي، ومن العلماء الذين درس عليهم: الشيخ عبد الرحمن العمودي،[11] والشيخ محمد العربي بن موسى، بالإضافة إلى شقيقه الشيخ الطاهر،[12] الذي درس عليه بالوادي، ثم تحول معه إلى تقرت عندما تولى التدريس بالجامع العتيق خلفا لشيخه، ثم أرسله في نهاية المطاف إلى جامع الزيتونة على نفقته الخاصة لإتمام دراسته على يد شيوخ فخام. تربى يتيما بعد وفاة والده، مما اضطر أخاه الشيخ الطاهر إلى أن يتولى الإنفاق عليه.[13] وهناك تلقى العلم على يد كوكبة من العلماء المشهورين أمثال الشيخ النخلي، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ومحمد الخضر بن الحسين[14] ابن علي بن عمر، والفاضل الزكي الأكمل الشيخ سيدي أحمد جمال

الدين،[15] والشيخ أحمد بن مراد، والشيخ حسن بن يوسف، وفضيلة الأستاذ محمد النجار، والشيخ الخليل أحمد البنزرتي، والأستاذ الكبير صالح الهواري، والشيخ خليفة بن عروس، والشيخ بن محمود، ولعله أخذ عن غير هؤلاء.

كان جامع الزيتونة وقتذاك قبلة لطلاب العلم والأدب، وفي رحابه تفتحت قريحة الشيخ فاطلع على ثقافات واسعة في المصادر الهامة التي لم تكن متوفرة في بلده بسبب سياسة التجهيل التي مارستها فرنسا على الجنوب الجزائري بصفة خاصة.[16] وقد اغتنم الشيخ فرصة وجوده بتونس فقام بزيارة الشيخ محمد المولدي[17] بن أبي بكر الولي الصالح بتوزر وشيخ الطريقة القادرية، والمتوفى يوم الأحد 28 شعبان عام 1335هـ/1915م. وعندما رجع إلى مسقط رأسه بعد حصوله على شهادة التطويع من جامع الزيتونة. بدأ التدريس متطوعا بجامع سيدي المسعود الشابي بسوق الوادي ابتداء من عام 1341هـ/ 1922م،[18] وكان يعيش على نفقة المصلين، وعمره وقتذاك 34عاما.[19]

. صفاته الجسمية والخلقية:

كان فارع القامة، أبيض البشرة، مشربا بحمرة، قوي البنية، مرحا بشوشا، صاحب نكت طريفة، مازحا بجد، كلامه عذب، وهادئ، قوي الحجة. وكان مفتيا بارعا لا يجارى، ولغويا محنكا لا يشق له غبار، طريقته في التدريس مبسطة، إذ يشرع في قراءة أولية لأحد المتون، ثم يبدأ في الشرح والتوضيح حتى يقتنع الطلاب ويستوعبوا ما يمكن لهم استيعابه.

. منهجه في التدريس:

كان يطلب منا حفظ الباب الذي ينوي تدريسه، وإذا لم يحفظ أحدنا فسوف يغضب الشيخ ويوجه له اللوم بحدة تتناسب طردا مع جديته وحرصه على إفادة طلابه، ورغم تقدمه في السن عندما تعرفت عليه عام 1962 (عمره 74 عاما). فإنه خصني بدرس يوميا في متن الآجرومية إذ لم أكن قادرا على المتابعة مع الطلاب الذين كانوا متفوقين عليّ، والذين كانوا يدرسون متن قطر الندى.

وبالرغم من لطافته وبشاشة وجهه، فإنه كان أيضا ينفعل إذا ما تعرض لسائل يقصد إحراجه، بالرغم من أنه كان يجيب عن كل الأسئلة التي تطرح عليه، حيث كان يأتيه المستفتون من كل حدب وصوب، يعرضون عليه فتاويهم فيجيب عنها جميعا، كما كانوا يعرضون عليه مشاكلهم فيقترح عليهم الحلول الناجعة. وظلوا يستشيرونه في كل قضاياهم الخاصة، فكان بمثابة المستشار والموجه. ذلك هو فضيلة الأصولي النظار الأستاذ أحمد العبيدي الذي كان له منهج آخر في الفتوى وطرائق معينة في الاستنباط اكتسبها من رسوخ قدمه في علم أصول الفقه الذي تضلع فيه أيما تضلع وتبحر فيه تبحرا واسعا. يحيط بالقواعد الكلية للشريعة. وذلك كله راجع إلى الإدمان المستمر على مطالعة كتب العلم والاشتغال بالبحث والتنقيب والتمحيص والنظر المتواصل في تراثنا الفكري والفقهي معا. وبذلك اكتسب ملكة فقهية واسعة المدارك. وهكذا تصدر للفتوى ومعضلات النوازل وتحمل بمسؤولية وإخلاص عبء أمانة العلم في منطقة وادي ريغ ووادي سوف. على مدى أكثر من 54 سنة. أي من عام 1922 إلى 1976 .. فكان جديرا بالمكانة المرموقة التي تبوأها طوال تلك الفترة. جعلت منه علما راسخا في ثبات علمه وشدة ورعه وزهده وقوة حجته وصدق دليله. وقد ظل الشيخ أحمد طوال حياته العلمية مؤمنا بأن التقليد ليس من شيمة أهل العلم. وكأنه بذلك صورة منسوخة عن شقيقه وشيخه الأستاذ الطاهر العبيدي.

أدى فريضة الحج عام 1957 برفقة شقيقه وشيخه الطاهر[20] على متن طائرة انطلقت من مطار قمار بالوادي، وكان ابنه الوحيد حمزة البار بوالده هو الذي تكفل بحجه.[21]

كان صوفي النزعة، ينتمي إلى الطريقة الرحمانية العزوزية أساسا، كما كان أيضا قادريا، وكان يقدم أوراد الطريقة القادرية لمن يرغب في الانتساب لهذه الطريقة وهذا بتكليف من شيخ الطريقة القادرية بتونس والوادي محمد الصالح الشريف بن الشيخ محمد الهاشمي. هذا الأخير الذي قام بالانتفاضة المعروفة بهدة عميش الأولى يوم 1918.11.15م.[22]

كان حفاظا للمتون، قوي الذاكرة، لا يتوانى في حفظ كل ما بدا له مفيدا أو جيدا، سواء أكان شعرا أم نثرا، بل كان يحفظ مولد البرزنجي [23] عن ظهر قلب، هذه الذاكرة التي كان يتحلى بها يسرت عليه استيعاب أغلب المتون، كما كان يملك مكتبة ضخمة تحتوي على أمهات الكتب من مطبوعة ومنسوخة، بلغ عددها حوالي 16000 كتاب، جعلت منه موسوعة معرفية ضخمة أفحم بها جميع من حاول اختباره، وأفاد كل طالب للمعرفة في مختلف المجالات التي كان مطلعا عليها.[24]

كان يلقن طلابه الفقه نهارا بجامع سيدي المسعود، ويقوم بتفسير القرآن ليلا، كما اعتكف على تدريس الآجرومية وقطر الندى بفناء بيته صباحا لفئات مختلفة الأعمار والمستوى التحصيلي، ورغم تقدمه في السن، فإنّ هذا لم يكن عائقا، بل استمر في مواصلة تدريسه، حيث كان يقوم بشرح متن الشيخ خليل بن إسحاق المالكي في جامع النخلة بأولاد أحمد ما بين صلاتي المغرب والعشاء.

تخرج على يديه كوكبة كبيرة من العلماء أمثال الشيخ الميداني بن محمد العربي بن موسى، والشيخ الأزهاري الحرزولي، وعلي سالمي، والبخاري عوينات، كما درس عليه محمد حمده (ميده) بن أحمد، وعلي بوخزه، والأزهاري بالقط، ومحمد هويدي، وعاشوري قمعون، وغيرهم كثير ممن انخرطوا في سلك التربية والتعليم، والإمامة، وتعليم القرآن الكريم، وكل هذا بدون مقابل مادي، اللهم إلا من تطوع للتبرع عليه، حيث كان رواد العلم يجمعون شهريا مبلغا من المال فيقدمه إليه أحدهم.[25] وأذكر أنني سألته عام 1962 إذا كان للقرآن تفسير حيث كنت صغيرا، وأتابع دراستي في المدرسة الفرنسية وقتذاك، حينما التقيت به في سوق الوادي، فضحك وسألني عن عائلتي، ولما تعرف عليّ، طلب مني زيارته في بيته، فوجدته قد أحضر لي تفسير الجلالين[26] وبه حاشية تتكون من ثلاثة كتب: ألفية الأوزاعي في تفسير مفردات القرآن الكريم، ولباب النقول في أسباب النزول، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وأهداه إليّ حيث ما زلت أحتفظ به إلى الآن، علما بأنه لم يكن يتصف أبدا بالبخل حينما يطلب منه أي طالب استعارة أحد الكتب، وغالبا ما تضيع هذه الكتب أو يتأخر طالبوها كثيرا في إعادتها.

. رحيله إلى بلدة تقددين بدائرة جامعه للتدريس:

رحل الشيخ أحمد العبيدي إلى بلدة تقددين بجامعه إماما ومدرسا، وذلك بواسطة أحد تلاميذ أخيه الشيخ الطاهر، والذي كان يحضر دروسه بتقرت، هذا التلميذ هو الذي طلب من شيخه دعوة أخيه أحمد للتدريس بجامعه، واسمه محمد بن أحمد بوليفه من أسرة عرفت بطلبها للعلم وحفظ القرآن وتوليها شؤون المسجد، مع أنها كانت ميسورة الحال، وأغلب أبنائها من حجاج بيت الله، في الوقت الذي كان أداء الحج ليس بالأمر الهين، حتى عرفت الأسرة بـ « دار الحجاج ».[27]

لم يكن الشيخ موظفا لدى الإدارة الفرنسية، مما جعله يتكلم في دروسه بكل حرية، غير مقيد بما تطلبه الوصاية من موظفيها عادة، شأنه في ذلك شأن ابن باديس، غير أنه لم يكن منتميا لجمعية العلماء، بل ذكرت لي بنته سعدية بأنه طلب منه التدريس بحاضرة الشرق الجزائري مدينة قسنطينة، غير أن مناما رآه جعله يغير وجهته نحو بلاد رجال الحشان،[28] وله قصيدة مطولة أحصى فيها جميع الأولياء من رجال الحشان بوادي ريغ. مما يؤكد ارتباطه المطلق بالحركة الصوفية التي جعلته في منأى عن الانتماء لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت تعارض هذا الاتجاه. وقد أكد لي شخصيا أنه لم يكن مقتنعا بمنهجها.

كانت تجمع له الأموال من أهل البلدة، وكان يقضي فصل الخريف والشتاء والربيع في جامعه، بينما يرحل في فصل الصيف إلى الوادي.

كان يدرس بجامع سيدي سالم بتقددين القديمة، حيث كان يعقد حلقة درس بين المغرب والعشاء بصفة دائمة طوال إقامته، وأحيانا بعد صلاة الصبح، وكان يقدم في هذه الحلقات دروسا في الفقه والنحو، وكان يركز على المذهب المالكي في دروسه وفتاويه لكونه مذهب غالبية أهل القطر، بالإضافة إلى دروس التوحيد.

ومن ناحية أخرى، فإن القائمين على شؤون المسجد والمترددين عليه هم من أتباع الطريقة العزوزية الرحمانية في غالبيتهم، وكان الشيخ يجالسهم

في حلقات الذكر لكونه رحمانيا عزوزيا أيضا، مع العلم بوجود أتباع الطرق الأخرى كالقادرية والتجانية الذين كانوا يترددون على دروسه أيضا.

وقد تخرج على يده الكثير من الطلبة، مثل الحاج عمر بوليفه، وسي مختار، والطالب إسماعيل. وكلاهما من نفس العائلة . أي بوليفه .، وعبد الرحمن قادري، والصالح مداني مقدم، وعبد السلام مداني، بالإضافة إلى محمد الحسين النوي، وأحمد بن السعيد بوليفه، وغيرهم كثير، وكان هؤلاء يحترمونه كثيرا ويكرمونه خاصة وأنه لم يكن يتمتع بمرتب، بل إن أهل البلدة يتولون عند عودته من الوادي، إكرامه حوالي شهر كامل مع أسرته فيحملون له الطعام إلى منزله ويقدمون له غلال فصل الخريف إلى أن يستقر ويعود إلى حياته العادية، كما كانوا يعقدون معه السهرات في أحد المنازل ليلا للاستفادة منه ومن فتاويه وأحاديثه الممتعة ومن ذكائه الوقاد إلى ساعات متأخرة من الليل، وهم يتناولون الشاي مع الكاوكاو (الفول السوداني)، ولا ينبئك مثل خبير.

رجع الشيخ إلى الوادي مع بداية الخمسينيات،[29] وواصل تدريسه بجامع السوق، وجامع النخلة، كما كان يقدم دروس النحو في الآجرومية وقطر الندى في منزله بطريقة سهلة مبسطة وجذابة جعلت الطلاب يستوعبون دروسه بكل سهولة ويسر لمقدرته الفائقة على الإقناع، قضى حياته على جانب عظيم من الزهد والتعفف والقناعة والصيانة والورع مع تدين متين وسيرة حسنة، وسخاء مفرط.

عندما رحل ابنه الوحيد حمزة إلى الجزائر العاصمة للتدريس هناك، أقام في الديار الخمس بالحراش مع عائلته، وانتقل معه الشيخ، غير أنه لم ينس مسقط رأسه فصار يتردد عليه كل عام، حيث يزوره تلاميذه ورفقاؤه القدماء للاستمتاع بنكته الرائعة وبفتاويه المقنعة، وهكذا حتى صار عاجزا تماما عن الحركة، فحوله ابنه رفقة زوجته إلى الوادي بنية البقاء دائما، وذلك ليلة الخميس 25 محرم 1397هـ/ 23 ديسمبر 1976م، وكان قدومه على متن سيارة ابنه حمزة،[30] غير أن القدر لم يمهله ففاضت نفسه إلى بارئها يوم 16 جانفي 1977 على الساعة 18 و40 د، ودفن في مقبرة أولاد أحمد في الجهة

الغربية منها، وعمره 89 عاما. تغمده الله برحمته الواسعة وأسكنه فسيح جنانه.[31]

. تآليفه :

ترك الشيخ أحمد العبيدي مجموعة كبيرة من التآليف في مختلف فنون الأدب والنحو والفقه والتوحيد وكان ينظم الشعر الفصيح والملحون، أما قصائده الصوفية فهي كثيرة ومتنوعة لدى أصحاب الطريقة الرحمانية بالوادي.

من تآليفه في اللغة:

. نظم قطر الندى وبل الصدا.

. شرح وسيلة المتوسلين[32] (سيدي العروسي) غير أنه لم يتمكن من إتمامه بسبب عجزه عن الكتابة. وما ذكره في أسماء الأطعمة الثمانية التي يستعملها العرب في مختلف المناسبات.

. كما له نظم في القواعد مثل قوله:

ألا يا طالبا نريك فائده «ما» إن أتت بعد «إذا» فزائده

- كما قرظ رسالة الستر لشقيقه الشيخ الطاهر.[33]
- له أرجوزة أحصى فيها جميع أسماء الأسد وعددها حوالي 500 اسم.
- له منظومة في الأسماء اللازمة الإضافة حيث يقول فيها:

لَدُن، لدى، سبحان، ذو، ومَثَل مَعْ، عند، كلٍّ، غيرُ، بعضٍ، أولوا
فوق، وتحت، وورا، قدام ويُسرةٌ، جا مَعَهَا، أمام
ويُمنة، معاذ، شبهٍ، وكِلا أيٌّ، وكِلتَا، ثم دون، فَاقْبلا
فهذه لازمةُ الإضافة ذَكره بَحرَقُ شرح المُلحَة

أما نظمه في الأطعمة الثمانية فهي قوله:

وليمة، قل لطعام العرس وفي نفاس سمه بالخُرْس

مأدبـــة، هـــي طعـــام الجـــيران حذاقـــة، طعـــام حفـــظ القـــرآن
وكـــيرة عنـــد بنـــاء الـــدور نقيعـــة لـــسفر مبـــرور
عنـــد ولادة الـــصبي عقـــيقه إعـــذار في الختـــان خـــذ طريقـــه

كما له نظم سماه «رسالة تحفة المصلي على النبي ﷺ » يقول فيه:

يقـــول أحمـــد العبيـــدي المرتجـــي مـــن ربـــه ســـلوكَ خـــيرِ مـــنهج
الحمـــد لله الـــذي صـــلى علـــى نـــبيه محـــمد وبَـــجّلا
مـــع ملائكتـــه وأمـــرا أصـــحاب الإيمـــان بهـــا بـــلاَ مِـــرا
ثـــم الـــصلاة والـــسلام الزاهـــر يغـــشى نبيّنـــا الحبيـــب الطـــاهر

نظم قصيدة في جامع السوق المعروف بجامع سيدي المسعود الشابي[34] والذي بني في القرن 17م، يقول فيها:

يـا جـامعَ الـسوق يـا تاجـاً علـى الـوادِ ونـــوره لاَحَ في غَـــوْر وأنجـــاد
قـــد زادك الله في حُـــسن وفي سَـــعَة وقـــد وَقَـــاك شـــرور العَائِـــثِ العـــادي
فكنـــت كالروضـــة الغنَّـــاء مُنتَزهـــا للناسكيـــــــن وذي درس وأورادِ
لكنـــه لم يَقُـــم حَقّـــا بخـــدمتكم إلا الجبـــالي علـــي[35] الخـــاتم البـــادي
فكـــن لَـــه ربّ البيـــت إن لـــه حَقـــا علـــيكم فنـــادٍ أنـــت والنـــادي
يـــا رب فأحفظـــه في دنيـــا وآخـــرة في الـــذات والأهـــل مـــع مـــال وأولاد
بجـــاه ســـيدنا المـــسعودِ وَاقِفِـــه جادتـــه سُـــحْب الرضـــا بالهاطـــل الثـــادي

وفي جمادى الأولى عام 1348هـ/نوفمبر 1929م، نظم قصيدة أخرى يقول فيها:

دون أقـــصى المُـــراد وَقْـــعُ النبـــال والحـــريص علـــى العُـــلالا يبـــالي
طاعـــة الله حِلْيَـــةٌ وجمـــالٌ وَهْـــي عنـــوان كـــل وصـــف كمـــالِ
في بنـــاء مـــساجد الله ذُخـــرٌ ونـــزولٌ بجَنّـــةِ الخلـــد عـــالِ
أفـــرَغَ الحَـــزمَ في بِنَـــا جَـــامعِ الْـــوَا دِي خليلـــي علـــيٌّ بْـــنُ الجبـــالي
قـــام لله لا يريـــد جـــزاءً مـــن عبيـــدٍ وذاك فعـــل الرجـــال
وبيـــوم الحـــساب يَلقـــى جـــزاه حـــسنات تفـــوق وزن الجبـــال
ربٌّ أســـكنه في الجنـــان قـــصورا عاليـــاتٍ وزد لـــه في النَّـــوال
واصـــرِف النائبـــات عنـــه ســـريعا ثـــمَّ صـــنه واحفظـــه في كـــلّ حـــال

وقد كتب قصيدة أخرى في شهر محرم الحِرام من عام 1355هـ/ مارس 1936م، قال فيها:

حَبَّذا مسجدٌ به نستنير ... طالما لاحَ فيه بدرٌ مُنير
يا بني أحمدٍ هنيئا مريئا ... إن وَبْلَ العلوم فيكم هَمير
لم تفارقكم العلوم فشكرا ... ليس عن فضل ربنا تحجير
كم جلا نجلُ صابر[36] فيه علماً ... وابنُ موسى الحبرُ الجليل الكبيرُ
والبهَا البُختُريّ[37] مَعْ نجْل نَصر[38] ... وكذا شيخنا الرضى النحرير
شيخ ذا العصر (طاهرٌ) طائرا ... تلصيِ العبيدي بحرُ العلوم الغزيرُ
إن علا منبر المواعظ فاسمع ... لرشاد له تلين الصخور
وكذا العامري[39] كم فيه أجدى ... إن هذا المحلّ روض نضير
في بناء مساجد الله عز ... وفخار وبهجة وحبور
لا تعدّوا ما تنفقون كثيرا ... فهو في جنب الله شيء حقير
من بنى مسجدا هنا فجزاه ... في جنان الخلود بيت عطير
فاعمروها بالصالحات لتحظوا ... إنّ إهمالها عذاب مبير
إنما يعمر المساجد من كا ... ن يروم تجارة لا تبور

حفظها حافظ عمارة أرض ... وكذا في الخراب ذا التقدير
قام فيه بعازمات الطوايا ... نجل موسى[40] الآغا الأمير الخطير
وكذا نجله النشيط فكم با ... نت أيادي للمعالي تسير
والجبالي عليّ بحزم للسب ... ق إلى الخير قام فيه يشير
قبل الله سعيكم وحماكم ... وحباكم وصانكم ما يضير
آل موسى الفخام دمتم ودام الـ ... مجد فيكم مخلّدا والأمير

ما برحتم على مشاريع خير ... عاكفين والله نعم النصير
وصلاة الإله تترى على من ... لاح منه الرشاد والتنوير
أحمد المصطفى الرسول المفدّى ... هو ذخر الورى البشير النذير
وعلى الآل والصحابة ما قا ... م العبيدي لربه يستخير
(أحمد) يحمد الكريم في ذا الـ ... خير لختم إذا اعتلانا السرور

كما نظم قصيدة يحث فيها على طلب العلم، إذ يقول:

هلموا للمعالي يا رفاقي ... وكونوا الثابتين على الوفاق

ولا تـــصغوا لزخرفـــة الكـــسالى ... إذا مزجـــوا النـــصيحة بالنفـــاق

وهبـــوا مـــن منـــام الجهـــل وارقـــوا ... بهمـــــتكم إلى أعـــــلا المراقـــــي
وقومـــــوا للعلـــــوم وبادروهـــــا ... بجـــد قبـــل إدراك المحـــاق
فـــإن العلـــم مرتعـــه خـــصيب ... وعـــرف عـــراره عطـــر انتـــشاق
فتيهـــوا يـــا رجـــال العلـــم واجنـــوا ... حنـــاه المـــشتهى حلـــو المـــذاق
فـــان النـــاس أنـــتم لا ســـواكم ... بكـــم قيـــد الـــشريعة مـــن إبـــاق

بكـــم فـــصل النـــوازل والقـــضايا ... وتـــسكين الـــشقاق والاحتقـــاق
مـــلأتم مـــن معـــين العلـــم صـــدرا ... وغيركـــم يحـــوم علـــى الـــسّواقي
فمـــا أحلـــى المـــدارس يـــا خليلـــي ... بهـــا فاعقـــب صـــبوحك باغتبـــاق
وشمّـــر للـــدروس بـــلا تـــوان ... ومتّـــع بـــالطروس ضـــيا الحـــداق
فبـــالعلم الـــشريف ســـما قـــديما ... رجـــال أحـــرزوا قـــصب الـــسباق

ومـــدّوا للعـــلا أيـــد وزاذـــوا ... وماســـوا في حلـــى العـــزّ الزقـــاق
جنـــود الجهـــل وافـــت في جمـــوع ... وكـــرّت بالمهنّـــدة الـــدقاق
ورامـــت دحـــض دينـــك يـــا معنـــى ... بـــنغص العلـــم تبلـــغ مـــا تلاقـــي
فهـــل أبـــصرتم منّـــا غبيّـــا ... ســـقاه المجـــد بالكـــأس الـــدّهاق

وخـــلّ خـــير ذكـــر بعـــد مـــوت ... إذا مـــا صـــار مـــشدود الوثـــاق
وهـــل بالمـــال تفتخـــرون كـــلا ... ورب البيـــت والـــسبع الطبـــاق
أمـــا تـــدرون أن المـــال ميـــل ... عـــن العليـــا ويقـــصر عـــن لحـــاق
دعـــاكم رائـــد الخـــسران دهـــرا ... فلبيـــتم بجهـــر لا اســـتراق
وذا القـــرآن بيـــنكم ينـــادي ... ويوصـــيكم بإبعـــاد الـــشقاق

وأنـــتم بالتنـــافر قـــد كلفـــتم ... أيـــوزن الاجتمـــاع بالافتـــراق
وحفظكـــم بـــدنيانا وأخـــرى ... بحفـــظ الـــدين فهـــو أجـــلّ واق
فـــصونوه وفي أعمـــال رشـــد ... فجـــدّوا تـــسلموا يـــوم التلاقـــي
فكيـــف بكـــم إذا جئـــتم لحـــشر ... ونـــار الله تزفـــر بـــاحتراق
وشـــاهدتم عظـــائم أدهـــشتكم ... وفـــاز بمـــا يقـــر العـــين راق
هنالـــك تنـــدمون ولـــيس يغـــني ... فكـــن يقظـــا أخـــي قبـــل الفـــراق

وفي العمـــل اجتهـــد إذ لـــيس يلقـــى ... لمـــن ركـــب البطالـــة مـــن خـــلاق
ففـــي الأعمـــال تقـــديم بفخـــر ... وبالإهمـــال بابـــك في انغـــلاق
تأمـــل نفثـــة أهـــدتك نـــصحا ... بـــصدق لا يـــشاب بـــالاختلاق
وأهـــدي للـــذي أســـرى بليـــل ... بـــه مـــولاه ممتطـــي الـــبراق
محمـــد المـــشفع في البرايـــا ... وســـاقي النـــاس في يـــوم المـــساق

ولـــلآل الـــسراة وصـــحب مجـــد أســـود الـــدين فرســـان العتـــاق
صـــلاة مـــع ســـلام مـــا تبـــدّت بـــدور العلـــم أو شمـــس اتفـــاق
ومـــا نـــادى العبيـــدي في النـــوادي هلمـــوا للمعـــالي يـــا رفـــاقي

كما أملى عليّ قصيدة سماها نصيحة الشباب وهي كالتالي:

حمـــدا لمـــن قـــد جعـــل الدروســـا نجـــني بهـــا مـــن العـــلا غروســـا
ونكتـــسي بهـــا جمـــالا وبهـــا يـــا فـــوز مـــن كـــان نـــشيطا نابهـــا

يـــسير ســـير حـــازم لا يرعـــوي إلى الأمـــام دائمـــا لا يلتـــوي
يرشـــف مـــن مناهـــل العلـــوم يثـــابر الغـــوص علـــى الفهـــوم
لكـــل يـــوم طلـــب جديـــد وجريـــه في كـــسبه شـــديد
أوصـــيك يـــا شـــباب هـــذا الوقـــت إن شـــئت أن تـــأمن ضـــرّ المقـــت
حـــافظ علـــى دينـــك واتـــبعن ســـنن نبيـــك الهـــادي إلى أسمـــى ســـنى
إذا حفظـــت الـــدين يـــا بـــشراكا ســـعدت في الـــدنيا وفي أخراكـــا
وقـــدّم الـــشرع علـــى العـــادات واســـلك ســـبيل الـــسلف الـــسادات

واتـــرك عليـــك الخمـــر والـــدخانا ولا تكـــن عبـــدا خسيـــسا خانـــا
وجانـــب الخبـــث والأنجاســـا وحـــاذر القمـــار والإفلاســـا
واختـــر لـــصحبتك مـــن تـــراه مهـــذبا يـــسعى إلى عـــلاه
وأصـــعد إلى معـــارج المعـــالي عـــانق لنيـــل عـــزّك العـــوالي

كـــن حـــذرا لا تغـــترر بالنـــاس ولا تكـــن لعظـــتي كالناســـي
فـــديننا حـــث علـــى الفـــضائل محـــذرا مـــن وصـــمة الرذائـــل

ولا تمـــل إلى الهـــوى عـــن الهـــدى فزهـــرة الـــشباب تلقـــى في الـــردى
فقـــد رأيـــت غالـــب الـــشباب علـــى قبـــيح الفعـــل ذا انكبـــاب
تـــراهم في الحـــان والمقـــاهي كـــالهمج الرعـــاع في المنـــاهي
لا يرعـــــوون إن رأوا كـــــبيرا أو فاضـــــلا أو عالمـــــا خـــــبيرا
فـــارجع إلى مـــولاك يـــا شـــباب رجـــوع صـــدق إنـــه تـــواب
نـــسألك اللـــهم حفـــظ المـــسلمين والحمـــد للإلـــه رب العـــالمين
نظمهـــا نجـــل العبيـــدي أحمـــد وفقـــه الله لفعـــل يحمـــد

وفي اليوم العاشر من محرم عام 1353هـ/1934.4.17م، أتم الشيخ الطاهر العبيدي تفسيره للقرآن الكريم، وعاشت تقرت مهرجانا عظيما، وهنا نظم الشيخ أحمد قصيدة لهذه المناسبة جاء فيها:

نـــزل الكتـــاب المحكـــم الآيـــات ... يبـدي لنـا الماضـي ومـا قـد يـاتي
فـتراه يـا بـاغي الديانـة والهـدى ... مـــستجمع الأحكـــام والرغبـــات
مادامـــت الآمـــال عالقـــة بـــه ... فالنـــاس لا تخـشى أليـم شـتات
يـا فـوز مـن عـانى الكتـاب بهمـة ... وبعزمـــة مثـــل الأولى الأثبـــات

فاقـدر كتـاب الله حـق القـدر كـي ... ترقـى العـلا وتفـوز بالـدرجات
واعلـم بـأن خيارنـا مـتعلم ... لكتـــاب رب قـــامع الـــشبهات
أو مـــن يعلمـــه رجـــاء ثوابـــه ... للنـــاس يخـــرجهم مـــن الظلمـــات
فـتلاوة القـرآن حـصن مـانع ... تنجـي مـن الأهـوال والآفـات
يكسى بها التالي جمالا ها هنا ... والقـبر يحكـي أبهـج الروضـات

وينـال مـا يرجـوه في الأخـرى ولا ... يلقـى وبيـل الخـوف في العرصـات
فكمـال أمـة أحمـد بكتابهـا الـ ... ـهادي الـورى للرشـد والخـيرات
كونـوا عليـه عـاكفين وعلمـوا ... أولادكـم كـي يظفـروا بهبـات

وتعلمـوا تفـسيره وبيانـه ... وعلومـه في جملـة الأوقـات
عـن كمـل الأشـياخ أهـل الـدين والـ ... ـعلم الـصحيح الـسادة القـادات
فهـم الـضياء إذا الحوالـك غيمـت ... وهـم الـشفاء لمعـضل الكربـات

مـن أكـبر الأشـياخ بـدر ديـاركم ... الطـاهر النحريـر ذو النفحـات
قـد جـاء مثـل الغيـث في تفـسيره ... لله درك يـا أبـا البركـات
أوضـحت مـن روح البيـان كمـا تـشا ... للـسالك الراقـي إلى الحـضرات

وكـذا الخطيـب كـشفت غامـضه إلى ... أن صـار في أحـواز تقريبـات
وثعـالبي[41] جزائـري بجـواهر ... زينـت جيـد دروسـك العطـرات
والـصاوي بـدر الـدين والجمـل الـذي ... سـلمت كتائبـه مـن العثـرات
وأبـو البقـا إعرابـه العـذب الـذي ... سـلك الـصواب وأوضـح الآيـات

مـع مـا تزيـد مـن الفوائـد ذاكـرا ... جمعـا لأقـوال بتحريـرات
كـل الفنـون حـوت دروسـك مـن يـرم ... نفعـا كـثيرا عـاجلا فليـات

عـضوا علـى تحقيقـه بنواجـذ ... وتنافـسوا في العلـم قبـل فـوات
بـالعلم تنـتعش الـشعوب وتحتمـي ... وتعـيش في أمـن مـن النكبـات
فهـو الفريـد بعـصرنا وبمـصرنا ... علمـا ودينـا واقتـدا بهـداة

حضر الرضى الخضر الحسين يدرس ذا ... بـالوادي في التفـسير مـذ سـنوات
فـاهتز مـن عجـب وقـال قليلـة ... أمثـال ذا في هـذه الأنـات
أخـذ العلـوم علـى شـيوخ جلـة ... بـالواد والخـضراء[42] بيـت سـراة

وأجـــازه أشـــياخه في كلـــها ... كـسليل موسـى مرجـع الـسادات

مـن كـان طـودا في العلـوم فربنـا ... يجـري عليـه هواطـل الرحمـات

عمـرت بـه تقـرت وقتـا لم يطـل ... والمـوت يـذكي هـاذم اللـذات

فـأتى لهـا أسـتاذنا مـن بعـده ... عودتـه مـن حـسد وبغـاة
أنهـى ابـن موسـى درسـه الغـالي (وإن ... عزمـوا الطـلاق) وسـار للجنـات

فبنـى علـى أس بنـا أسـتاذه ... أدبـا وعاملـه بحـسن نيـات

لهمـا جـرى مثـل الجلالـين المحـ ... ـلى والـسيوطي طيـب الحـالات

يـا ربنـا احفـظ شـيخنا وتولـه ... بـاللطف في الـسكنات والحركـات

وأدم لنفـع المـسلمين بقـاءه ... يقـري العـويص بحـسن إدراكـات

يهنيـك خـتم جـل موقعـه وقـد ... سـبقت بـه تقـرت في الحلبـات

مـن سـالف الأعـصار والعلمـاء في ... تقـرت موجـودون أهـل ثبـات

وبرحلـة العياشـي[43] لمـا حلـها ... ألفـى بهـا فقهـا نوى هيئـات

والحمـد لله الكـريم فـأنتم ... بوجـود هـذا الحـبر في مرقـاة

لكـنكم غـادرتم أبنـاءكم ... يـسقون مـر الجهـل في دركـات

مـا هكـذا يرضـى الـودود لنجلـه ... تركـوا الـدروس ولازمـوا الحانـات
والمـرء راع في بنيـه وأهلـه ... فعليـه مـشيهم بطـرق نجـاة

أعطـوا القـراءة حقهـا لا تعرضـوا ... وتيقظـوا مـن سـكرة الغفـلات

في خدمـة العلـم الـشريف نظمتهـا ... أرجـو إلهـي العفـو عـن زلاتـي

جهـد المقـل أتتـك تلـتمس الرضـى ... بقبـولكم تـسمو علـى الـشرفات

سـقيت غـروس قريظهـا مـن بحـركم ... إذ أنـتم أصـلي وروح حيـاتي

وعلـى الرسـول وآلـه وصـحابه ... أزكـى الـسلام وعـاطر الـصلوات

مـا فـاح مـسك الختـم في نـاد ومـا ... رفعـت أكـف الخلـق للـدعوات

مـن شـك في الغفـران عنـد الختـم لا ... يعطـى لـه ويخـور بـالهفوات

فـادعوا إلهـا يـستجيب لمـن دعـا ... يـولي الجزيـل ويغـسل الحوبـات

وابـن العبيـدي أحمـد يرجـو لـه ... ولكـم ختـام الخـير عنـد وفـاة

رسالة تحفة المصلي على النبي ﷺ لناظمها فقير ربه أحمد بن العبيدي الوادي رزقه الله خير الدارين آمين وهي:

يقـول أحمـد العبيـدي المرتجـي ... مـن ربـه سـلوك خـير مـنهج

الحمـد لله الـذي صـلى علـى ... نبيـه محمـد وبجـلا

مـــــع ملائكتـــــه وأمـــــرا أصـــحاب الإيمـــان بهـــا بـــلا مـــرا
ثـــم الـــصلاة والـــسلام الزاهـــر يغـــشى نبينـــا الحبيـــب الطـــاهر

وآلـــــه وجملـــــة الأتبـــــاع مـــــا قـــــام لله بحـــــق داع

وبعـــد فالقـــصد بـــذا النظـــام ذكـــر الـــذي يـــنعش كـــل ظـــام
وهـــو صـــلاتنا علـــى التهـــامي وذكـــر فـــضلها الجليـــل الـــسامي
سميتـــــه بتحفـــــة المـــــصلي علـــى الرســـول المرتـــضى الأجـــل

ذكـــرت بعـــض مـــا أتـــى المـــولى حـــسن العـــدوي في شـــرحه الكـــافي حـــسن

علـــى الـــدلائل عظـــيم الفائـــده وهـــو نفـــيس فاقـــصدوا موائـــده
فقلـــت يـــا ربـــاه ذا الجـــلال أســـألك العـــون بكـــل حـــال
إنّ صـــــلاتنا علـــــى الأمـــــين صـــــلى عليـــــه الله كـــــل حـــــين

لمـــن أجـــل المكرمـــات والقـــرب بهـــا تـــزول الأزمـــات والكـــرب

وتغفـــــر الـــــذنوب والأوزار بمـــــا نظمـــــت وردت آثـــــار
وتـــصقل الـــصدى مـــن القلـــب وزد توصـــل لله بـــلا شـــيخ فجـــد

وإن تـــــصل فـــــصلاة الله عليـــك يـــا هـــذا بـــلا اشـــتباه
واحـــدة بعـــشرة إن قـــبلا ربحـــت يـــا هـــذا وكعبـــك عـــلا
وهـــي تنيلـــك شـــفاعة الرســـول والفـــوز أيـــضا بقـــضاء كـــل ســـول

تنجـــي مـــن الأكـــدار في الـــدنيا وفي يـــوم القيـــام تلقـــى خيرهـــا الـــوفي

رفـــع منـــازل وحورامـــع قـــصور إيـــاك أن تكـــون مـــن أهـــل القـــصور
وإن تـــــصل أو تـــــسلم بلغـــــت لـــــه بواســـــطة أمـــــلاك سمـــــت
وهـــو يـــرد مثـــل مـــا تحيّـــي لأنـــه في القـــبر خـــير حـــيّ

وتـــارة بغـــير أمـــلاك تـــصل كمـــا في ردّ الـــروح جـــاء فقبـــل

تزكـــو بهـــا أعمالنـــا ويكتـــب قـــيراط أجـــر مثـــل أحـــد فـــارغبوا

لقائليهـــــا تطلـــــب الغفرانـــــا والكيـــل بالمكيـــال الأوفـــى بانـــا
فاجعـــل صـــلاتك عليـــه كلـــها لـــه لتحـــي بحـــصول المـــشتهى

وهـــي للـــذنب مـــن المـــاء الـــشبّم للنـــار أمحـــى والـــسلام قـــد علـــم

إنـــه مـــن عتـــق الرقـــاب أفـــضل كمـــا عـــن الـــصدّيق هـــذا نقلـــوا
يـــشهد طـــه لـــك بالـــصلاة إذا تـــصلي فـــاحظ بالـــصلّات

تنـــال مـــن رب الرضـــى وتكفـــى ســـخطا وتحـــت ظـــل عـــرش تلفـــى

وتـــرد الحـــوض بهـــا وتـــشفى مـــن ظمـــإ حـــر الغليـــل يطفـــا
تكـــون نـــورا في الـــصراط واســـعا حتـــى تجـــوز يـــا أخيّ مـــسرعا

بهـــا المـــوازين تكـــون راجحـــه أكـــرم بهـــا خلّـــة ريـــح ناجحـــه

كمـــا تكـــون ســـببا لرؤيتـــك ... طـــه البـــشير المـــصطفى في نومتـــك
وإن تكثـــــر تـــــره في اليقظـــــه ... ياربنـــا امنحنـــا قلوبـــا يقظـــه
وعنـــد موتـــك تهنّـــى بـــالمنى ... وكـــل مـــا تعطـــاه في دار الهنـــا
يحـــضرك الحبيـــب عنـــد الـــسكرات ... والمـــر يحلـــو وتفـــوز بالثبـــات

تفـــوق عـــن عـــشرين غـــزوة كمـــا ... تزيـــل فقـــرا ضـــيق عـــيش فاعلمـــا
بهـــا المجـــالس تكـــون مـــشرقه ... وهـــي لمعـــدم كعـــرف الـــصدقه
مائـــة حاجـــة بهـــا تقـــضى لمـــن ... صـــلى عليـــه مائـــة طـــول الـــزمن
ينفعـــك الله بهـــا أخـــا البهـــا ... وكـــل مـــن أهديتـــه ثوابهـــا
وهـــي طهـــارة وينمـــو المـــال ... حقـــا بهـــا أيـــضا علـــى مـــا قـــالوا
تكـــسب حـــب الخلـــق والطهـــاره ... مـــن النفـــاق يـــا لهـــا بـــشاره

وتـــورث النـــصر علـــى الاعـــداء ... فـــالهج بهـــا تنـــف عـــضال الـــداء
تطيـــب النـــادي ومـــا تنـــسى بهـــا ... تكـــون ذاكـــرا فكـــن منتبهـــا

وإن أردت أن تكـــــون ســـــالما ... مـــن إثـــم بخـــل كـــن لهـــا ملازمـــا
وســـالما مـــن الـــدعا عليكـــا ... بـــرغم أنفـــك كمـــا تهـــديكا
طريـــق جنـــة وإن تركتـــا ... أخطأتـــه وخيرهـــا حرمتـــا

حـــذار مـــن تـــرك الـــصلاة عنـــدا ... ذكـــر اسمـــه الـــشريف يـــا مفـــدى
فـــإن مـــن أحـــب شـــيئا أكثـــرا ... مـــن ذكـــره بـــشدة واســـتهترا

تطلـــب في أوقـــات خـــير عينـــت ... مثـــل فـــراغمن وضـــوء قـــد ثبـــت
عنـــد إقامـــة وبعـــدها وفي ... تـــشهد وفي القنـــوت فـــاعرف
وبعـــد صـــبح مغـــرب إجابـــة ... مـــؤذن ليلـــة يـــوم جمعـــة

عنـــد قيـــام النـــوم للـــصلاة ... بالليـــل غمـــض بـــصر الأمـــوات
إدخـــالهم قـــبرا وفي الخطـــب مـــع ... جنـــائز مـــرور مـــسجد جمـــع
كـــذاك عندرؤيـــة للكعبـــة ... مـــع وقـــوف بالـــصفا والمـــروة

عنـــد اســـتلام حجـــر والملتـــزم ... فـــراغ تلبيـــة أيـــضايلتزم

وفي عـــشية ليومعرفـــه ... يـــا فـــوز مـــن حـــضره وعرفـــه
كـــذاك في مـــسجد خيـــف لمنـــى ... نـــسألك اللـــهم إدراك المنـــى
وعنـــد رؤيـــة لطيبـــةأوي ... آثـــار طـــه المجتبـــى كمـــاروي

وخطبـــة التـــزويج قـــصد النـــوم ... وفي دخـــول منـــزل للقـــوم
عنـــد خروجـــك لـــسوق وســـفر ... قليـــل نـــوم يـــشتكي ضـــر الـــسهر

ركـــوب دابـــة وعنـــد الهـــم ... والكـــرب إلمـــام لفقـــر غـــم

كـــذاك في طـــريق النهـــار مـــع ... صـــدر الـــدعا آخـــره وســـطتقع

إن خـــدرت رجلـــك أو عطـــست ... وتوبـــة مـــن ذنـــب إن أجرمـــت

وبعـــد بـــسملة أيـــضا وابتـــدا ... رســـائل خـــوف الوقـــوع في الـــردى

عنـد لقـا الإخـوان قـل وفي اسـتماع ... طـنين أذن فرقـة بعـد اجتمـاع

وعنـــد خـــتم للقـــرآن والـــشروع ... في العلـم والحـديث فـالزم بخـشوع

مهمـا كتبـت اسـم الـنبي المـصطفى ... فـــدائما صـــل عليـــه وكفـــى

نظمتهـــا في مجلـــس لطيـــف ... أرجـــو قبولهـــا مـــن اللطيـــف

والحمـــد لله ببـــدء وختـــام ... ثـــم صـــلاة الله تـــترى بـــدوام

عليـــه والآل مـــع الأصـــحاب ... والعلمـــا الأخيـــار أســـد الغـــاب

مـا نـاح قمـري علـى غـصن زهـى ... وامتثـل الأمـر مطيـع فـانتهى

هذه طريق الأماني لحل ألغاز حرز الأماني
البدور السبعة ورواتهم وبعض ألغاز الشاطبية

نـــافع قـــالون وورش حـــرزي ... نجـــل كـــثير قنبـــل والبـــزي

ثـم أبـو عمـرو عنيـت ابـن العـلا ... الـــدوري والـــسوسي عنـــه نقـــلا

كـــذا ابـــن عـــامر تلقـــى فيـــضا ... منـــه ابـــن ذكـــوان هـــشام أيـــضا

وعاصـــم شـــعبة حفـــص أخـــذا ... مـــن علمـــه المـــتين عـــاطر الـــشذى

حمـــزة خـــلاد الرضـــى وخلـــف ... أمـــا الكـــسائي الفتـــى المـــشرف

فراويـــاه ليـــثهم أبـــو الحـــرث ... وحفـــص الـــدوري ونعـــم مـــا ورث

صـــحاب الكـــسائي حفـــص حمـــزه ... صـــحبة حمـــزة الكـــسائي شـــعبه

عـــم لنـــافع ونجـــل عامـــر ... حـــق أبـــو عمـــرو ومكـــي العـــامر

سمـــا لمكـــي نـــافع وابـــن العـــلا ... ونفـــر مكـــي بـــن عـــامر عـــلا

مـــع أبـــي عمـــرو وحرمـــي أتـــى ... لنـــافع وابـــن كـــثير يـــا فتـــى

نـــافع حمـــزة الكـــسائي عاصـــم ... حـــصن منيـــع للأنـــام عاصـــم

للكـــوفيين حمـــزة الكـــسائي وعاصـــم يجعـــل حـــرف الثـــاء

لـــسبعة لا المـــدني خـــاء ثـــم لمكـــي الكـــوفيين ظـــاء

ذال لأهـــل كوفـــة ونجـــل عـــامر الـــشامي الرضـــى ذي الفـــضل

ولأبـــي عمـــرو وأهـــل كوفـــة غـــين وشـــين للكـــسائي حمـــزة

أ نـــافع وبـــا لقـــالون وجـــيم ورش ودال أبـــي كـــثير يـــافهيم

وهـــالبزي زاي قنبـــل وزد حـــالأبي عمـــرو وطالـــدوري اســـتفد

واليـــاء للـــسوسي أبـــي شـــعيب كـــاف ابـــن عـــامر بـــدون ريـــب

لام هـــشام مـــيم عبـــد الله ســـليل ذكـــوان عظـــيم الجـــاه

ونـــون عاصـــم وصـــاد شـــعبة عـــين لحفـــص فـــا أتتلحمـــزة

لخلـــف صـــاد وحـــرف القـــاف أعـــط لخـــلاد بـــلا خـــلاف

راء الكـــسائي ســـين ليـــثهم رســـت والتـــاء للـــدوري حفـــص ختمـــت

حـــرز الأمـــاني رمزهـــا قـــد يخفـــى فرمـــت في ذا الـــنظم عنـــه كـــشفا

قـــد قـــال ذا نجـــل العبيـــدي أحمـــد يرجـــو مـــن المـــولى ختامـــا يحمـــد

مـــصليا علـــى الحبيـــب المـــصطفى وآلـــه وصـــحبه ومـــن وفـــى

كما نظم قصيدة بمناسبة استقلال الجزائر عام 1382هـ/1962م
وقد كتبها بخطه، وهي محفوظة عندي، يقول فيها:

تحـــررت الجزائـــر واســـتقلت فـــشكرا يـــا إلـــه العالمينـــا

بهمـــة جبهـــة التحريـــر نلنـــا منانـــا واســـترحنا آمنينـــا

وقـــد كنـــا نكابـــد مدهـــشات مـــن المـــستعمرين الأرذلينـــا

وســـامتنا فرنـــسا كـــل ســـوء ومـــا أبـــدت لنـــا صـــدرا حنينـــا

معـــالم ديننـــا طمـــست وليـــست ... تراعـــي الحـــق مثـــل العادلينـــا

وجـــارت في الحواضـــر والبـــوادي ... جهـــارا لا تـــرى عهـــدا ودينـــا

وزادت في العتـــو بـــلا تـــوان ... ومـــا علمـــت مـــصير المعتـــدينا

غـــصبت الأرض مـــن يـــد مالكيهـــا ... وقتلـــت النـــسا، بـــل والبنينـــا

وجـــورك مـــا يعـــبره لـــسان ... ولا يلفـــى بكتـــب الأولينـــا

إذا مـــا دولـــة جـــارت، تراهـــا ... أزالـــت ملكهـــا حقـــا يقينـــا

وشـــتتها الإلـــه بكـــل فـــج ... مـــشردة جـــزاء الظالمينـــا

وفي التعلـــيم لا إنـــصاف فيهـــا ... فـــلا تلقـــي النـــصيحة في بنينـــا

لمـــا في الـــصدر مـــن ضـــغن وحقـــد ... وقـــد نـــصبت لـــضيعتنا كمينـــا

إذا التلميـــذ منـــا قربتـــه ... قريحتـــه لـــنجح القارئينـــا

تـــؤخره وتـــضرب في يديـــه ... وتقطـــع مـــن ثقافتـــه الوتينـــا

فيـــا أهـــل الجزائـــر شـــاركوني ... وكونـــوا للنـــصائح ســـامعينا

كتـــاب الله سمنـــاه بـــبخس ... ولـــو قمنـــا بواجبـــه كفينـــا

عوائـــد ديننـــا تركـــت وماتـــت ... وقلـــدنا الأجانـــب معتنينـــا

وذا القـــرآن بيـــنكم ينـــادي ... ويـــأمركم فكونـــوا عاملينـــا

أيرضـــى ذو الديانـــة مـــا يـــراه ... مـــن الفحـــشا بـــدين المـــسلمينا

نـــساء كاســـيات عاريـــات ... وأولاد تـــراهم مهملينـــا

كـــأن الله لم يفـــرض صـــياما ... ولم يكتـــب صـــلاة الناســـكينا

وكـــأس الخمـــر قـــد شـــربت جهـــارا ... فمـــن هـــذا التهتـــك قـــد بلينـــا

إلى مـا لـيس يحـصى مـن عيـوب فعفـوا يـا غيـاث المؤمنينـا

فتيهـي يـا جزائرنـا دلالا نجـوت وذا طليـق تحملينـا

وأحمـد العبيـدي صـاغ هـذا وأبعـدت بحينـا مـستبينا

وعند وفاة أخيه الشيخ الطاهر بتقرت يوم الأحد 28 شوال 1387هـ /28 . 01. 1968م، رثاه بقصيدتين، إذ كان يحترمه احتراما كبيرا ويسميه (سيدي الشيخ) والقصيدتان جمع فيهما حياته وصور نشاطه، والسبب الذي دعاه إلى رثاء أخيه بقصيدتين، أن الشيخ أحمد نظم القصيدة الأولى في خمس عشرة بيتا، فطلب منه ابن أخيه الشيخ الطاهر، والمسمى المكي باختصار قصيدة أخرى حتى تنقش على رخامة توضع على قبره، فنظم القصيدة الثانية وتتكون من عشر أبيات.

والقصيدة الأولى يقول فيها:

كنـا نؤمـل أن تبقـى إلى حـين لنظـرة مـنك تحـبوني وتحميـني

والـشمل مجتمـع والنـاس في نعـم والعلـم ينـشر والبـشرى تحيـيني

لكنـما هـذه الآمـال كاذبـة والمـوت يهتـف في كـل الأحـايين

قـضيت فينـا زمانـا كنـت تعمـره بـالخير والـذكر والتـدريس في الـدين

هـذي المنـابر بالإرشـاد تعمرهـا وفي المحـابر تنميـق بتحـسين

إن العلـوم إذا انـدسدت مـسالكها كـشفت عنهـا الغطـا حقـا بتبـيين

أبكـي عليـك بـدمع لـست أملكـه ياطـاهر الـذيل يـازهر الريـاحين

وفي تآليفـك الغـراء مفتخـر والحـق يبـدو علـى رغـم الـشياطين

مـا دمـت حيـا ونـار الفقـد في كبـدي لا ينطفـي حرهـا ليـوم تكفـيني

إن جلـت في النظم فاعجب من محاسنه أو جئـت بـالنثر فـاسمع للـبراهين

يـــا حـــسرتي ذهبـــت أيامـــه ومـــضى ... وفي فـــؤادي حريـــق كـــاد يفـــريني

أفنيـــت عمـــرك في القـــرآن تدرســـه ... ودرســـك العـــذب مـــأوى للعـــرانين

نم ياعبيـــدي في تقـــرت مبتهجـــا ... ممتعـــا في نعـــيم الخلـــد بـــالعين

فيـــا ذويـــه وإنـــي كنـــت أولهـــم ... صـــبرا جمـــيلا يـــسلي كـــل محـــزون

رحمـــاك يـــا رب بالأســـتاذ ترحمـــه ... وجـــد بخـــتم جميـــل منـــك يرضـــيني

أما القصيدة الثانية المختصرة فهي كالتالي:

رمـــز دال أي أربـــع[44] في ســـناء ... ولـــد الـــشيخ طـــاهر ذو الثنـــاء

أي في الجـــاري مـــن قرننـــا زاد فخـــرا ... وثنـــاء بالطلعـــة الزهـــراء

حـــاز حفـــظ القـــرآن قبـــل بلـــوغ ... وتلقـــى العلـــوم بالخـــضراء

وبـــالوادي علـــى شـــيوخ فخـــام ... جـــازهم ربنـــا بخـــير ثنـــاء

وأجـــازوه في العلـــوم جميعـــا ... للتحلـــي بالحليـــة الـــشماء

جـــاء تقـــرت رمـــز بـــاء وكـــاف[45] ... فـــارتوت مـــن علومـــه الـــسحاء

وتآليفـــه تزيـــد علـــى عـــشـ ... ـرٍ وخمـــس مفيـــدة للرائـــي

عـــاش فينـــا ثلاثـــة وثمـــانين ... وراح لمنـــزل الـــسعداء

جـــازه عـــن جهـــاده يـــا إلهـــي ... وارض وارحـــم واحـــشره في الفـــضلاء

والعبيـــدي أحمـــد يطلـــب الـــصبـ ... ـر علـــى فقـــده فجـــد بعطـــاء

كان الشيخ أحمد يهوى الشعر الصوفي، إذ كان يقرظ الشعر لمدح شيوخ الطريقة الرحمانية العزوزية بالوادي مثل: الشيخ سيدي سالم العائب، وابنه الشيخ محمد الصالح وغيرهما. كما نظم قصيدة رائعة باللغة الفصحى يمدح فيها الشيخ عبد القادر الجيلاني، بالإضافة إلى ذلك، كان يهوى سماع

الأغاني الصوفية المتداولة لدى أتباع الطريقة الرحمانية، وكان يحضر جلسات الحضرة لسماع المديح، وقد حملت إليه عام 1976 شريطا صوتيا يحتوي على بعض القصائد العزوزية ألقيت ليلة 27 رمضان بزاوية سيدي سالم، أسمعته إياها بإقامته بالديار الخمس بالحراش، وقد تأثر كثيرا عند سماعها مما يؤكد اهتمامه البالغ بهذه الطبوع الجيدة. كما كانت له قصائد كثيرة يؤديها أتباع الطريقة الرحمانية في المناسبات المختلفة، وها هي نماذج منها:

قصيدة الشيخ أحمد العبيدي يمدح فيها شيخه سيدي سالم العائب[46] المولود عام 1186هـ والمتوفى عام 1277هـ.

اللـه اللـه اللـه	اللـه اللـه اللـه	سالم ولي الله
قطب أهل الدائره	ربي عل مقامه	دنيا وآخره
يافوز من يزور	ضريحك المبرور	أنت الصيد العقور
تغيث الحائرا	يلوح عليك النور	إن جئت زائرا
متع منك البصر	في القبهيا أبر	بهاها المعتبر
يزين الناظرا	فاطلب ولا تضجر	فلست خاسرا
هذا القطب الأمين	سراج المريدين	هذا الحصن المتين
سلومه الفاخرا	بالله يا مسكين	زره لتظفرا
حباك ربنا	جمالا وسنا	يا مبرئ الضنى
طبيبي الماهرا	نرجوك تاتينا	يا شيخا بادرا
عار إذا تجفى	يا سلطان الوفا	يا صاحب الصفا
خديمك بائرا	بحق المصطفى	اجعلني طاهرا
كليمه مرضيه	عن صالح[47] شيخي	من زار الزاويه
بنيه ظاهرا	كل خطوه يا خوي	حسنات عشرا
سلم عليه وزيد	الصالحالفريد	ومصباح السعيد[48]
ذي الهمه الباهرا	من ربنا المجيد	أمدادهم سائرا
يا ربي ياربي	احفظ لي نسبي	ونسب العائب
ساداتي الكبرا	بجاه المربي	علال بن عمرا[49]
صل يا ذا الجلال	على النبي والآل	وصحبه الأبطال
شذاهم عاطرا	وارحم يا متعال	قطب أهل الدائرا
وقائل النظام	أحمد ذو الآثام	ابن العبيدي رام
حصول المغفره	ويرجو يا سلام	ختاما زاهرا

وله أيضا:

لا إلــه إلا الله خالق الأكوان طه رسول الله
الصادق العدنان سالم طب العله رائس الديوان
نبتدي نظامي بعون المنان وأزكى سلامي
في كل أزمان للنبي التهامي صاحب الفرقان
والآل الأسود والصحب الشجعان أصحاب الشهود
وأهل العرفان والشيخ المقصود سالم السلطان
مولى القبه الخضره والسر الرباني مداوم للحضره
بذكر الرحمان شيخي باغي نبرى داويني بركاني
عجل يا عزيزي واصلح لي جناني بالغوث العزوزي[50]
مرشد الإخوان وعلاله فوزي الزاهد الفاني
بأهل الطريقا صرخة الجيران أنقذ الغريقا
في بحر الهجران كن له رفيقا في يوم الميزان
هذي الخلوتيه غالية الشان أسرارها قويه
شاعت في الأركان طريقه مرضيه مددها نوراني
يا داخلها أبشر برضى الرحمان وفي يوم المحشر
تبقى في أمان في الجنه تتبختر تشرب من كيسان
بالعلم تنفجر والفيض الرحمان سندها محرر
ساطع البرهان مزاياها يقصر عنها وصف لساني
في حماها ربي أدخلني واخواني تكرم بالقرب
للعبيدي الفاني رض عني حبي العائب حناني

وله أيضا في شيخه سيدي سالم:

أيا سادتي يافقرا إذا تريدون ذخرا زورو ضريح ذور الصحرَ
سلومه صاحب البرهان العائب إمام الزمره عنه الرضى والغفران
باسم الإله نبدا ننظم والصلاة على المعظم طه نبينا المكرّم
نمدح على غالي الشان العائب إمام الزمره عنه الرضى والغفران
إذا تريد ياأخيّ ترقى المراقي العليّه عليك هذي الخلوتيه
هي طريق الضمان العائب إمام الزمره عنه الرضى والغفران
طريقة الرجال الساده أهل العلوم والإفاده لهم سخا وزهاده
شربوا كؤوس العرفان العائب إمام الزمره عنه الرضى والغفران
أقطاب ومؤلفون سكارى وعارفون على الحدود واقفون
لاحت أنوارهم أعيان العائب إمام الزمره عنه الرضى والغفران

لهم شعاع عال مشرق ... في غربنا وفي المشرق ... شراب أهلها يدفق
على المريد كل أزمان ... العائب إمام الزمره ... عنه الرضى والغفران
فاحت أسرار الطريقه ... بسيدي سالم حقيقه ... احفظ إلهي فريقه
واجعلهم في اعلى مكان ... العائب إمام الزمره ... عنه الرضى والغفران
يا سالم يا شيخ الخلوه ... أسقيني الخمور الحلوى ... يبرى قليبي ويروى
ويصير له لمعان ... العائب إمام الزمره ... عنه الرضى والغفران
جيتك بجاه العزوزي ... الغوث فاتح الرموز ... وعليّ كنز الكنوز
زول علي الأدران ... العائب إمام الزمره ... عنه الرضى والغفران
بجاه الأزهرِ النصاح[51] ... والتارزي[52] ذي السماح ... والحقني منعش الأرواح
ماحي النفوس والشيطان ... العائب إمام الزمره ... عنه الرضى والغفران
والنجل سيدي مصباح ... والصالح نخبة الملاح ... صف عيوبي واجراحي
أنا خديمك حيران ... العائب إمام الزمره ... عنه الرضى والغفران
أيا صدور المواكب ... أتيتكم دمعي سائب ... فلا ترجعوني خائب
بالوصل خاطري مطمان ... العائب إمام الزمره ... عنه الرضى والغفران
يا صرختي قربوني ... وفي الحمى أدخلوني ... وبالوصول بشروني
نبقى معاكم يقظان ... العائب إمام الزمره ... عنه الرضى والغفران
ورحمة الكريم العالي ... على أستاذنا المفضال ... الصالح درة اللآل
في الفضل فاق الأقران ... العائب إمام الزمره ... عنه الرضى والغفران
ونجل العبيدي يمدح ... أهل الطريقه ويرح ... عسى الإله ربي يفتح
وينظمه في الإخوان ... العائب إمام الزمره ... عنه الرضى والغفران
أزكى الصلاة والسلام ... على الرسول التهامي ... والآل أهل التسامي
كذا الصحابه الشجعان ... العائب إمام الزمره ... عنه الرضى والغفران
والأولياء الكرام ... والعلماء الأعلام ... والتابعين بالدوام
وسلومه صاحب البرهان ... العائب إمام الزمره ... عنه الرضى والغفران

وله أيضا :

الله لا إلا الله ... لله ربي الدائم ... حبيبي رسول الله ... وشيخي سيدي سالم
باسم الإله القادر ... الواحد المصور ... أزكى سلام عاطر ... عن طه أبي القاسم
ترقى بذي الطريقه ... طريقة الحقيقه ... أنوارها شريقه ... رياضها مواسم
ثمارها جنيه ... قطوفها دانيه ... طريق الخلوتيه ... السادة الأعاظم
جاء بها العزوزي ... الكاشف الرموز ... مولى الثنا والفوز ... غوث البرايا العالم
حباه ذو المعالي ... زكاه في الكمال ... سما على الرجال ... في العرب والأعاجم
خلا عن الرذائل ... تحلى بالفضائل ... فزول الغوائل ... واجعل قليبي ناعم
دليل أهل الحضره ... ذو بهجة ونظره ... أرق المريد بنظره ... يصير في الأكارم

ذكاره نفاع ونوره لماع وحصنه مناع قرب تر المغانم
ربى علي الزاهد وحفوظه المجاهد [53] كذاك غير واحد على الصراط سالم
زول علي أضراري يا بهجة الصحاري بشيخك الأزهاري والتارزي الفاهم
طال ندائي عنك أرجو دواء منك فأنت مولى البركه بأمر رب قائم
ظني بأن الشيخ يزول الأوساخ عني فإن تراخى يرخديمه لائم
كيفاش يا خلاني شيخ الصفا خلاني عار إذا يجفاني ونابحبوهائم
لومي على السلطان الصالح الفطان بن سالم ضو اعياني من فضله تعاظم
ما أبهاهيا رفقاي عليه طال بكاي باغيه يبري داي ويقول عبدي ناجم
نأتيه مثل البرق في الغرب أو في الشرق صلني وبرد حرقي فالنوم عني حارم
صفت بكم أوقاتي يا كمل السادات عنكم كلامي مواتي وعقدي فيكم جازم
ضيف على الأعتاب يروم فتح الباب أشكولكم أوصابي فضري متراكم
عرفتكم بالفضل وبالسخا والبذل حاشاك ترضى خذلي يا فخري سيدي سالم
غيور شيخ الزمره شراب كأس الخمره يارب قو أمره وانشره في العوالم
فحل الفحول الهادي لطرق الرشاد عطاب للأعادي بسيف عزم صارم
قولوا الخديم الجاني ابن العبيدي الفاني هنا وفي الجنان يكن معانا دائم
سرك سرى وفاح وملأ البطاح وبدر رشدك لاح تسير سيرا عازم
شاتيك تأتي لي يا عز الخلوتيه بجاه سيدي علي ابن عمر الحازم
هيا على سرحان برد علي أمحاني واقبل مني ألحاني واحضر لي في العظائم
والله ماني راجع عن حبكم وهاجع وفي قليبي اماجع وليس لي سواكم
لا تتركوني ملقى يا ساداتي في حرقه أنا الخديم حقا في بحر ذنب عائم
يا خالق البريه يا واسع العطيه بخاتم الأنبيا اغفر لهذا الناظم

.وله أيضا قصيدة يمدح فيها شيخه محمد الصالح بن سيدي سالم :

اللـه يا باري صل على المختار من جاء بالفرقان
والصحابه أهل الاصطفا والإنابه وآله الأعيان
باسم القادر أبدا نظمي على الليث الخادر الصالح السلطان
تأتي النفحه عن يد شيخي مولى الطفحه من بحره طوفان
ثبت قلبي وارزقني مقام القرب وعامل بالإحسان
جيتك هارب من شر الهوى يا مراقب أبعد عني الشيطان
حن علي بالأزهاري ورجال الخلوتيه وجملة الديوان
خل نفسك وأت للاشياخ وتمسك بعهدهم تزيان
ديرقبالك شيخك يامريد واحفظ حالك تبقى في الامان
ذكرك شاعا وعم الارجا والاصقاعا بكم يزول الران
ربي رادك في رفع المقام قوى زادك فقت على الأقران

زوره بالله فان ذا المقام يبري العله لا تشكيا إنسان
طبعي مال محبتي في سيد الرجاله تزيد كل ازمان
ظني نرقى بهمتك يا من أنار الطرقا يهدي الى الديان
كيف يرجع عن هذا الطريق وهوالأنفع من فضله قد بان
ليس الفخر إلا في الأذكار والذخر في يوم الميزان
من يتعرض عن هذا الأستاذ عدو ترضرض ليس له جبران
نوركلاح ونشر الفلاح منك فاح يا منقذ الكسدان
صالح سيدي نبغيك يا ذخري تاخذبيدي في موقف الأحزان
ضاع دليلي من فرقة الإمام الجليل احفظه يا رحمان
عارك راني وقلبي مريض ماك تراني عجل لي بالبريان
غيرك لا شي حبك يا سلطان جا في جاشي فخلاني هيمان
فوزي بيك يا نور الطريق بادي بيك أسق الفتى اللهفان
قل لي ناجي يا هذا الخديم طبك ساجي قبلت بالرضوان
سرك ساري باذن الإله القهار عطفه على الحيران
شاتي نظره في وجهك الأنور نغره نغره يا صاحب البرهان
هوهو فخر المرشدين ذو الفتوه الصالح المحسان
واثق بالله هذا العبد أتاك تائه أصلح له الجنان
لا تبقوني من بين الإخوان كالمسجون بالمصطفى العدنان
يا أسيادي من يحب الشيخ في فؤادي من أعظم الخلان
والعبيدي أحمد المسكين مد الأيدي بالذل يا حنان
أغفر وزره واشرح إله العالمين صدره وجملة الإخوان

وفي الختام يتضح لنا أن الشيخ أحمد كان عالما في زمانه، وقد ساهم مساهمة معتبرة سواء في التعليم والتوجيه والوعظ والإرشاد، أو في ميدان التأليف، فرحم الله شيخنا وأسكنه فسيح جنانه، وجازاه عنا خير الجزاء. وقد قام جماعة من أهل الخير بإطلاق اسمه على مدرسة[54] أسست بالوادي لتحفيظ القرآن الكريم ونشر العلم الشريف وهي تنشط مشكورة ومأجورة، وتساهم في بناء الجيل الجديد بناء إسلاميا عربيا ووطنيا.

ـ الهوامـــش :

(1) حسبما ورد في نسخة من الدفتر الأصلي لشهادة الميلاد رقم 9528 مؤرخة في 2004/9/04م، فهو عبيدي أحمد بن لعبيدي بن على.

(2) عبد السلام سليماني: الشيخ الطاهر العبيدي بمناسبة عيد العلم. محاضرة ألقيت بالمسجد الكبير بتقرت يوم الجمعة 14 أفريل 1983. مرقونة بالآلة الكاتبة ص 2.

(3) إبراهيم بن عامر: كتاب الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، طبعة الدار القومية للنشر 1977، ص281.

(4) مقابلة شخصية مع سعدية العبيدي (بنت الشيخ أحمد) في صيف 2003 بمنزلها بالوادي.

(5) الطاهر العبيدي، رسالة الستر، تحقيق وتعليق د./محمد محده. طبعة دار البعث بقسنطينة عام 1985، ص5.

(6) عبد السلام سليماني، المرجع السابق، ص2.

(7) مقابلة شخصية مع الشيخ أحمد العبيدي عام 1968 بمنزله بالوادي.

(8) مقابلة شخصية مع محمد الطاهر العمودي (محاسب متقاعد، قريب للعائلة) عام 2003 بمنزله بالوادي .

(9) مقابلة شخصية مع الشيخ أحمد العبيدي عام 1968بمنزله بالوادي.

(10) هو الشيخ محمد العربي بن محمد الصالح بن موسى (موساوي). ولد عام 1290هـ/ 1873م بالوادي. كان غزير العلم، بذل جهودا معتبرة في التدريس بزاوية سيدي سالم، ومسجد سيدي المسعود بالوادي، ثم انتقل إلى تقرت ودرس بالمسجد العتيق وشرع في تفسير القرآن الكريم حتى وصل" وإن عزموا الطلاق" فتوفي في ذي الحجة عام 1322هـ/1905م. اتصف بالورع والزهد والتواضع ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أنجب ابنا اسمه الميداني المتوفى عام 1956 بالوادي. ويعد من أشهر علمائها، ومن تلاميذه الشيخان الشقيقان الطاهر وأحمد العبيدي. رثاه تلميذه الطاهر العبيدي عند موته بقصيدة طويلة قال فيها:

ليس للحال بقاء فاحذروا ... سطوات الدهر واللهو ذروا
واذكروا قوما صفا الوقت لهم ... فرحوا بوقتهم واستبشروا
مثل أهل سوف قد كان لهم ... سيد دراكة محرر
نجل موسى العربي المرتضى ... فهو بحر وسواه جعفر

انظر: علي غنابزية، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ/19م. رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر. قدمت لجامعة الجزائر عام 2002 (غير مطبوعة). ص152 ـ 153.

(11) الشيخ عبد الرحمن العمودي ولد بالوادي وتزوج وأنجب بعض الأولاد منهم : محمد الصالح وعبد الله وبنتين هما مريم والزهرة، اللتان تزوجهما عبد السلام العمودي. كان مقيما بحي المصاعبه، درس عليه بعض التلاميذ مثل: إبراهيم بن عامر والطاهر العبيدي وأخيه أحمد وغيرهم من العلماء الأجلاء. قيل أنه أول من أدخل علم النحو إلى الوادي. كان متصوفا ورعا زاهدا، وحبرا عابدا، كثير التجوال، ناشرا للعلم، وقد عمل في سلك القضاء بكوينين، وكانت بينه وبين الشيخ محمد المكي بن عزوز رابطة قوية ومراسلات إخوانية علمية. توفي بالوادي عام 1327هـ/1910م، ودفن بمقبرة الأعشاش. استوطن ابنه عبد الله مدينة توزر ومازالت عائلته هناك. انظر: إبراهيم بن عامر، البحر الطافح، ص36. وتقاييد مصطفى سالمي، ومحمد الطاهر العمودي السابق ذكره.

(12) الشيخ الطاهر العبيدي (1304 ـ 1387هـ) بن العبيدي بن علي بن بالقاسم بن عماره بن بالقاسم بن سليمان بن عبد الملك بن بالهادي بن أحمد بن خذير بن عبد العزيز بن سليمان بن سالم بن إبراهيم بن عبد الحليم بن عبد الكريم بن عيسى بن موسى بن عبد السلام بن محمد بن جابر بن جعفر بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن علي بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ. انظر: شجرة العائلة بخط الشيخ أحمد العبيدي، وعندي نسخة منها.

(13) مقابلة شخصية مع الشيخ البخاري بن عبد الحفيظ عوينات (معلم متقاعد، ومن تلاميذ الشيخ) يوم 03 ماي 2006 بمنزله على الساعة 11 و30 د.

(14) محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر الطولقي (1293م ـ1377هـ/1873 ـ 1958م)، أصل والده من طولقه ولاية بسكرة، هاجر إلى نفطه، فولد له محمد الأخضر بها يوم 26 رجب/23 جويلية، صار مدرسا كبيرا بجامع الزيتونة، ثم سافر إلى مصر وتولى مشيخة جامع الأزهر في 27 ذي الحجة عام 1371هـ/ 07 ـ 9 ـ 1952م، غير أن اعتلال صحته أجبره على الاستقالة من منصبه يوم 2 جمادى الأولى 1373هـ/08 ـ 1 ـ 1954م. توفي بعد ظهر يوم الأحد 13 رجب 1377هـ/12 ـ 2 ـ 1958م دون عقب، ودفن بالقاهرة. انظر: أحمد البختري، الجديد في أدب الجريد، الدار التونسية للتوزيع، تونس 1973، ص 235 ـ 240.

(15) أحمد جمال الدين، كان حيا عام1323هـ/1915م، فقيه. ولد ببني خيار، وتلقى العلم بجامع الزيتونة، وتولى التدريس به، وكان من المقربين لدى القصر الملكي والسلطة الاستعمارية، وله مواقف مشبوهة تنم عن ضعف في العقيدة الوطنية، وانصاع لمآرب السلطة الاستعمارية. كان قادري الطريقة، متشبعا بالخزافات، عاملا على ترويجها بقلمه، وهو من أقطاب المتزعمين لحركة مقاومة آراء جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا. من تلاميذه الشيخ أحمد العبيدي الذي وصفه لي بأنه كان طويل القامة، أبيض البشرة، تبدو عليه علامات الهيبة والوقار. ألف مولدا في الشيخ عبد القادر الجيلاني. أتمه في ذي الحجة من عام 1320هـ، وهو على نسق مولد البرزنجي، سماه "النشر العاطر بمولد الشيخ عبد القادر". كان شغوفا بكرامات الأولياء، كما ألف عدة كتب أخرى منها: بلوغ الأرب في مآثر الشيخ الذهب. وهو من بني خيار وشيخه في الطريقة، وكتاب السراج في معرفة صاحب التاج، وهو رسالة وجيزة في بيان حديث المعراج، ومختصر مولد البرزنجي، انظر: محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين. ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. الطبعة الأولى. 1982. ص50 ـ51.

أما الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، فهو ابن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الإمام الضليع في العلوم الشرعية واللغوية والأدبية والتاريخية، تعلم في الكتاب حتى أتقن حفظ القرآن، ثم تعلم ما تيسر من اللغة الفرنسية، والتحق بجامع الزيتونة عام1310هـ/1892م، حتى حصل على شهادة التطويع عام 1313هـ /1896م. قام برحلات إلى المشرق لأداء فريضة الحج، وإلى أوربا واستانبول، وهو أول من أحرز على الجائزة التقديرية للرئيس الحبيب بورقيبة عام 1968م. توفي يوم الأحد 13 رجب 1393هـ/12 ـ 8 ـ 1973م ودفن بمقبرة الزلاج بتونس. من مؤلفاته: أصول الإنشاء والخطابة، والتحرير والتنوير في تفسير القرآن الكريم في30 مجلدا، وقصة المولد النبوي الشريف، ومقاصد الشريعة الإسلامية. ويعد كذلك من أساتذة الشيخ أحمد. انظر: محمد محفوظ، المرجع السابق، ج3، ص 304. 306. 307.

(16) عبد السلام سليماني، المرجع السابق، ص2. وأحمد بن السايح، (العلامة الشيخ الطاهر العبيدي الفقيه الصوفي). أسبوعية العقيدة بتاريخ 1992/02/05.

(17) المولدي أبو عراقية، وهو الولي الصالح الشيخ محمد المولدي بن أبي بكر بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي القاسم، وأصله من أشراف نفطة لأن والده الأستاذ أبا بكر وفد من نفطة إلى توزر أوائل القرن 13هـ، وأنشأ الزاوية القادرية الموجودة الآن بتوزر، يترأسها الشيخ الهاشمي بن الهادي منذ عام1960، عندما شب. أخذ في تعلم القرآن الكريم ثم العلوم الشرعية على أساتذة فحول مثل: إبراهيم أبي علاق وأبي حفص عمار المالكي العبيدي، وكانت أخلاقه مرضية، يحب الفقراء والمساكين، ويميل ميلا كبيرا إلى الأحاديث النبوية والعلوم الدينية وعلم السادة الصوفية، وقد أثنى عليه الكثير من العلماء والأدباء، ومدحه الشيخ إبراهيم بن عامر السوفي بقصائد كثيرة مدونة في سجل بزاوية توزر. توفي ودفن بمسقط رأسه بتوزر عام 1915/1335م. انظر: الجديد، ص 133 ـ137.

(18) حسبما هو مبين في شهادة صادرة عن رئيس المندوبية الخاصة لبلدية الوادي مؤرخة يوم 1964/9/25م.

(19) مقابلة شخصية مع الشيخ البخاري بن عبد الحفيظ عوينات (معلم متقاعد، ومن تلاميذه الشيخ) يوم 03/ماي 2006 بمنزله على الساعة 11.30.

(20) مقابلة شخصية مع سعدية العبيدي (بنت الشيخ أحمد) في صيف 2003م بمنزلها بحي المصاعبة بالوادي مساء.

(21) مقابلة شخصية مع الشيخ البخاري بن عبد الحفيظ عوينات (معلم متقاعد، ومن تلاميذه الشيخ) يوم 03/ماي 2006 بمنزله على الساعة 11.30.

(22) مقابلة شخصية مع الشيخ أحمد العبيدي عام 1968بمنزله بالوادي.

(23) البرزنجي هو مفتي المدينة المنورة. جعفر الحسني البرزنجي (1690 ـ 1766). وعنوان مولده «الجوهر في مولد النبي الأزهر»، طبع بمصر سنة 1889. وله شروح.

(24) مقابلة شخصية مع سعدية بنت العبيدي (بنت الشيخ أحمد).

(25) مقابلة شخصية مع الشيخ البخاري بن عبد الحفيظ عوينات.

(26) أما عنوان الكتاب الذي أهداه إلي فيوسم بـ(تفسير الجلالين للقرآن العظيم) للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى عام 911هـ، والإمام جلال الدين محمد بن أحمد المحلي المتوفى عام 864هـ. وبذيل صحائفه: رسالة تتضمن ما ورد في القرآن الكريم من لغات القبائل، لأبي القاسم بن سلام. وبالهامش ثلاثة كتب: لباب النقول في أسباب النزول للجلال السيوطي. معرفة الناسخ والمنسوخ، للإمام أبي عبد الله محمد بن حزم. الألفية في تفسير غريب ألفاظ القرآن، لأبي زرعة العراقي. الطبعة الثانية 1373هـ /1953م. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

(27) مقابلة شخصية مع الحسين النوي (إمام متقاعد وتلميذ الشيخ) عام 2000م بمنزله بتقدين بجامعه.

(28) مقابلة شخصية مع سعدية بنت العبيدي (بنت الشيخ أحمد).

(29) مقابلة شخصية مع الحسين النوي (إمام متقاعد وتلميذ الشيخ).

(30) مصطفى سالمي، الدر المصفى من تقاييد الشيخ سالمي مصطفى، جمعه وعلق عليه علي غنابزيه عام2000.

(31) حسبما هو مبين من نسخة من سجلات شهادات الوفاة رقم 79 مؤرخة في 2004/9/04 م.

(32) وسيلة المتوسلين بفضل الصلاة على سيد المرسلين ﷺ تأليف الشيخ بركات بن أحمد بن محمد العروسي القسنطيني. الطبعة الأولى 1965م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

(33) الطويل مسعود محمد، مقدمة حول النصيحة العزوزية في نصرة الأولياء والصوفية للشيخ الطاهر العبيدي، مطبعة حجازي بالقاهرة بدون تاريخ، ص6.

(34) مسجد سيدي المسعود الشابي ينسب إلى مؤسسه محمد المسعود بن محمد بنور بن عبد اللطيف. وهو جد الشابية بتوزر، الفقيه الصوفي، المتكلم، المؤرخ، من مؤلفاته: له 18 تأليفا في الفقه والتصوف والكلام والتاريخ نذكر منها: الفتح المنير في التعريف بالطريقة الشابية وما ربوا به الفقير. بين فيه أصول الطريقة الشابية وقدم لها بمناقب مشائخ الطريقة، وفي مقدمتهم مؤسسها جده أحمد بن مخلوف. والمقرب المفيد في فروض العين والتوحيد، 3 أجزاء، الأول في التوحيد، والثاني في الرعاية، والثالث في الفقه. والدر الفائض، لخص فيه أصول الطريقة كما وضعها أحمد بن مخلوف وابنه الشيخ عرفة، وفسر وحلل هذا الكتاب في الباب الرابع من كتابه الفتح المنير. ومطالع الأنوار ومواهب الأسرار في خمسة أذكار.

كان استشار شيخه أبا الغيث القشاش بمدينة تونس في الهجرة إلى باجة، فأشار عليه بالاستقرار في أطراف العمالة، وللاختلاف بينه وبين أخيه عبد الصمد، وخوفا من أن يقتله مثلما قتل أخويهما قاسما، انتقل إلى جبل ورغة قرب الكاف، وعبد الصمد كان متمردا على الأتراك العثمانيين، ويؤلف ضدهم الجموع، وكان يسعى لانضمام أخيه المترجم له، إلا أنه لم يكن على هواه في السياسة، وكان منصرفا إلى تحصيل العلم وإرشاد الناس، وكان أخوه عبد الصمد يستهزئ به لأجل ذلك ويقول له: «خليك طويلب علم» ومن ثمة حاول قتله، ففر منه إلى جبل ورغة، ورغم ذلك فإن الاتراك ـ بسبب صلته بالجماهير وانتسابه للطريقة

الشابية ـ ألقوا عليه القبض في تيروقرارين بالجزائر، علما بأنه وفد من بلدة توزر بتونس على سوف حوالي عام 1020هـ/ 1611م، وكان يتردد عليها حتى عام 1618م،
أسس مسجدا بقمار، وأسس المسجد الثاني بسوق الوادي يعرف باسمه، ولما استقر في جبل ششار قرب خنشلة، ضيق عليه أخوه عبد الصمد، ولم تمض على هذه المضايقة ثلاث سنوات حتى توفي عبد الصمد، وتوفي المترجم له بعده بنحو ثلاث سنوات بششار، ودفن بزاوية الشابية عام 1028 هـ/ 1618م.
انظر: إبراهيم بن عامر، الصروف ص192. ومحمد محفوظ، المرجع السابق. ج3، ط.1، 1984. ص132 ـ 133.

(35) الجبالي علي بن أحمد بن بالقاسم، من عرش الأعشاش بالوادي ومن مواليدها خلال عام 1887م، كان قيما ومؤذنا بمسجد سيدي المسعود وكان واقفا على ترميمه وتجديده. ارتبط بالمصاهرة مع الشيخ أحمد العبيدي، حيث تزوج ابنه البشير من بنت الشيخ أحمد وتدعى سعدية. وأنجب منها أربعة أبناء وبنتا يعدون من أذكى وألمع أساتذة الوادي ومن أثقفهم، وهم المرحومان: عز الدين كان أستاذ مادة الرياضيات بالمدرسة العليا للأساتذة بالقبة بالجزائر. وعلي وكان إطارا ساميا بشركة سوناطراك. وإسماعيل وهو أستاذ الرياضيات بالمدرسة العليا للأساتذة أيضا. ومحمد وهو أصغرهم يدرس مادة الرياضيات في ثانوية عبد العزيز الشريف بالوادي ومن خيرة أساتذتها اجتهادا وخلقا. كان علي متطوعا لخدمة المجتمع مثل القيام بغسل الموتى ومساعدة اليتامى والمحتاجين. وكان يؤذن لصلاتي الظهر والعصر في مسجد سيدي المسعود ، والمغرب والعشاء والصبح بمسجد اللقاشي بحي الأعشاش. وقف على تجديد بناء جامع سيدي المسعود فيما بين عامي1924م و1930. وكان يملك مع إخوته غابات النخيل في كل من تكسبت وميه باهي ووازيتن وتقرت وتماسين وورقلة. له سبعة إخوة وأختان أحدهما تدعى الزهرة والدة الشهيد عبد القادر زبيدي بن الطيب (زعيرة)، توفي يوم 1941/04/15. ودفن بمقبرة الأعشاش بالوادي.
مقابلة مع البشير جبالي ابن المترجم له، من مواليد الوادي عام 1924، لقاء يوم 2006/06/14 على الساعة 11.30 بالوادي.

(36) الشيخ أبو العباس أحمد بن علين صابر المصعبي النفطي، أجازه الشيخ العلامة خليفة بن حسن القماري السوفي (1711 ـ 1793م) الذي نظم متن مختصر العلامة أبي الضياء خليل بن إسحاق المصري (775هـ/1374م).كان مثالا للورع والصلاح، بلغ درجة معتبرة من العلم، وقد ذكره الشيخ محمد المكي بن عزوز في قائمة الجزائريين الذين أجازوه في العلم، وأنه أخذ عليه «صلوات» ابن ملوكة التونسي.
انظر ص40 في كتاب علي الرضا الحسني: محمد المكي بن عزوز حياته وآثاره، الدار الحسنية 1997.
وكان الشيخ أحمد بن علي بن صابر كثير الترحال ما بين جريد تونس ووادي سوف، واستقر في آخر حياته بالمدينة المنورة قبل الحرب العالمية الأولى، حيث توفي هناك ودفن في مقبرة بقيع الغرقد.
انظر: علي غنابزية. المرجع السابق ص152 ـ 153. و«فضاءات تراثية»، أوراق جامعية. منشورات المركز الجامعي بالوادي جوان 2005. ص21.

(37) وهو علم من أعلام البيان، أشهر من نار على علم، هو الشيخ إبراهيم البختري بن محمد ينسب إلى البخاترة، وهي طائفة بتوزر. بعد أن أتم حفظ القرآن الكريم بتوزر، تلقى مبادئ العلوم بها، ثم واصل دراساته بجامع الأزهر الشريف بمصر، و كان من أساتذته إبراهيم الدسوقي والشيخ الحليش وغيرهما. وقد جمع شهاداته العلمية في 16 فنا من فنون العلوم في كتاب خاص، ثم توجه من مصر لأداء فريضة الحج، وبعدها طاف بأرض الحجاز وتعرف على أهله وتباحث مع علمائه، ثم رجع إلى توزر وشرع في التدريس فكان بحرا زاخرا ينبض بالعلم، وتولى القضاء فكان خير قاض عادل. وقد على سوف ودرس بزاوية سيدي سالم وبمسجد سيدي المسعود بالوادي. ألف العديد من الكتب منها :اختصار تحفة الحكام لابن عاصم. في 300 بيت. وشرح على السمرقندية في الاستعارات. وشرح على الآجرومية. وشرحان على متن ابن عاشر صغير وكبير. وشرح الرجبية في علم الفرائض. واختصره وسماه « النفائس البخترية »
وله قصائد وأشعار منها القصيدة التي نظمها بمناسبة المولد النبوي الشريف ومطلعها:

طوالع السعد حلت دارة الحمل والنصر في بيضة الإسلام لم يزل

وختمها بقوله :

يا رب صل على النور الذي ختمت به النبوة عند الله في الأزل

ونظم قصيدة في شأن شيخ الطريقة الرحمانية بالوادي الشيخ محمد الصالح بن سيدي سالم، قال فيها :

يا خالق الخلق يا مولانا يا أزلي صل على المصطفى المختار في الأزل

والآل والصحب والأتباع كلهم واغفر لإخواننا ما كان من زلل

توفي ـ رحمه الله ـ عام 1317هـ/1903م. انظر: أحمد البختري، المرجع السابق ص 109. 117. وإبراهيم بن عامر، البحر الطافح، مطبعة بيكار، تونس.1323. ص48. ومحمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين. ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى.1982. ص109.

(38) هو الشيخ الطالب علي بن نصر، أشهر النساخين، كتب بخط يده المصحف الشريف، وغيره من المخطوطات، كان له خط جميل، توفي في صفر 1340هـ/ أكتوبر 1921م بالوادي. انظر: الشيخ مصطفى سالمي. المرجع السابق(مخ).

(39) العامري، هو الشيخ إبراهيم بن محمد الساسي بن عامر المتوفي بالوادي في 14 ربيع الأول عام 1351هـ/جويليه 1932م. ألف عدة كتب منها : البحر الطافح في بعض فضائل شيخ الطريق سيدي محمد الصالح. والجواهر الحسان في بعض ما يتعلق بالمعلمين والمتعلمين من حملة القرآن. ونيل المرام من رسالة كشف اللثام. وحاشية على شرح السنوسي الكبير. وحاشية على الشذور. وشرح الشيخ ابن عاشر، وشرح الآجرومية، وشرح رسالة الأخضري في الحساب. وشرح رسالة سيدي محمد الرقيق في مبطلات الصلاة. انظر عبد الباقي مفتاح، المرجع السابق ص 178. كما له ديوان شعر ملحون ما زال مخطوطا، وعندي نسخة منه.

(40) صار محمد بن موسى بن محمد (حمه أموسى) قائدا على الوادي يوم 1874/02/24 وبقي مدة تسعة أشهر، حيث صار شيخ عرش الأعشاش وأولاد أحمد والربايع والفرجان وتوفي عام 1319هـ/1900م، ثم جاء بعده ابنه محمد العيد عام 1900مالذي ارتقى إلى رتبة «آغا» في 1349هـ/23. 05. 1930م، وعند وفاته عام 1942م، تولى بعده ابنه عبد الغني الذي بقي إلى غاية 1962 حيث عين شيخا للبلدية يوم 02 رجب 1379هـ /غرة جانفي 1960م، عندما شرع في العمل بالنظام المدني في الوادي وأحوازه إلى غاية الاستقلال حيث عزل. توفي عبد الغني الذي تزوج سكينة بنت الشيخ الطاهر العبيدي، ليلة الأربعاء 26 شعبان 1395هـ/ 03. 09. 1975م، على الساعة الثامنة ليلا وعمره 74عاما.

انظر: تقاييد الشيخ مصطفى، وتاريخ زاوية سيدي سالم للمؤلف محمد بن عزوز بن محمد الصالح (مخطوط).

(41) ألف الشيخ عبد الرحمن الثعالبي تفسيرا في القرآن الكريم عنوانه (الجواهر الحسان في تفسير القرآن). أما الشيخ العلامة أحمد بن محمد الصاوي المالكي فألف حاشية على تفسير الجلالين في ثلاثة أجزاء. وألف سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل المتوفى عام 1204هـ، كتابا في أربعة أجزاء عنوانه «الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية».

وألف محب الدين أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري كتابا عنوانه (ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن).

(42) الخضراء، وصف لمدينة تونس، حيث درس الشيخ في جامع الزيتونة.

(43) رحلة العياشي واسمه أبو سليم عبد الله بن محمد العياشي. ولد بقبيلة آيت عياش قرب تافيلالت بجنوب المغرب في شعبان 1037هـ/ ماي 1628م.

ألف رحلة سماها (ماء الموائد) وهي رحلة ضخمة ضمنها أخبارا وحوادث مختلفة شاهدها أو سمعها أثناء أسفاره، وأهم ما فيها وصف لطريق الصحراء والسكان والعادات وأحوال المعاش والأمن والحديث عن

العلماء والدين وأتعاب المسافرين، ورغم الاستطرادات الطويلة، فإن للرحلة قيمة لفتت أنظار المستشرقين الذين ترجموها كاملة أو جزءا منها وأثنوا عليها. وقد خصص العياشي صفحات عديدة في الجزأين من كتابه للجنوب الجزائري ولمدنه ولعلمائه ولتاريخه. توفي بسبب الطاعون بالمغرب الأقصى عام 1090هـ/ 1679م. انظر: مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الطبعة2 الجزائر 1981، ص 17.18.

(44) يشير بذلك إلى رقم أربعة، أي عام 1304هـ/1886م، الذي هو تاريخ مولد الشيخ الطاهر.

(45) يعني بالباء والكاف رقم 22، أي أنه رجع من تونس بعد إتمام دراسته وتوجه إلى تقرت وعمره 22 سنة.

(461) الشيخ سيدي سالم بن محمد بن احمد، ولد عام 1186هـ/1772م في وادي سوف، وتربى يتيما في حجر والدته، رحل إلى تونس طلبا للعلم والعمل، ثم رجع إلى الوادي وانخرط في الطريقة الرحمانية، وفتح زاوية بالوادي لنشر العلوم الشرعية والقرآن الكريم، وكان ذلك عام 1206هـ/1791م، وقد تخرج منها آلاف الحفظة للقرآن الكريم، توفي الشيخ عام 1277هـ/1860م ودفن بزاويته بالوادي، انظر: عبد الباقي مفتاح، أضواء، ص 174.176.

(47) الشيخ سيدي محمد الصالح بن سيدي سالم، ولد بالوادي عام 1263هـ/1846م، أخذ المشيخة عن والده. وكان كثير التردد على زيارة الشيخ مصطفى بن عزوز بنفطة، ظهرت على يده كرامات ذكرها الشيخ إبراهيم بن عامر في كتابه البحر الطافح، أخذ عليه الشيخان الطاهر وأحمد العبيدي أوراد الطريقة الرحمانية، توفي الشيخ محمد الصالح في صفر عام 1335هـ/27 .11 ـ 1916م ودفن بزاويته بالوادي. انظر: المرجع السابق ص176 ـ 182.

(48) الشيخ مصباح بن سيدي سالم رجل فقه وورع، عفيف اشتهر بتحكمه في علم الفرائض، ولد عام 1255هـ/1838م. أخذ تربيته الصوفية عن والده، ثم عن سيدي مصطفى بن عزوز بنفطه، عرف باجتهاده في العبادة وقيام الليل وأعمال البر والشفقة على الخلق، وكان غزير الدمعة، دائم الفكرة، توفي عام 1327هـ/ 1909م، عن عمر73عاما بعد أن مكث في المشيخة نحو نصف قرن، انظر: أضواء. ص176.

(49) الشيخ علي بن عمر ولد ببلدة طولقه عام1166هـ/1752م. أخذ الطريقة على الشيخ بن عزوز، عاش92 عاما ـ ما عدا سنوات الطفولة ـ في الوعظ والإرشاد والدعوة إلى طريق الحق، انتشرت على يده الطريقة في سائر أنحاء القطر الجزائري وكذلك في تونس والمغرب. توفي شهيدا يوم الخميس 3 ربيع الأول عام 1258هـ، ودفن بزاويته. انظر: أضواء ص147ـ148.

(50) محمد بن عزوز البرجي هو رائد الطريقة الرحمانية في الجنوب الشرقي للقطر الجزائري وفي وسطه وفي الأوراس وفي تونس حتى سميت الطريقة باسم العزوزية. ولد بالبرج من صحراء بسكرة في حدود عام1170هـ. اشتغل بتحصيل العلم. وأنجز تآليف عديدة. تتلمذ على يد الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري وأخذ عنه الطريقة، أدى فريضة الحج عام1232هـ. وبعد رجوعه من الحج توفي بالوباء في العام نفسه ودفن بقرية البرج. انظر: أضواء ص118.

(51) هو سيدي محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن يوسف الأزهري الجرجري، ولد فيما بين 1126 و1133هـ في وطن آيت إسماعيل بجبال جرجرة في منطقة القبائل ولاية تيزي وزو، سافر إلى مصر وتزوج في القاهرة ودرس بجامع الأزهر، ثم رجع إلى بلاده عام 1183هـ بعد غياب دام 30 سنة، ذاع صيته في الجزائر وكثر أتباعه، توفي ولم يعقب عام 1208هـ/ 1793م. انظر: المرجع السابق ص61 ـ 63.

(52) الشيخ محمد التارزي بن الشيخ محمد بن عزوز ولد عام 1227 أو1228هـ بالبرج، ثم هاجر إلى نفطة بجنوب تونس عام 1260، ومنها توجه إلى المدينة المنورة عام 1310 فمكث بها شهرين وأياما، ومرض قبل وفاته بنحو 18يوما، ثم توفي بها يوم السبت 7 أو8 ربيع الثاني عام 1310هـ، فكان عمره 82 أو83 عاما، ودفن بالبقيع، ألف كتابا، وله قصائد متعددة. انظر: الرجع السابق ص126 ـ 127.

(53) الشيخ عبد الحفيظ بن محمد بن أحمد الشريف الخنقي، ولد عام1203هـ/1789م بخنقة سيدي ناجي، شارك في ثورة الزعاطشة عام 1849م ودعا إخوانه للجهاد، ألف أشعارا عديدة وله رسائل، توفي عام1282هـ/ 1865م. انظر: المرجع السابق، ص168- 169.

(54) سميت مدرسة الشيخ العلامة أحمد العبيدي، أسستها جمعية البيان المتكونة من الأساتذة وحفظة القرآن الكريم من أبناء المنطقة. والهدف منها: أ- تعليم القرآن الكريم حفظا وترتيلا وفهما وتفسيرا.

ب- إعداد وتكوين أساتذة ومعلمين للقرآن الكريم، لهم من المؤهلات والكفاءات ما تمكنهم من حمل رسالة التعليم القرآني الحديث.

وفتحت المدرسة أبوابها يوم الاثنين 17 فيفري 2003. وانطلقت الدراسة يوم السبت 22 فيفري 2003، وكان عدد الطلبة آنذاك 18 طالبا. حيث تفتح المدرسة أبوابها للطلبة والطالبات على مختلف مستوياتهم وخاصة من تتوافر فيهم الكفاءة العالية، والقدرة على الفهم والتحصيل. وتتبع المدرسة الأساليب الحديثة في تحفيظ القرآن، حيث يلقن الطالب الجزء المقرر حفظه من الأستاذ مباشرة ثم يستمع إلى تفسيره. ويتلقى الطلبة دروسا ومحاضرات تكوينية كالتفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وعلوم اللغة العربية ... كما تمنح المدرسة للمتخرجين شهادة حفظ وختم للقرآن الكريم تؤهل الطالب للمشاركة في المسابقات المختلفة التي تنظمها الجهات المختصة. وبلغ المجموع الكلي لعدد الطلبة 346 طالبا يتوزعون على أفواج ومنهم من يتمتع بالنظام الداخلي وعددهم 34.

تحرص إدارة المدرسة التي يوجد مقرها بحي النور ومقر إقامة الطلبة بحي المنظر الجميل، بجد واجتهاد على النهوض برسالة التعليم القرآني الحديث وتطويره، وفق المناهج العلمية الحديثة والأساليب المعاصرة.

الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين والمنظمات العالمية للطلبة

(1955 ـ 1962)

بقلم

أ/ محمد السعيد عقيب

أستاذ مساعد مكلف بالدروس بقسم التاريخ

المركز الجامعي بالوادي

ملخص :

عمل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين على الصعيد العالمي وفق مبادئ عامة وأهداف محددة ، وكان المبدأ الأساسي هو مناهضة الاستعمار.

وسعى الاتحاد لتنمية علاقاته مع التنظيمات الطلابية وحركات الشباب في العالم، وكان من مهامه في عمله على هذا الصعيد ، رفض التعامل مع كل تقرير وموقف يتحاشى الموقف الصريح من الحق الشرعي في ثورات التحرر الوطني، كحق طبيعي لكل الشعوب .

ووفق المبادئ والأهداف المحددة ، أنشأ الاتحاد علاقاته مع أكبر منظمتين للحركة الطلابية العالمية : الاتحاد العلمي للطلبة ـ UIE ـ والندوة العلمية للطلبة ـ CIE ـ وأختار سياسة الحضور العالمي المتوازن بالمشاركة في جل الندوات والمؤتمرات الدولية الطلابية والشبانية.

Résumé :

L'action internationale de L'UGEMA suivait des principes généraux et des objectifs bien définis, le principe fondamental était l'engagement anticolonialiste,

L'UGEMA avait développé ses relations internationales avec les autres organisations estudiantins et des mouvements de jeunesse du monde.

L'union c'est en fonction , refusé à tout rapport avec celles qui évité de se prononcer clairement sur la légitimité des luttes de libération nationale et sur droit naturel de tous les peuples.

Dans les principes et les objectifs définis , L'UGEMA constitué des relations avec les deux grands organisations du mouvements étudiant international : l'union internationale estudiants " UIE " , et la conférence internationale étudiants " CIE " .et opta pour une politique des présence universelle et d'équilibre ,en participant à les conférences et les congrès internationale estudiantines et de jeunesse.

. تمهيد :

يعتبر تأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في جويلية 1955 ميزة هامة في مسار الحركة الطلابية الجزائرية، فمن خلاله استطاع الطلبة توحيد صفوفهم والالتحاق بصورة جماعية بجبهة وجيش التحرير الوطني، خاصة الطلبة الدارسين بالثانويات والجامعات الفرنسية.

والتحاق الطلبة بصفوف جبهة وجيش التحرير الوطني يعني قيامهم بمسؤوليات وأعمال مختلفة ومتعددة منها : العسكرية والتعليمية والنقابية والاجتماعية والسياسية.زيادة على هذا كان لهم نشاط على الصعيد الدبلوماسي برز من خلاله الاتحاد على الساحة الدولية و استطاع به كسب اعتراف الاتحادات والمنظمات الوطنية والدولية، وأصبح عنصرا بارزا في الحركة الطلابية العالمية.

وكان الهدف من هذا العمل إحداث صدى عالمي للقضية الجزائرية والتعريف بها. ولذا يعتبر انخراط الطلبة وقيامهم بهذا النشاط عاملا هاما أضاف دفعا آخر للقضية الجزائرية، وذلك لكونهم عناصر مثقفة وواعية بالرسالة التي تحملها على كاهلها من جهة، ولضرورة هذه الميزات في العمل الدبلوماسي من جهة أخرى، لأنه عمل يحتم الاحتكاك بالآخرين وربط علاقات مع مختلف الهيئات والمنظمات الوطنية والإقليمية والدولية.

ففي هذا المجال استطاع الاتحاد نسج علاقات وطيدة مع الاتحاد الوطني للطلبة التونسيين، والاتحاد الوطني لطلبة المغرب، وغيرهما. وعلى صعيد المنظمات العالمية ارتبط الاتحاد ببعض المنظمات على رأسها : الاتحاد العالمي للطلبة الممثل للكتلة الشرقية، والندوة العالمية للطلبة الممثل للكتلة الغربية .

فما هي المبادئ التي ارتكز عليها الاتحاد في علاقاته مع المنظمات العالمية ؟ وكيف استطاع حفظ التوازن في التعامل معهما رغم التناقض الحاصل بين المنظمتين المذكورتين ؟ وما هي النتائج التي حققها لصالح الثورة باعتباره ممثلا لها ومنخرطا في النضال الوطني من أجل الاستقلال؟.

. مبادئ الاتحاد وأهدافه في التعامل مع المنظمات العالمية :

استطاع الاتحاد ربط علاقات ودية، مع مختلف المنظمات الطلابية، الوطنية والعالمية، على اختلاف توجهاتها الإيديولوجية ومشاربها الثقافية،

وانتماءاتها الفكرية، وحتى السياسية. خاصة في ظل الصراع الذي عرفه العالم عقب الحرب العالمية الثانية، والذي عرف بالحرب الباردة.

واتبع الاتحاد في سبيل إرسائه لعلاقات على الصعيد العالمي سياسة مضبوطة، ومبادئ محددة، طبعت مسيرته، أكدها رئيس اللجنة التنفيذية له، في تقريره للمؤتمر الرابع، وحددها في ما يلي : « أولا: أننا نتعاون مع جميع المنظمات الطلابية، والشباب على أساس من الأخوة الصادقة، والمساواة بين جميع الاتحادات الوطنية.

ثانيا: أننا سنعمل بكل قوانا لمحاربة الاستعمار، ومساعدة البلاد التي تريد التخلص من أغلاله : وإننا نمد يدنا إلى كل المنظمات التي تعمل حسب هذا المبدأ، ونتعاون معها، وهذا ما جعلنا نبتعد عن بعض المنظمات التي لم توضح موقفها من الاستعمار، ومن حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها.

ثالثا : والمبدأ الثالث والأساسي هو الحياد الإيجابي لمنظمتنا، واستقلالها في الميدان العالمي، إذ كنا دائما نتجنب المشاكل الخاصة التي تؤدي إلى تقسيم العالم الطلابي إلى جبهتين، وكان رائدنا هو مبادئ ومصالح ثورتنا، والنضال التحرري للشعوب المستعمرة... ».[1]

إضافة لهذه المبادئ، رسم الاتحاد لتحركه على هذا المستوى المذكورة أهدافا، يسعى لتحقيقها، وعلى رأسها : « إنجاح الثورة، وتعزيز مركزها في العالم، وكان العمل هو إفهام الرأي العام الطلابي حقيقة الثورة الجزائرية، والآلام التي يعيشها شعبنا من جراء هذه الحرب البشعة التي تهدده بالفناء، كما كان علينا أن ننبه المثقفين الذين يعرفون الوجه الحضاري لفرنسا إلى الوجه الاستعماري الذي يناقضه تماما ».[2]

أما الهدف الثاني فقد تمثل في « إقناع العالم بأن بقاء الاستعمار، وسفك الدماء البريئة عامل مهدد للسلام العالمي، وبذلك كنا نرمي إلى توجيه النشاط الطلابي، إلى محاربة الاستعمار أين ما كان، وتعبئته للقضاء على مخلفاته. والأخطار التي تكمن في وجوده ».[3]

والملاحظ أن هذه المبادئ والأهداف تعكس بوضوح الارتباط الكبير. إن لم نقل الكلي. مع الأهداف التي حددتها الثورة الجزائرية نفسها، وبينتها في بيان أول نوفمبر، الذي نص على: « ... وغايتنا في الميدان الخارجي هي:

1. تدويل القضية الجزائرية.

2. تحقيق وحدة شمال إفريقيا في نطاقها الطبيعي العربي الإسلامي.

3. وموقفنا في دائرة ميثاق هيئة الأمم المتحدة هو تأكيد تعاطفنا وتضامننا الفعال إزاء كل الأمم التي تؤكد كفاحنا التحرري.... ولبلوغ هذه الغاية ... ستقوم جبهة التحرير الوطني بعمل خارجي لجعل المشكل الجزائري واقعا مطروحا أمام العالم أجمع بتأييد جميع حلفائنا الطبيعيين ».[4]

. المنظمات التي تعامل معها الاتحاد:

من المنظمات الطلابية التي كان للاتحاد معها علاقات « الاتحاد العالمي للطلبة ». وجاء هذا الارتباط بينهما، بعد أن عرف الاتحاد أنها تتماشى مع مبادئه وأهدافه، ويبين ذلك السيد مسعود آيت شعلال بأن الكل: « يعرف موقف هذه المنظمة، ومناهضتها للاستعمار، وحرصها على استتباب الأمن، وسيادة السلم في العالم ... وسعيها لتوحيد الطاقات الطلابية في العالم، وهذا ما جعلنا ننتسب إليها، ونصبح عضوا مشاركا فيها، ولقد قدمت هذه الهيئة يد العون في عدة مناسبات. سواء مباشرة أو بواسطة فروعها الوطنية ».[5] وترجع جذور هذه العلاقة إلى اليوم الذي حضر فيه الاتحاد الندوة الأفرو. آسيوية للطلبة، التي انعقدت بباندونغ من 30 ماي إلى 7 جوان 1956، والتي ناقشت في أشغالها المسألة الجزائرية، وحينها حظي ممثلي الطلبة الجزائريين باستقبال خاص وحار.[6]

وخلال هذه الندوة تم الإجماع على قرارات هامة لصالح القضية الجزائرية منها:

« 1. إدانة الحرب الاستعمارية في الجزائر والتضامن مع الشعب الجزائري في ثورته من أجل استقلاله.

2. توجيه نداء إلى هيئة الأمم المتحدة، بغرض إرسال لجنة تحقيق إلى الجزائر، للنظر في الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية من طرف المستعمرين

الفرنسيين، ووضع حد لحرب الجزائر لأنها تهدد السلام العالمي، واجبار الحكومة الفرنسية على إيجاد حل يوافق المطامع الشرعية للشعب الجزائري.

3 . الطلب من رؤساء حكومات دول إفريقيا وآسيا، الدعوة إلى عقد ندوة خاصة بغرض دراسة وسائل المساعدة الفعالة للشعب الجزائري في ثورته من أجل حريته.

4 . نداء إلى كل الطلبة في إفريقيا وآسيا، بجعل يوم 20 أوت 1956، يوما للتضامن مع أصدقائهم الجزائريين ».[7]

ولقد عمل الاتحاد على توطيد هذه العلاقة بمداومة الحضور إلى التجمعات الطلابية الدولية التي نظمها الاتحاد العالمي للطلبة، ومنها مؤتمره الرابع، المنعقد ببراغ من 26 أوت حتى 04 سبتمبر 1956، وفيه: « تم الوقوف دقيقة صمت ترحما على أرواح الطلبة الجزائريين الذين ماتوا من أجل حرية بلدهم، واختير بيان اللجنة المديرة للاتحاد الخاص بالإضراب كوثيقة عمل من طرف لجنة المؤتمر، فيما يخص المشاكل والنشاطات الطلابية ضد الاستعمار... وبين بالإجماع لائحة تطالب بإنهاء الحرب في الجزائر، وتحقيق المطامح المشروعة للشعب الجزائري».[8]

ومقابل حضوره تجمعات « الاتحاد العالمي للطلبة » فإنه كان حريصا على المشاركة في الندوة العالمية للطلبة، التي تشرف عليها « كتابة التنسيق بين الاتحادات والمنظمات الطلابية الغربية». وجاء هذا الأمر : « بعد خروجها من التناقض على مستوى محاربة الاستعمار، إذ تقاربت حينها وجهة نظرها مع الاتحاد فدخل فيها كاتحاد وطني».[9]

ومن الندوات التي شارك فيها الاتحاد، تلك التي انعقدت بسيلان من 11 إلى 21 سبتمبر 1956. وفيها تم التصويت على لائحة تطالب تقرير مصير الجزائر، وطالبت : « بإرسال لجنة بحث وتحري للجزائر من أجل دراسة الوضعية التي تعرفها ثقافتها الوطنية ومعرفة الظروف المادية والمعنوية التي يعيشها الطلبة الجزائريين.» [10]

إضافة إلى هذا فإن الاتحاد حضر مجلس الجمعية العالمية للشباب، التي تمت أشغالها ببرلين من 20 إلى 25 أوت 1956، وتعهدت هذه المنظمة حينها بمد يد المساعدة للطلبة الجزائريين ونادت بوضع حد للاستعمار.[11].

وفي إطار النشاط على الصعيد الدولي دعي الاتحاد لحضور المؤتمر الرابع للاتحاد الوطني للطلبة الأمريكيين،الذي عقد من 21 إلى 31 أوت من السنة المذكورة بشيكاغو، لكنه لم يتمكن من المشاركة فيها، لرفض الإدارة الفرنسية منحهم جوازات السفر، ورغم غياب ممثلي الطلبة الجزائريين إلا أن القضية الجزائرية سجلت حضورها في المؤتمر حيث ندد الحاضرون بالأساليب الاستعمارية المطبقة في الجزائر، ورفعوا احتجاجات قوية ضد منع الطلبة من حرية التنقل إلى خارج التراب الفرنسي، وجددوا تضامنهم ومساندتهم للطلبة الجزائريين.[12].

وهكذا فرغم الصعوبات التي واجهها الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، فإن نشاطه الكبير لقي اهتماما من طرف المنظمات الطلابية، ومنها الندوة العالمية للطلبة التي عملت لجبة البحث والإعلام التابعة لها على إعداد تقرير حول التعليم في الجزائر، وكونت اجله فرقة بحث. [13] تعمل عل إنجازه ليعرض في الندوة السادسة، لكن الفرقة لم تتمكن من ذلك، لرفض فرنسا منح أعضائها تأشيرات الدخول للجزائر [14].

فاستبدلت هذه الفرقة بفوج آخر لمواصلة العمل، وذلك في شهر أوت 1957، لكن مصيرها كان كسابقتها، فشكلت أخرى في فيفري 1959 حتى يكون التقرير معدا في الندوة الثامنة، فاستطاع فوج هذه الفرقة القيام بذلك، لكنه لم يتمكن من إتمامه إلا أثناء الندوة التاسعة في مارس 1960. [15].

وهذا الفوج الثالث تكون من : جيون باروس (الشيلي)، كراوفورد يونغ (الولايات المتحدة الأمريكية).

ولقد تطرق هذا التقرير إلى مختلف المراحل التي مر بها الاتحاد الجزائري، واستعرض نماذج عن الأساليب الوحشية التي واجهها الطلبة

الجزائريين، كما أنه احتوى على مسحة شاملة للوضع الذي عاشته الجزائر منذ بداية الاحتلال الفرنسي لها في 1830 [16].

وعندما عقدت الندوة العالمية للطلبة مؤتمرا لها بنيجيريا من 11 إلى 22 سبتمبر 1957، استغل الاتحاد مشاركته فيها ليعرف الحاضرين بوضعية الطلبة الجزائريين وحالة التعليم . وعلى ضوء ما قدمه، أصدر المؤتمر ملاحظات وتوصيات شملت عدة مجالات[17].

ففي المجال الطلابي جاء فيها : « إن وضعية الطلبة الجزائريين لا تسمح لهم بأن يتلقوا تعليمهم كما يتلقاه غيرهم من الطلبة في العالم، وإن هذه الوضعية لايمكن أن تتغير مادامت الحرب قائمة، ويلاحظ أنه منذ عامين لم بنفك الطلبة الجزائريون يستهدفون للسجن والتعذيب والطرد والنفي والقتل ... ولهذا فالمؤتمر يدعوا الحكومة الفرنسية لتغيير سيرتها مع الطلبة الجزائريين، ويوصي جميع الاتحادات الطلابية في العالم اجمع بتنظيم أسبوع للتضامن مع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ن وحدد ذلك من 4 إلى 11 نوفمبر 1957». [18]

أما في المجال السياسي فإن المؤتمر : « يأمل أن يتوصل الطرفان الجزائري والفرنسي إلى حل عادل وسريع للمشكل الجزائري على أساس الاعتراف بالاستقلال الوطني الذي هو الشرط الأول لإقامة تعليم حر وديمقراطي في الجزائر» [19] .

هذا ونجد أنه عندما أقدمت الحكومة الفرنسية على حل الاتحاد سجلت العديد من المنظمات موقفها ، وكان لذلك صدى كبيرا ترجم التضامن والتأييد الواسع، إذ انه وبطلب من كونفدرالية الشمال الإفريقي للطلبة عقدت الكتابة العامة للتنسيق بين الاتحادات الطلابية الوطنية ندوة طارئة يومي 17 و18 أبريل 1958 بلندن خرجت بلائحة اشتملت على عدة ملاحظات منها أن : «1. زيادة الحالة التي عليها الطلبة الجزائريين سوءا خصوصا بعد انعقاد المؤتمر العالمي السابع للطلبة.

2 . الطلبة الجزائريون معرضون لقمع يزداد عنفا وشدة يوما بعد يوم مما يجعلهم محرومين من أبسط الحريات والحقوق ، ويضعهم في حالة دائمة من عدم الاستقرار واللا أمن ، وقد برهن على ذلك إيقاف الطلبة الأخير .

3- إن الحالة قد بلغت من الرداءة إلى درجة أن حرم الطلبة الجزائريون من اتحادهم الوطني الوحيد الذي يمثلهم ...» [20].

وبعد توضيح المأساة التي يعاني من ويلاتها الطلبة الجزائريين اتخذت هذه الندوة موقفها الذي تمثل في أنها :

« 1 . تستنكر بكل شدة الأعمال العدوانية التي يذهب ضحيتها الطلبة بالخصوص، كما تستنكر بكل صرامة حل الاتحاد العام للطلبة الجزائريين في فرنسا، والذي هو منظمة طالبية ديموقراطية ممثلة.

2 . لا تعير أية قيمة لقرار حل الاتحاد بل هذا الخير المنظمة الوحيدة التي تمثل الطلبة الجزائريين.

3 . تعبر عن عطفها العميق على الطلبة الجزائريين ضحايا القمع، وتعبر لهم مرة أخرى عن تضامنها الكامل .

4- تؤكد الاعتراف بحق طلبة المناطق غير المستقلة في التطور التقدمي داخل المجتمع كأشخاص أحرار مستقلين.

5- تؤكد سوء حالة الطلبة الجزائريين، هي أثر مباشر للحرب الدائرة في الجزائر .

6- تعبر عن يقينها بأن جعل حد للحرب في الجزائر بوسائل سلمية، وبالمفاوضة والاستقلال هي الوسيلة الوحيدة الكفيلة بحل جميع المشاكل التي تعترض سبيل الطلبة الجزائريين، والمجموعة الطالبية .

7- تطلب الندوة أخيرا من لجنة حقوق الإنسان، ومن هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن أن يعيروا اهتمامهم لهذه اللائحة».[21] هكذا بدت هذه اللائحة واضحة في مطلبها وتضامنها الصريح مع الطلبة الجزائريين خاصة بعد حل الاتحاد، وتعدى هذا الأمر ليشمل الشعب الجزائري وقضيته، اعتبارا من أن حالة الطلبة ليست بمعزل عن الظرف العام الذي تشهده

الجزائر، مما يوحي باقتناع هذه المنظمة بطروحات الاتحاد من جهة ولإيمانها بحقوق الإنسان في العالم من جهة أخرى، ومما لا ريب فيه أن الحضور المستمر للاتحاد في مختلف المحافل الدولية الطلابية كان له الأثر البالغ في كل ما ذكر.

تضمنتها اللائحة بجزء عملي تمثل في ما يلي : « ترفع نداءها إلى جميع الاتحادات الوطنية كي يخصصوا منحا مالية تساعد الطلبة الجزائريين على مواصلة تعليمهم كما تطلب من جميع الاتحادات أن يؤسسوا صندوقا للإسعاف لفائدة الطلبة الذين لجأوا إلى تونس والمغرب وتطلب كذلك منح أدوات علمية للطلبة الموقوفين واستدعاء ممثلين عن الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ليقدموا معلومات عن مشاكل الطالب الجزائري، وتنادي الندوة أخيرا جميع الاتحادات الطلابية لإبلاغ قرارا تها إلى السلطة الفرنسية وإلى حكوماتهم المحلية، وإلى الصحافة وفي النهاية فإن لجنة تنسيق بين الاتحادات الوطنية الغربية أنيطت بها مهمة السهر على تنفيذ هذه القرارات ونشر أعمال الندوة بواسطة منشورات مختلفة.» . [22]

وبعد هذه الندوة شارك الاتحاد في المؤتمر الخامس للاتحاد العالمي للطلبة الذي جرت أشغاله بالعاصمة الصينية . بكين . وذلك خلال شهر سبتمبر 1958. وحينها تم عرض تقرير من طرف كنفدرالية الشمال الإفريقي للطلبة، والذي أعد بعد دراسة عامة للوضعية السائدة في الجزائر وانعكاساتها على المشاكل الطلابية.

ولقد تضمن هذا التقرير نقطتين هامتين كالتالي: « 1 . أن الحرب الاستعمارية التي تقودها فرنسا قد عرفت تطورا خطيرا بعدا لمؤتمر الرابع ببراغ (سبتمبر 1956). مما أدى إلى خسائر مادية وبشرية فأصبح واضحا تهديدها للسلام العالمي، ويظهر هذا من خلال استمرار التزايد التدريجي للقوات الفرنسية وتجهيزاتها بالجزائر، حتى أصبحت اليوم 700000 رجل مع سقوط العديد من الضحايا في السنتين الأخيرتين، واستعمال التعذيب وتعدد المناطق المحرمة أو مناطق الموت. [23]

. أنه خلال هذين السنتين الحكومات الفرنسية المتعاقبة. رفضت كل حل تفاوضي للمشكلة الجزائرية رغم أن الأمم المتحدة في دورتها الحادية عشرة والثانية عشرة [24] صوت على ذلك ورغم انقلاب 13 ماي 1958، فإن الحكومة الفرنسية ظلت بعيدة كليا عن فكرة التفاوض ». [25]

ونظرا لهذه التطورات التي عرفتها الجزائر طيلة السنتين 1956 حتى 1958 فإن هذا المؤتمر وبناء على الملاحظات والتقرير المقدم أ كد أنه : «1 . يندد بالموقف اللامتغير للحكومة الفرنسية المعادية لكل حل تفاوضي .

2 . يعتبر أن المساندة الدبلوماسية والمادية لفرنسا من طرف حلفائها في الحلف الأطلسي .ترخيصا باستمرار الحرب الاستعمارية في الجزائر.

3 . المؤتمر الخامس للاتحاد العالمي للطلبة، يندد بتواطؤ الدول الأعضاء في الحلف الأطلسي مع الاستعمار الفرنسي.

4 . أن الحرب في الجزائر أدت إلى نتائج جد خطيرة على الدراسة ، وعلى مستقبل الطلبة الجزائريين، الذين دفعوا ضريبة غالية للقمع المسلط على جميع الشعب الجزائري ن مما جعله يساند الثورة من أجل الاستقلال.

5 . يؤكد رسميا دعمه لكل الطلبة والشعب الجزائري في ثورته من أجل الاستقلال، ويذكر بأنه يعتقد أن فتح المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني على أساس قاعدة تقرير المصير هو وحده الكفيل بوضع نهاية للصراع.

6 . يطلب بإلحاح من كل المنظمات الوطنية العضوة في الاتحاد العالمي للطلبة تكثيف التأييد للطلبة والشعب الجزائري من طرف حكومات بلدانهم من أجل التأييد السياسي والدبلوماسي لجبهة التحرير الوطني، خاصة في الدورة القادمة للأمم المتحدة » . [26]

إضافة إلى المنظمات السابق ذكرها فإن الاتحاد قد استطاع ربط علاقات أخرى، مع المنظمات الطلابية الوطنية، والهيئات الشبانية كالجامعة العالمية للشبيبة الديمقراطية التي حضر الاتحاد ندوتها المنعقدة بكولمبو (سيلان) من 7 إلى10 ديسمبر 1958، وأرسل لها مندوبا لحضور أشغالها ووجهت هذه المنظمة حينها برقية إلى هيئة الأمم المتحدة جاء فيها: « أن

اللجنة التنفيذية للجامعة العالمية للشبيبة الديمقراطية تؤكد من جديد حق الشعب الجزائري في الاستقلال ن وتطالب بإلحاح بفتح المفاوضات بين الحكومة الجزائرية والحكومة الفرنسية ». [27]

ثم قدمت اللجنة المذكورة وصفا لما يعيشه الشعب الجزائري من جراء الحرب القائمة منذ أربع سنوات في الجزائر، أكدت من خلاله على حقه في تقرير مصيره، واعتبرت أن حل اتحاد الطلبة لم ينقص من نشاطهم شيئا ثم عرضت موقفها من هذه الوضعية الجديدة بوضوح في توصية جاء فيها : « أن اللجنة التنفيذية نظرا لكل ذلك تقدر التضامن الفعال لشباب العالم أجمع مع الشبيبة الجزائرية المكافحة وتستنكر سياسة القمع المسلط على الطلبة الجزائريين وتحيي ذكرى أولئك الذين سقطوا ضحية الواجب المقدس، كما تحيي تشكيل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وتوجه نداء حارا إلى جميع منظمات الشباب والطلاب لتعزيز كفاحهم من أجل انتزاع اعتراف حكوماتهم بها، ومن أجل إيقاف حرب الجزائر ومضاعفة الإعانة المادية (منح . أدوية . لباس . أغذية...) للشباب والطلاب الجزائريين اللاجئين في المغرب وتونس، والشرق الأوسط، وتكلف لجنة الشبيبة العالمية مكتبها بأن يدرس مع المنظمات المختلفة إمكانية تشكيل لجنة عالمية للتضامن مع الشباب والطلاب الجزائريين ». [28]

ورغم هذه النداءات التي وجهتها المنظمات الطلابية والشبانية المنددة بالقمع فإن السلطات الفرنسية لم توقف هذه السياسة العنجهية بل زادت من وتيرتها باعتقال الطلبة ووضعهم داخل أسوار السجون سواء بفرنسا أو بالجزائر . إزاء هذا الوضع لم يقف ا. ع . ط. م . ج. موقف المتفرج الساكت بل قام بالعديد من المساعي للضغط على فرنسا وإثنائها عن هذه الأساليب الوحشية .

حيث أنه رفع إلى كل الاتحادات الطلابية الوطنية والعالمية قائمة للطلبة المسجونين ضمت ثلاثون طالبا وعلى رأسها الاتحاد العالمي للطلبة، مما أدى بهذا الأخير إلى المصادقة في اجتماع اللجنة التنفيذية له من 20 إلى 26 جانفي 1959 على لائحة ندد بالوسائل القمعية التي تقوم بها فرنسا. واستنكرت اعتقال الطلبة الجزائريين وجهود فرنسا لإشراك دول أخرى في

الحرب الجزائرية، واعتبرت أن هذا يمثل تهديدا خطيرا للسلام العالمي، وطالبت بوجوب التفاوض مع الحكومة الجزائرية في بلد محايد، وقدمت اللجنة حينها شطرها للمنظمات الطلابية في جميع أنحاء العالم على إعاناتها المختلفة للطلاب الجزائريين.[29]

ولأن ا.ع.ط.م.ج عضو في الندوة العالمية للطلبة فإنه كان على موعد للمشاركة في المؤتمر العالمي الثامن للطلاب من 15 إلى25 فيفري 1959 المنعقد بعاصمة البيرو. ليما. وحينها يم التنسيق في إطار طلبة المغرب العربي، وتم دراسة القضية الجزائرية وحالة الطلبة الجزائريين، والمشاكل التي يعانون منها وذلك من خلال التقرير من طرف لجنة البحث والإعلام.

وخرج هذا المؤتمر بلائحة تضمنت العديد من النقاط: كمشكلة التربية والتعليم في الجزائر. وإجراءات الحكومة الفرنسية ضد الطلبة واستعمالها أساليب وحشية ضدهم. وقضية حل الاتحاد وما انجر عنها من انعدام الأمن مما أجبر الطلبة على مغادرة فرنسا واللجوء إلى الخارج. ووجه المؤتمر رسالة واضحة إلى السلطة الفرنسية مما نصت عليه: « استنكار القمع الذي تسلطه الحكومة الفرنسية منذ أكثر من أربع سنوات على الطلبة الجزائريين، ويشهر بالاعتداءات المتكررة على أبسط وأقدس الحقوق الإنسانية. خاصة بأساليب التعذيب. ويطلب بكل الحاج باحترام القوانين الدولية ويفند سياسة الإدماج لأنها مناقضة لوجود ثقافة وطنية مطابقة لماضي الجزائر وتقاليدها ».[30]

وبعد هذا الاستنكار المسجل ضمن هذه الرسالة نجد أن هذا المؤتمر اتخذ مواقف جريئة جدا تجاه القضية الجزائرية، وبين بأن حل مشاكل الطلبة لا يتم إلا بإنهاء المشكلة الجزائرية بصورة عادلة ومرضية لكل الأطراف، وصرح المشرفون عن المؤتمر عبر لائحة خاصة كما يلي: « ...يعترف المؤتمر بشرعية الكفاح الذي يقوم به الطلبة الجزائريين من أجل الاستقلال الوطني، الذي هو شرط أساسي لكل تربية كاملة، كما يعرب عن تضامنه الكامل مع كفاح الطالب الجزائري ... ويعبر عن ابتهاجه للجهود التي بذلها المكتب العالمي للطلاب والاتحادات الوطنية في سبيل تأييد ومساعدة الاتحاد الجزائري أثناء حملة التضامن مع الطلاب الجزائريين، كما يحث المكتب المذكور الاتحادات الوطنية على مضاعفة تلك الجهود، والمؤتمر يؤكد

اقتناعه العميق بأن التسوية النهائية، والناجحة لمشاكل المجموعة الطالبية الجزائرية تتوقف على إنهاء الحرب واستقلال الجزائر، عن طريق التفاوض بين الحكومتين الفرنسية والجزائرية ».[31]

وبعد أن انتهت أشغال هذا المؤتمر استغل الوفد الممثل للاتحاد وللطلبة الجزائريين هذه الفرصة، فقام بزيارة إلى بلدان أمريكا اللاتينية: كالشيلى، الأورغواي، البرازيل، الإكواترو، كولومبيا. لشرح القضية الجزائرية وتبيين أبعادها وإسماع صوت الجزائر في كل أنحاء العالم.[32]

وللتذكير فإن اللجنة التنفيذية للاتحاد حددت رز نامة لنشاطاتها المختلفة على الصعيد الخارجي، بما يضمن لها الحضور في المؤتمرات والندوات والاجتماعات التي تعقد من طرف المنظمات والهيئات الطلابية والشبانية، الوطنية منها والإقليمية والدولية بمختلف أنواعها سواء السياسية أو الثقافية أو النقابية بناء على الدعوات التي وصلتها ووفقا لمواعيد اللقاءات السنوية.[33]

ويدل هذا العمل على التنظيم الذي كانت تقوم به اللجنة والذي أدي إلى تحقيق نتائج هامة منها « الاعتراف السريع بالاتحاد من قبل الاتحادات الوطنية والمنظمات الدولية، فاندرج بسرعة في الحركة الطلابية العالمية، وبفضل السمعة التي يمنحها إياه الكفاح البطولي للشعب الجزائري احتل مكانة مرموقة في الشؤون الطلابية العالمية

وفي كل منطقة من المناطق أسمع صوت الثورة الجزائرية، في إفريقيا وآسيا، وأمريكا، وأوروبا الشرقية والغربية، فقامت مظاهرات العطف والتضامن مع القضية الجزائرية ، وتضاعفت حركة المساندة لفائدة كفاح التحرير، وقد جابت وفود الاتحاد قارات المعمورة وعرفت بكفاح الشعب الجزائري وتضحياته وآماله ومطامحه »[34]. وفي إطار العمل الدبلوماسي للاتحاد نجد أن عددا من الطلبة والأعضاء والقياديين فيه كانوا ضمن الوفود الجزائرية التي شاركت في المفاوضات الجزائرية. الفرنسية بمختلف مراحلها ،ومنهم الطالب :محمد الصديق بن يحي ،الذي شارك في مفاوضات مولان التي كانت أيام الخامس والتاسع والعشرين من جوان سنة 1960.[35]

واستمرت مشاركة هذا الطالب ضمن الوفد الجزائري في أيفيان الذي تكون من السادة : سعد دحلب، كريم بالقاسم، الطيب بولحروف، أحمد فرنسيس، أحمد بومنجل، وقايد أحمد، وعلي منجلي، وذلك يوم 20 ماي 1961، ونشير إلى أن السيد رضا مالك كان الناطق الرسمي باسم الوفد.[36] وتكرر الأمر في المفاوضات التي تمت يومي الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من أكتوبر سنة 1961 بمدينة بال السويسري، وفي التاسع من ديسمبر من السنة المذكورة، كان محمد الصديق بن يحي إلى جانب السيد سعد دحلب، لمقابلة لوي جوكس، وبرونودولاس عن فرنسا لمناقشة قضية الصحراء ووضع الأقليات الأوروبية في الجزائر[37]

هكذا إذن نلاحظ أن الاتحاد لم يألُ جهدا في سبيل إظهار القضية الجزائرية على المستوى الدولي، وذلك بأساليب ووسائل متنوعة كالنداءات ولجان المساندة والحضور إلى مختلف النشاطات الطلابية والشبانية التي تعقد في أنحاء العـالم واستطاع الاتحاد بفضل هذا أن يساهم بحجم معتبر في كسب المسالة الجزائرية العديد من المؤيدين والأنصار، الذين كان لهم دور في الضغط على فرنسا مما دعم الانتصار الذي حققه جيش التحرير الوطني في الداخل، وأدى إلى رضوخ فرنسا إلى مطالب الشعب الجزائري وتحقيق طموحه وأمله المتمثل في الاستقلال.

. الخاتمة :

تأسيس: «الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين» ثمَّن مساهمة الطلبة في الثورة بأساليب و وسائل مختلفة، شملت شتى المجالات. إذ شكل منعطفا حاسما لتجاوز الصراع الأيديولوجي، والتباين الفكري، وانتصارا للطلبة الوطنيين المرتبطين بمقومات الشخصية الوطنية، وإثباتا لقدرة الطلبة على تنظيم أنفسهم بما يتماشى مع متطلبات الثورة.

فكان للإضراب اللامحدود (19 ماي 1956) عن الدروس والامتحانات، والذي تم بتوجيه من جبهة التحرير الوطني، دور بالغ في كسر ادعاءات المستعمر في انحصار الثورة في فئات اجتماعية دون أخرى، وتقديم الدعم الكبير لجبهة وجيش التحرير الوطني في مختلف المجالات.

والنشاط الخارجي للاتحاد على الصعيد الدولي، كان له الأثر البارز في التعريف بالقضية الجزائرية، في مختلف القارات، وكسب أنصار ومؤيدين لها. من خلال علاقاته بالمنظمات العالمية و الوطنية، المختلفة الاتجاهات.

ويعتبر الاتحاد إحدى الوسائل التي استخدمتها جبهة التحرير الوطني لصالح القضية الوطنية، وأثبت الطلبة بواسطته مدى وعيهم، ومدى استعدادهم للتضحية إلى جانب فئات الشعب الأخرى في سبيل استرجاع الاستقلال.

وهكذا فإن ما حققته الثورة الجزائرية من انتصارات على المستوى: العسكري والدبلوماسي، تم بتكاثف مختلف فئات الشعب الجزائري، ووقوفها وراء الممثل الشرعي والوحيد له و هو جبهة التحرير الوطني.

. الهوامش:

(1) مركز الأرشيف الوطني، العلبة 224، الملف 3، التقرير الأدبي للمؤتمر الرابع لـ ا ع ط م ج ص / 13 ـ14.
(2) نفس المصدر السابق.
(3) نفس المصدر السابق.
(4) بيان أول نوفمبر 1954.
(5) التقرير الأدبي للمؤتمر الرابع للاتحاد.
ـ تأسيس الاتحاد العالمي للطلبة في أوت 1946، وكان مقره العاصمة التشيكوسلوفاكية (براغ).
(6) C.A.N Rapport du GPRA, «Déclaration de comité Directeur de l'UGEMA 13 Décembre 1956», Boite / 4-2 Dossier / 10.
(7) نفس المصدر السابق.
(8) نفس المصدر.
(9) التقرير الأدبي للمؤتمر الرابع للاتحاد.
(10) بيان اللجنة المديرة للاتحاد (1956/12/13).
(11) نفس المصدر.
(12) نفس المصدر.
(13) تكونت هذه الفرقة من الشخصيات الاتية : روبرتوسليس (الأرجنتين) .جاك ماتلي دورت (سويسرا). حافظ ترميز (تونس
(14) Annales de la commission de recherche et d information 1959-1960 Rapport supplémentaire Algérie p95
(15) نفسه، تشكل الفوج الثاني من كارلوس دي ماتوس (الأورغواي) ، كونت ميلقارد (النرويج)، عبد الرحمان كريشن (تونس) .
(16) نفس المصدر السابق .

احتوى هذا التقرير على34 صفحة ن وتم إنجازه على ثلاث مراحل ، وتطلب إعداده السفر إلى تونس والمغرب وفرنسا، وأصبح مكتملا وعرض في الندوة التاسعة (مارس 1960) . ومن النقاط التي تضمنها لمحة تاريخية عن الجزائر، وضعية التعليم ، السياسة الفرنسية (كالتعذيب ـ الغنغرينا) وقضية الاجئيين والاستقلال .

(17) المجاهد ، العدد 12، 15 نوفمبر 1957، ص/9.

(18) نفس المصدر .

(19) نفس المصدر .

(20) المجاهد ، العدد 23، 1958/05/07. ص13.

(21) نفس المصدر .

(22) نفس المصدر السابق.

(23) هي حكومات : منديس فرانس ـ إدغار فور ـ قي موللي ـ بورجيس مونري ــ فيليكس غيار ثم في موللي مرة أخرى .

(24) الدورة 11 لهيئة الأمم المتحدة (جوان1956) والـ12 (نوفمبر1957).

(25)UGEMA, les étudiants Algériens en lutte,. Tunis.1961. pp 88 - 89

(26) نفس المصدر السابق

(27) المجاهد، العدد/ 35 ، 1959/01/15 ،ص/02 .

(28) نفس المصدر.

(29) المجاهد، العدد/ 37، 1959/02/25 ، ص/11 .

(30) المجاهد ، العدد /38، 1959/03/17، ص ص/02 ـ 10.

(31) نفس المصدر السابق.

(32) المجاهد ، العدد/40 ، 1959/04/16 ، ص/10 . وكذلك لقاء مع السيد : مسعود آيت شعلال بمنزله ـ يوم 1999/08/17.

(33) programme des activités extérieurs-Fév-Sep1961 ، C.A.N. Rapports de G.P.R. A Boite /75. Dossier/12. .

(34) مسعود آيت شعلال ، « الحركة الطلابية في كفاح التحرير الوطني » ، الشعب ، عدد خاص ، 1 نوفمبر 1974، ص08.

(35) Teguia .Mohamed , l..Algerie en guerre.Alger.opu.1988. P363.

(36) ابن يوسف بن خده، « قصة المفاوضات مع فرنسا »، مجلة أول نوفمبر، عدد خاص ، جويلية 1987.

(37) د. محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، ج2 ، ص138 . وحسب طبعة دار هومة، ص ص227 ـ228.

المدخل المنظومي وتحديات العولمة

بقلم
أ/ عمـر روينة
أستاذ مساعد بقسم التاريخ
المركز الجامعي بالوادي - الجزائر

ملخص

يتناول المقال مفهوم "المدخل المنظومي" في مجال التعليم والتعلم من خلال إبراز أهمية التفكير المنظومي في مواجهة تحديات العولمة باعتباره منهجا يستهدف تنمية القدرات العقلية العليا(الذكاء)، وهي أفضل وسيلة تتسلح بها الأجيال في التصدي للهيمنة العالمية على مقدرات وثقافات مجتمعاتها.

Résumé

Cet article a pour objectif la définition de " L'approche systémique " dans le cadre de l'enseignement et l'apprentissage à partir d'une exposition de l'importance de la pensée systémique face aux défis de la mondialisation et comme il est le sens qui vise à développer les capacités intellectuelles qui est le meilleur moyen que les générations doivent le porter pour lutter contre la dominance culturelle et matérielle de leurs sociétés.

مقدمة:

لقد شهد العالم في الربع الأخير من القرن العشرين تطورا هائلا خاصة في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات كنتيجة لتقدم فاق الخيال في علوم الحاسوب والشبكة العالمية للمعلومات "Internet"، وقد كان هذا الوضع الجديد في صالح العولمة التي اقتحمت الأسوار المنيعة كالأسرة والمدرسة والثقافات القومية والمحلية... التي ظلت إلى زمن طويل تقاوم الوافد من الإيديولوجيات والثقافات والأخلاقيات، التي لا تنسجم مع القيم القومية وهوما أدى إلى تراجع دور المؤسسات التعليمية المحلية أمام الاقتحام القسري للمجتمعات في عقر دارها، حيث أصبح العالم قرية كونية صغيرة تقلصت

فيه المسافات الجغرافية بين المجتمعات، كما تقلصت معها أيضا المسافات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية... واضطربت أمام هذا التحدي الكبير المؤسسات الاجتماعية، فتراجع دورها في تحصين النشء بالقيم والمثل العليا للمجتمع وتسليحه بالعلوم والمعارف.

ولقد كان هذا العجز في مواجهة تحديات العولمة والتي فتحت الأبواب والنوافذ وأزالت السقوف حيث أصبح المجتمع بكل مؤسساته يعيش ثقافة عالمية في شقها العقائدي والأخلاقي تمثل تهديدا حقيقيا للأمن القومي والثقافة المحلية، وهو ما أحدث ارتباكا في مجتمعنا العربي الذي صعب عليه أن يساير التغيرات المتسارعة والمفروضة من قبل المؤسسات الدولية والمالية والثقافية والعلمية... وقد تجلى ذلك في محاولات الإصلاح المفروض في مختلف المجالات، ويهمنا من ذلك في هذا المقال ما تعلق من تحديات للمنظومة التربوية.

تعد العملية التعليمية ذات مسؤولية مباشرة في توفير احتياجات المجتمع العلمية والتكنولوجية وتأسيس التفكير العلمي والموضوعي، بل هي المصدر الرئيسي لتشكيل أفراد يتميزون بالكفاءة، ويمتلكون الكم الضروري من المهارات التكنولوجية والكيف اللازم من القيم السلوكية، وهما مصدر كل تفاعل ذكي منتج وفعال يمكن أن يكوّن حجر الأساس في مشروع استثمار العولمة ومواجهة تداعياتها بصورة إيجابية (وحتى نتلافى عيوب نواتج التعلم السابقة لابد من الاهتمام بجميع جوانب التعلم، الجانب المعرفي والجانب النفس حركي والجانب الوجداني ، بصورة منظومية شاملة ومتفاعلة فيما بينها، حتى يمكن تخريج نوعية من المواطنين ذات شخصية إيجابية سوية ومتكاملة، قادرة على العطاء والعمل والتجديد والابتكار والتفكير المنظومي المتكامل)[1].

وتفاعلا مع التغيرات المتلاحقة في ظل نظام العولمة حدثت انعكاسات هامة على مستوى التعليم بجميع أطواره وأطرافه وتمثلت في الوعي بعدم تأهيل النظام التعليمي الحالي لمسايرة التطورات المتسارعة مما تطلب توجيه اهتمام متميز لمنظومة التنمية عموما والتنمية البشرية خصوصا باعتبارها

مصدرا لكل تنمية، وكون ذلك هو المدخل الضروري لرفع مستوى الأداء التربوي في المجال التعليمي.

وقد واجه هذا التفكير واقع المؤسسات وخاصة طبيعة المناهج المتبعة، فإن الذي (يتأمل واقع التدريس في مدارسنا يجد أن منظومة المنهج تعاني الكثير من الصعوبات المتمثلة في ضعف الترابط والتفاعل بين مكوناتها المختلفة، وبين كل مكون من مكوناتها على حده، والأهداف التعليمية معدة بطريقة خطية "Linéaire" ولا يظهر فيها الترابط والتكامل بين جوانبها المعرفية والوجدانية والنفسحركية) [2].

ولعل هذا ما دفع أكثر الحكومات العربية إلى الشروع في مباشرة مجهودات إصلاحية وتقويمية لأنظمتها التعليمية باعتبار ذلك ضرورة ملحة لمواكبة المتغيرات المفروضة من واقع تشابكت فيه العلاقات، وتقاطعت فيه المصالح مع المجتمع الدولي فضلا عن ضرورة مواكبة التطور العلمي والتكنولوجي كأداة لمواجهة ضغط تحديات العولمة التي لا مفر منها، والمنطلق في ذلك هو إعداد الفرد ذي الكفاءة العلمية والحصانة الثقافية باعتباره أصلا (ومن ضيع الأصول حرم الوصول) [3].

وهذا من خلال العملية التعليمية وفق إطار منهج منظومي يقوم على إدراك العلاقات وفهم التفاعلات البينية، لأن العقل البشري بمثابة مزرعة تتزاوج فيها المعلومات والمهارات الحديثة مع المكتسبات المعرفية السابقة فتعطي فكرا إبداعيا ينقل المتعلم (من مستوى أداء المهارة، إلى مستوى كفاءة الإبداع، ومن مستوى الحفظ، إلى مستوى التمكن والابتكار) [4].

و يعتمد المنهج المنظومي في طروحاته على المدخل المنظومي ويقصد به (دراسة المفاهيم أو الموضوعات من خلال منظومة متكاملة تتضح فيها كافة العلاقات بين أي مفهوم أو موضوع وغيره من المفاهيم أو الموضوعات مما يجعل الطالب قادرا على ربط ما سبق دراسته مع ما سوف يدرسه في أي مرحلة من مراحل الدراسة من خلال خطة محددة وواضحة المعالم لإعداده في منهج معين أو تخصص معين) [5]

ومن هذا المفهوم جاءت الدعوة إلى المدخل المنظومي كمنهج في التعليم وبديل عن المنهج الخطي الأفقي والمعتمد حاليا في المناهج التعليمية، والذي هو تعامل محدود مع العناصر دون ربطها ببعضها، أو مراعاة لما بينها من علاقات، كما (أن هذا النظام الخطي في تركيبته وممارسته لم يعد صالحا في عصر المعلومات والاتصالات التي تتزايد أسيا، ومن ثم فإنه على المؤسسات العلمية أن تساعد الطلاب على امتلاك مهارات التعامل مع المتغيرات، وأن يكونوا من صناع المعرفة) [6]. ويبرر دعاة العمل بالمدخل المنظومي كنظام في المؤسسات التعليمية موقفهم بأنه المنهج الأمثل في استفزاز عقول التلاميذ والطلاب إلى ضرورة التسلح بالفكر الإبداعي بالتكيف مع عصر العولمة، وذلك بفهم متغيراته واستغلال إيجابياته . وهي كثيرة . بذكاء وحكمة، فإرادة التحدي والثقة بالنفس والصبر... بدل الاستسلام والانبهار بالحاضر والخوف عن المستقبل هي من الأهداف الوجدانية للمدخل المنظومي باعتباره (أسلوب تربوي جديد ينمي مهارات التفكير الإبداعي في إطار كلي مترابط تتضح فيه كافة العلاقات المتشابكة بين الجزئيات مما يرفع القدرة الانتقائية لدى المتعلم فينتقي من العولمة مايراه ملائما ونافعا له ولبيئته ووطنه) [7].

وجدير بنا أن نشير إلى أن هذا الأسلوب الجديد هو جديد في بنائه وليس في مادته المعرفية لأن أصوله تتصل ببعض النظريات والمفاهيم المتداولة منذ عقود ومنها نظرية "دفيد أوزوبل David Ausubel" والتي اهتمت بكيفيات تنظيم المناهج وكيفيات التعلم والتعليم.. ولعل أهم حدث في نظرية "أزوبل Ausubel" هو ما عرف بالتعلم ذي المعنى، إذ يرى أن المعلومات السابقة تهيئ ونساعد على اكتساب معلومات جديدة وبذلك تصبح ذات معنى (ويقصد به ذلك التعلم الذي يحدث نتيجة لدخول معلومات جديدة إلى المخ لها صلة بمعلومات سابقة مختزنة في البنية المعرفية للفرد) [8]. حيث تكتسب المعلومة الجديدة من خلال تفاعلها مع المعلومة القديمة معنى إضافيا يحدث من خلال تفاعل المعرفتين لأن التعلم في نظر "Ausubel" ليس مجرد عملية تراكمية لمعارف قديمة تضاف لها معارف جديدة فحسب.

كما ميز "Ausubel" بين نوعين من التعلم هما: التعلم بالحفظ، والتعلم ذو المعنى. وميز أيضا بين أسلوبين يتم بهما التعلم هما: التعلم بالاستقبال، والتعلم بالاكتشاف.

أما الرافد الثاني للمدخل المنظومي فهو النظرية البنائية التي بشر بها "جان بياجيه Jean Peaget" في بحوثه حول النمو المعرفي لدى الأطفال، والنمو العقلي والعمليات المنطقية، وتقوم نظرية بناء المعرفة على أن الفرد يبني معرفته بنفسه وأنه ليس مجرد وعاء تسكب فيه المعارف. ولذا تؤكد البنائية في العملية التعليمية على استغلال الفرص التي تعزز القدرات فوق المعرفية كالتحليل والتنظيم والاستكشاف والمهارات والاستنتاج والترابط.(فالمعلم في المنظور البنائي مسير ومساعد لبناء المعرفة فهو يخطط وينظم بيئة التعلم ويوجه تلاميذه لبناء تعلم ذي معنى)[9]. وبناء على ما سبق تظهر العلاقة بين المدخل المنظومي وبين نظرية التعلم ذي المعنى عند "Ausubel". وكذلك نظرية بناء المعرفة عند "جان بياجيه Jean Peaget" وبهذا المفهوم المنظومي أصبح التعلم يقاس بقدرة المنتج "الطالب" على التعرف على أبعاد الموقف والترابطات البينية بين أجزائه وعلى المساهمة في صناعة المعرفة وتوليدها وليس مجرد استنساخها أو تقليدها.

وقد تغيرت كذلك أهداف العملية التعليمية بصورة عامة في شقيها أي ما تعلق بالمعلم والمتعلم معا. (فأصبح تحقيق الجودة والتميز في التعليم يعد الرسالة الأساسية للمدخل المنظومي والذي تتكامل معه إستراتيجية الجودة الشاملة وتكنولوجيا التعليم المعاصر في أفضل كفاءة وفاعلية ممكنة)[10]. وفي ظل هذا الفهم أصبح ينظر إلى المعلم على أنه ميسر لتعليم الطالب، وليس كمصدر وحيد للمعرفة، كما كان ينظر إليه في المنهج الخطي الأفقي. أما الطالب فأنزل منزلة الشريك وهو في نفس الوقت مسؤول عن تطوير بنيته المعرفية باكتشاف العلاقات بين المعارف القديمة والحديثة، وبذلك انعطف التركيز في المدخل المنظومي من ثقافة الحفظ والاستظهار "الذاكرة" إلى ثقافة الفهم والابتكار واكتشاف العلاقات "الذكاء".

كما عاب دعاة المدخل المنظومي على النظام الخطي بأن أهدافه التعليمية غير واضحة حيث يفترض أن تكون مشتقة من هوية المجتمع

وتطلعاته المعرفية وهو ما يتجسد في سياسة الدولة التعليمية، فالمؤسسات التعليمية الجامعية بصورة خاصة (تسعى كما تسعى غيرها من مؤسسات الدولة إلى تحقيق أهداف المجتمع وتطلعاته وحل مشاكله، والتجاوب مع واقعه)[11].

ولعل غياب التفكير المنظومي كان وراء إخفاق التعليم في إيجاد الفرد المناسب والمؤهل لتحقيق الحكم الراشد الذي تتبناه الدولة منذ مطلع القرن الواحد والعشرين، والذي واجه أهم مشكلة على الإطلاق في تقديرنا وهي ندرة الفرد المؤهل لمقاومة الفساد بإخلاص وبأمانة، ومما زاد من تعميق هذا الإخفاق عدم تعاون وتكامل المؤسسات الثقافية والإعلامية والتربوية والعلمية من حيث الأهداف، فجاءت مجهوداتها في اتجاهات تكاد تكون متناقضة، وهو ما قلل من دورها التربوي، فمؤسسات التلفزة والإذاعة والصحافة و دور الثقافة، كلها معنية بالعمل من أجل أهداف المتجمع كل بطريقته، وليس المؤسسة التعليمية وحدها المعنية، فكل هذه المؤسسات تتقاطع في أهدافها المشتقة من سياسة الدولة والتي بدورها مشتقة من فلسفة المجتمع وهويته وتطلعاته.

ويعتبر عدم وضوح الأهداف هو نتيجة طبيعية ومنطقية لضعف المنهاج الخطي الذي يركز على الجانب المعرفي ويكتفي بالتعامل مع الذاكرة حيث وجه اهتمام الطالب في جله إلى حفظ مضمون المقرر. وفي ذلك إهمال وإعاقة للطاقات الكامنة في المتعلم كالاستنتاج واكتشاف العلاقات والتحليل والتركيب والقدرات الإبداعية وما يوازيها من مهارات.

وتمر كل مراحل العملية التعليمية على الطريقة المنظومية التي تقوم أساسا ومن البداية على التفكير الترابطي، ففي بداية الدرس يستخدم المدخل المنظومي لربط المعرفة الجديدة بالمعرفة السابقة والتي تشكل بنية المعرفة، وأثناء تقديم الدرس يستخدم المدخل المنظومي للكشف عن شبكة العلاقات بين المفاهيم والموضوعات كما يوظف أيضا للتمييز بين المفاهيم وإبراز أوجه التمايز بينها، والخلاصة هي تنمية قدرة المتعلم على هذا التفكير المنظومي الذي يركز على اكتشاف العلاقات بين الموضوعات والظواهر والمفاهيم كسبيل لفهمها.

وتتوج هذه العمليات التعليمية بالاختبارات التي هي أيضا بدورها تعكس التفكير المنظومي كونها تقوّم مدى كفاءة الطالب في التركيب البنائي والربط المنظومي للموضوعات، ولم تقتصر على لغة التحصيل واختبار المستوى الأدنى للتحصيل وهو الحفظ حسب نظرية بلوم "Bloom". إن التقويم باستخدام المدخل المنظومي يهتم بقياس مدى وصول الطالب إلى المستويات العليا من التحليل والتركيب والتقويم، والتفكير المنظومي الإبداعي، لأن المدخل الخطي يدر حول الذاكرة والمستوى الأدنى من المعرفة وهو الحفظ. أما المدخل المنظومي فيدور حول الذكاء والمستويات العليا من المعرفة كالتحليل والتركيب والتقويم والاهتمام بالتفكير الإبداعي وتطوير المهارات وتنمية المعرفة. ولعل ذلك هو خير وسيلة للمحافظة على الحدود القومية في شتى المجالات في عصر العولمة. ومن هنا جاءت ضرورة (تبني التفكير المنظومي المترابط الشامل والمتفاعل، باعتباره آلية واعدة وفاعلة ومؤثرة لتحقيق النهضة في مسيرة تطوير التعليم) [12]

الهوامش :

1 ـ فاروق فهمي ومنى عبد الصبور، المدخل المنظومي في مواجهة التحديات التربوية المعاصرة والمستقبلية. دار المعارف القاهرة (د.ت)، ص 23.

2 ـ المرجع نفسه، ص 18.

3 ـ عبد الحميد بن تشيكو، حول الأسس العلمياتية (الإبسمولوجية) للمقاربة المنظومية. مجلة المبرز، عدد 20، 2004، ص 225.

4 ـ محمد عبد المنعم المشري، المدخل المنظومي وتطوير التعليم الزراعي، المؤتمر العربي الثالث حول المدخل المنظومي في التدريس والتعليم، المنعقد يومي 5 و6 أفريل 2003. ص 169.

5 ـ فاروق فهمي الوجه الآخر للعولمة، دار الحريري للطباعة القاهرة، ط2، 2002، ص 61.

6 ـ وديع مكسيموس داود، البنائية في عمليتي تعليم وتعلم الرياضيات. المؤتمر العربي الثالث حول المدخل المنظومي في التدريس والتعليم، المنعقد يومي 5 و6 أفريل 2003، ص 51.

7 ـ فاروق فهمي ومنى عبد الصبور، المدخل المنظومي... مرجع سابق ص 28.

8 ـ المرجع السابق، ص 84.

9 ـ وديع مكسيموس داود، البنائية في... مرجع سابق، ص50.

10 ـ أحمد سعد الجبالي، استراتيجية الجودة الشاملة وتكنولوجيا التعليم، المؤتمر العربي الثالث حول المدخل المنظومي في التدريس والتعليم، المنعقد يومي 5 و6 أفريل 2003. ص 146.

11 ـ محمد عبد المنعم المشري، المدخل المنظومي وتطوير التعليم الزراعي، المؤتمر العربي الثالث حول المدخل المنظومي في التدريس والتعليم، المنعقد يومي 5 و6 أفريل 2003. ص 169.

12 ـ حسن شحاتة، نحو تطوير التعليم في الوطن العربي. الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 2003. ص 87.

آفاق تطور السياحة الجزائرية

بقلم

أ/ محمد الناصر حميداتو

أستاذ مساعد بمعهد الاقتصاد والعلوم التجارية

المركز الجامعي بالوادي

ملخص :

نعرض في هذا الموضوع المشاريع المراد تطبيقها مستقبلا ، الأهداف التي يسعى القطاع إلى تحقيقها من خلال الآفاق وأهداف التنمية والتطوير، ونبرز مؤثرات العولمة على صناعة السياحة في الجزائر وتأثيرات المتغيرات العالمية على السياحة الجزائرية.

Résumé:

Cet article présente les projets de futur en domaine touristique et les buts raelisés par le secteur touristique à partir du dévloppement durable du secteur. Enfin, il présente les impactes de la mondialisation sur la production touristique, tous les changements internationaux et leurs conséquances sur le tourisme algerien

مقدمة :

ورثت الجزائر عن فرنسا هياكل سياحية ضعيفة الأمر الذي تطلب تنميتها لتلبية الطلب المحلي والدولي، لكن أولويات الدولة كانت لخلق هياكل ومؤسسات اقتصادية وتربوية ومناصب عمل جعل من السياحة سلعة كمالية وزاد في تهميشها النظام الاقتصادي المطبق الذي يفرض التقوقع وعدم التفتح مع الدول الغربية إلا أن السياحة عرفت نمو بطيئا ولكنها تدهورت في التسعينات نتيجة الأزمة الأمنية والاقتصادية التي عاشتها البلاد، وبعد الاستقرار تولدت زيادة في الاتجاه نحو السياحة ويفسر هذا بزيادة الطلب عن السياحة من الداخل والخارج الأمر الذي فرض التسيير الحكيم للقطاع وتغيير الرؤى القديمة والتفتح أكثر نحو العالم الخارجي.

وسنلخص واقع وآفاق السياحة الجزائرية ضمن:

أولا : المشاريع المستقبلية

يسعى القطاع السياحي إلى :[1]

- تحقيق 3 ملايين سائح منهم 2 مليون أجنبي و1 مليون مواطن بالخارج.
- جلب ما يفوق مليار دولار سنة 2013.
- استحداث 230 000 منصب عمل منها 60 000 مباشرة .

ولهذا أعدت وثيقة بطلب من رئيس الحكومة لمساهمة ووضع استراتيجية وطنية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، حيث شرعت وزارة السياحة سنة 2000 لإعداد خطة عمل لإنجازها، تناولت تصور تطوير قطاع السياحة آفاق 2013 تحت عنوان "مخطط أعمال التنمية المستدامة للسياحة في الجزائر آفاق 2013 "وأجريت عليه بعض التعديلات وإدخال بعض المكتسبات حسب الظروف الراهنة، حيث شملت الوثيقة توضحا لأم العناصر المرتقب حصولها في القطاع منها :

. الامتيازات المستقبلية المفضلة من أجل تثمين عقلاني للإمكانات التي تزخر بها الجزائر وجعلها مقصد سياحي.
. الأهداف النوعية والكمية في آفاق 2013.
. التدابير والأدوات لتنفيذ العمليات المبرمجة لإنشاء صناعة سياحية حقيقية وتقييمها.

ويستمد هذا التطور على الاختيارات الأساسية المكرسة في النصوص التشريعية الصادرة خلال شهر فيفري 2003 والمتعلقة بالتنمية المستدامة للسياحة ومناطق التوسع السياحي، والاستغلال الأمثل للموانئ لأغراض سياحية والأخذ بعين الاعتبار الأولويات حسب التوازنات الاقتصادية الكلية.

1 . اختيار المنتجات السياحية الواجب تنميتها : و ذلك لأجل :

. إدماج مقصد الجزائر ضمن السوق الدولية للسياحة.
. تلبية حاجيات المواطنين في مجال السياحة و الاستجمام.
. التطور المنسجم والمتوازن المستدام للنشاط السياحي.
. تثمين التراث السياحي الوطني .

ولذلك كانت الأولية لتنمية أنماط معينة للسياحة الجزائرية وهي :

1) السياحة الصحراوية : من خلال الترويج لتحويل الجنوب إلى أقطاب سياحية، نظرا لتنوع التراث الطبيعي والثقافي والتاريخي للجنوب بما يسمح بتطوير منتجات متنوعة مثل السياحة الاستكشافية . السياحة الثقافية والدينية. سياحة المغامرات والتجوال . السياحة الرياضية بما فيها السباقات الطويلة والراليات.[2]

2) السياحة الشاطئية : لأنها تشكل المرحلة الأولى للتنمية السياحية و ذلك لـ :

. وجود طلب كبير داخلي باعتبار التوزيع السكاني المتمركز في الشمال حيث بلغ عدد المصطافين سنة 2002 حوالي 118 مليون.[3]

. استفادة نسبة كبيرة من السكان من العطل خلال موسم الاصطياف.

. اختيار الجالية الجزائرية المقيمة بالخارج فترة الصيف لقضاء عطلتها السنوية بالشواطئ .

. ارتفاع الطلبات المسجلة للاستثمار من طرف المتعاملين الوطنيين والأجانب.

. الإقامة في الشواطئ مكان محبذ للمواطنين الذي يقصدون الشمال ويخيمون في الصيف.

أما على الصعيد الدولي :

- تشكل مركز للتدفقات حيث تمثل75% من الطلب السياحي العالمي وخاصة بمنطقة البحر المتوسط.[4]
- السياحة الشاطئية أكثر مردودا من السياحة الحضرية.
- الاستفادة من تجارب الدول المجاورة.
- المنتوج المفضل للطبقات الاجتماعية وتوافر هياكل الاستقبال.

3) سياحة الأعمال والمؤتمرات : حيث تعرف نمو على المستوى الدولي لأنها تشكل إيرادا كبيرا وهدف تدريجيا ومستوى يوحي بقدرات الجزائر، وكثافة الأنشطة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والنمو المتزايد العلاقات الخارجية وتطلع الدور الذي تصبو إليه الجزائر على المستوى القاري والدولي.

4) سياحة الحمامات المعدنية : رغم توفر طاقات كبيرة أكثر من 202 منبع فإن المحطات المستغلة 08 منها 01 متخصصة في المعالجة بمياه البحر لذا وجب الاهتمام بهذا النوع لأنها:

. لها آثار سيسيولوجية واقتصادية هامة وتساهم في تحسين صحة المواطنين ورفاهيتهم وحفظ تكاليف العلاج

. تؤدي إلى ظهور أقطاب سياحية تتطور نحو مدن مائية حقيقية.

. قابلية التهيئة والتوسيع لتشمل فئات الشباب والعائلات وغيرهما لتحقيق الرفاهية [5].

5) السياحة الثقافية: حسب المنظمة العالمية للسياحة فإن السياحة الثقافية ستشغل في العشرينات القادمة مكانا هاما في العرض السياحي العالمي، ومن حيث مؤهلات الجزائر المختلفة كالتراث والمعالم الثقافية والدينية والأعياد المحلية والتقليدية والفنون الشعبية وأقطاب الإنتاج والتنشيط الحرفي.

لذلك وجبت تنميتها لتحقيق :

- الحصول على حصة من الأسواق السياحية القريبة والبعيدة .
- فرصة لتطوير سياحة رفيعة عن طريق تنظيم دورات ذات مواضع لشخصيات تاريخية (القديس أوغستين. الأب نوكو) والمواقع الدينية (الزاوية التجانية، المدن الرومانية. القصور ....)

6) السياحة الرياضية والترفيهية والاستحمام : مثل سياحة المناخ والصيد البحري والغوص وسياحة المتعة والرحلات البحرية والسياحة الرياضية (الغولف. مراكز الألعاب).

عندما يسمح بتنظيم تظاهرات ذات بعد دولي تساهم في خلق الفضول لزيادة المنشآت الجديدة المنجزة على ضوء العمارة المحلية ولتحقيق أهداف يريد القطاع الوصول إليها على المدى البعيد.

2 ـ **الأهداف :** وهي كثيرة ومتنوعة :

أهداف نوعية :

. تثمين الطاقات الطبيعية.
. تحسين نوعية الخدمات السياحية.
. تحسين صورة الجزائر السياحية .
. تحسين أداء السياحة من خلال المشاركة في التسيير.
. إعادة الاستثمار للمؤسسات الفندقية والمنتجعات.
. المساهمة في التنمية المحلية .
. المحافظة على البيئة .
. تلبية حاجيات الطلب الوطني والدولي المتزايد.

أهداف كمية :

. زيادة التدفقات السياحية إلى 3 ملايين سائح منهم 2 مليون أجنبي و1 مليون جزائري مهاجر.
. رفع طاقات الإيواء إلى187000 سرير سنة 2013 وتحقيق عوائد بقيمة1 مليار دولار .
. تنمية الاستثمار السياحي ويكون ذلك من خلال تدابير وتنمية الاستثمار.

3. التدابير :

1) التهيئة والتحكم في العقار لمواصلة الأعمال المنجزة خلال الفترة بين 2002 و2003 وذلك بـ :

- استحداث القطاع لنصوص قانونية متعلقة بالتنمية المستدامة [6].
- إعادة هيكلة المؤسسات المكلفة بالتنمية والدراسات السياحية.
- إنشاء صندوق لدعم الاستثمار السياحي.
- أعداد مخطط توجيهي للتهيئة السياحة لمناطق التوسع.
- تدعيم الوكالة الوطنية لتنمية السياحة (ANDT) بالوسائل المادية والبشرية.
- التنازل بالتراضي عن حوالي 600 هكتار في السنة للأراضي المتواجدة داخل مناطق التوسع .
- تخصيص موارد مالية لفائدة الصندوق الخاص بدعم الاستثمار.

2) تأطير و تمويل المشاريع السياحية و ذلك من خلال:

- تأسيس منتوجات مالية ذات خصوصية (قروض فندقية).
- تخفيض نسبة الفائدة كإجراء إضافي لتشجيع وتحفيز الاستثمار.

3) تدابير دعم التكوين والنوعية من خلال:

- إعادة النظر للبرامج التكوينية وتكييفها .
- فتح فروع اقتصاديات السياحة بالجامعة الجزائرية.
- مواصلة عملية القياس والمراقبة على تطبيق قواد وإجراءات العمل الدولية.
- تحسين محيط السياحة من خلال إجراءات النظافة العمومية وحماية الصحة وحماية المستهلك.
- تسهيل إجراءات دخول وخروج السياح وتكييف النقل وخدماته.

4) تدابير دعم الترويج السياحي من خلال المبادرة للقيام بالأعمال التالية: (7)

- تنظيم وتقوية أداة الترويج والدعاية للسياحة.
- إعداد مخططات متعددة السنوات للاتصال المؤسساتي ودراسة الأسواق.
- إشراك الحركة الجمعوية والمنظمات المهنية في الترويج السياحي
- تكثيف وإثراء مشاركة القطاع في المعارض المخصصة بالخارج.
- دعم التظاهرات الترويجية المنظمة في الجزائر.

ثانيا : السياحة والعولمة

تشير تقديرات المنظمة العالمية للسياحة فيما يخص الحركة السياحية، أنه من المتوقع قدوم حوالي مليار سائح سنة 2010 وأن عوائدها ستصل إلى 6300 مليار دولار أي ما يمثل 11% من الاقتصاد العالمي (8) وليس من مصلحة الجزائر البقاء على الهامش لأهمية مواردها وان كارثة تسو نامي التي ضربت السياحة في جنوب شرق آسيا ستجعل من الطلب السياحي العالمي يتحول إلى مناطق أخرى كشمال إفريقيا ومناطق البحر المتوسط، ولقد عصفت رياح العولمة بأسواق الرحلات وأثرت فيها شيئا فشيئا وعلى قطاع الخدمات وتجارة الخدمات وخاصة السياحة الدولية التي كان عليها أن تخرج من العزلة لمواجهة المنافسة الدولية الشرسة لذا حتم على الجزائر

العمل والمواكبة والمواصلة والمعاصرة، لأن النهوض بالأوضاع الاقتصادية أصبحت ضرورة ملحة مهما وأن المصلحة الآنية والمستقبلية في ظل تزايد هبوب الرياح العولمة والاندماج السريع لاقتصاديات العالم تستوجب تحديد الإمكانات المادية والبشرية المتاحة لضمان موقع لها على هذا الكوكب لذا وجب الاهتمام بالسياحة الدولية وتحرير الأسواق لتسهيل دخول المتعاملين والمستثمرين في مجال تطوير هذا النشاط الذي أصبح صناعة حقيقية والذي يعرف نموا وآفاقا في المدى القريب والبعيد.

وأمام هذه الوضعية يتعين على الجزائر وضع استراتيجيات وسياسات لتحرير قطاع السياحة ليولد كبيرا وليتمكن من الصمود والتكييف مع عراقيل ومشاكل اقتصاد السوق القائم على المنافسة أي تحديد وتدقيق المراحل والخطوات بحيث نستند إلى رؤية مستقبلية ذات أبعاد وطنية للتنمية والتي أساسها تخلي الدولة على التسيير والاستثمار في القطاع العمومي وتشجيع القطاع الخاص.

مما يزرع ثقة ويقوي التوجه نحو الازدهار الأمر الذي يستقطب المستثمرين الأجانب والمحليين وخاصة أن التوجه الجديد والذوق الرائج حسب المنظمة العالمية للسياحة يفرض إعادة توزيع جديد للسياح الأجانب تجاه البلدان المضيفة الجديدة وأن هناك اتجاهات وعراقيل ترسم في بداية الألفية الثانية منها.

- اهتمام أكبر بآثار السياحة على البيئة.
- زبائن السياحة متعلمين وأكثر دراية وتشدد.
- مكانة هامة للمؤسسات المتعددة الجنسيات حيث تفرض نفسها في السوق السياحية.
- البحث الدائم عن نجاعة المنشآت القاعدية والعمل على جعلها تروق للذوق الجديد.
- الموارد البشرية وضرورة دوام تكوينها حسب متطلبات العصر والطلب.

ولمواجهة هذه التحديات تقترح المنظمة العالمية للسياحة الإجراءات التالية [9]:

- إنشاء موارد وخدمات جديدة.
- تظافر الجهود واشتراك الجماعات المحلية في التنظيم والاستغلال.
- إقامة شراكة بين الإدارة والمستثمرين في مجال البيئة.
- إبعاد المتعاملين غير المحترفين .
- تحسين العلاقة بين المضيف والسائح .
- تطوير وترقية المنتوج السياحي والترويج له.

إن تطبيق هذه المنظمات بالنسبة للجزائر يطرح مشكل التطابق بين التكوين وطبيعة العمل والشغل والهوة الموجودة بين البطالة المتفاقمة الغير مؤهلة ومطلب التأهيل الذي ينبغي أن تساير مستوى الدول المتقدمة وللوصول إلى عرض يلبي وينمي الطلب الخارجي فإنه ينبغي تطبيق المستلزمات والضروريات الواجب تبنيها لإرساء ثقافة سياحية فعالة وأهمها:

- تسخير الإعلام للتعريف بالكنوز السياحية المتنوعة التي تزخر بها الجزائر.[10]
- وضع استراتيجية سياحية وخلق أنماط سياحية جديدة ومميزة تعكس طبيعة وثروة الجزائر.
- التكوين المتخصص في السياحة حسب المتطلبات العالمية والاستفادة من تجارب الآخرين.
- العمل على تغيير السلوكات والذهنيات التي تختزل السياحة في الرقص والخمر وغيرهما و نشر الوعي السياحي لما يخدم البلاد والفرد والمجتمع والبيئة[11].
- إتقان اللغات الأجنبية الأكثر رواجا من طرف ممارسي النشاط السياحي.
- وجوب التحلي باليقظة الدائمة واللباقة الأدبية في التعامل مع السائح.
- اعتماد الصدق في الكلمة والتفاني وإتقان العمل والحفاظ على الأمانة والرزانة وضرورة التحلي بالحكمة لأن قيمة العمل السياحي يورث للأبناء وللأجيال وكل ما نزرعه اليوم يحصده الجيل القادم.

- رسم الهدف المراد تحقيقه وكل سير نحو الهدف تطور وكل تطور مفيد للأمة.

ثالثا : السياحة الجزائرية والمتغيرات العالمية

تحرير تجارة الخدمات من خلال الاتفاقيات العامة لتحرير تجارة الخدمات وتأثيرها على السياحة والخدمات السياحية ثم أهم الآثار المتوخاة من انظمام الجزائر إلى المنظمة العالمية للتجارة على السياحة والخدمات السياحية وعلى المنتوج السياحي الجزائري.

1. السياحة و تحرير التجارة في الخدمات GATS:

منذ الجولة الأولى لمفاوضات التجارة العالمية GATT عام1947 وحتى بداية الجولة التاسعة عام 1986 بأوروجواي تركزت جهود تحرير التجارة العالمية، في إزالة العوائق القطرية أمام تبادل السلع المنظورة أو السلع المادية ومن الغير الممكن تحقيق التبادل الدولي للسلع والخدمات دون غيرها من ممارسة المهن الحرة مثل الطب والصيدلة والهندسة والمحاماة والمحاسبة والإرشاد السياحي، وإلى غاية بروز المنظمة العالمية للتجارة سنة 1994 وظهور اتفاقيات تحرير تجارة الخدمات GATS والتي تبحث في تحرير التبادل الدولي للخدمات وتوحيد القواعد الموضوعية المنظمة لهما، وأهمها السياحة والنقل والاتصال والدعاية ..... وترمي الاتفاقية إلى زيادة مشاركة الدول النامية في إمكانية تسهيل التجارة الدولية من خلال الالتزامات المحددة التي يتفاوض عليها مختلف أعضاء المنظمة العالمية للتجارة وهي :

- تعزيز قدرات وخدمات المحلية وكفاءتها وقوتها التنافسية في أمور أخرى من خلال إمكانية الوصول إلى التكنولوجيا على أسس غائية.
- تحسين إمكانيات وصولها إلى قنوات التوزيع وشبكات المعلومات.
- تحرير الوصول إلى الأسواق في القطاعات وطرق التوريد ذات الأهمية الاقتصادية[12].

وضعت الاتفاقية العامة لتحرير تجارة الخدمات إطار قانوني علمي لاستبعاد التدريجي لحواجز التجارة الدولية في الخدمات وهي موضوعات طويلة الأمد وذلك لتحسين بيئة السوق الحر التي تمول المستهلكين بأفضل

المنتجات والخدمات الممكنة بأفضل الأسعار وعند تطبيق هذا المبدأ على السياحة لا يوجد مشاكل ولكن نجد المشاكل عند الربط بين القطاعات الخدماتية.[13]

أيضا المزايا النسبية للدول وإطلاق المنافسة كان أساس هذه الاتفاقية وفلسفتها كانت الأسهل للشركات في الحساب والقيام بالعمليات السياحية ويرى أثر ذلك في نتائج التجارة عند الدول الأكثر نموا اقتصاديا وزيادة في عوائدها وتقييد المنافسة يعني تقييد تجارة الخدمات.

2. الجاتس GATS والخدمات السياحية :

غطت الاتفاقية السياحة والكثير من الخدمات مثل البنوك والاتصالات والتأمين والتعليم والرياضة والصحة والتصميمات والاستشارات الإدارية والعمارة والنقل وهي ليست مثل تلك الصناعات التي تخلق بسبب تجارة المنتجات ولكن بإمداد الخدمات والتي تعتمد على حرية الحركة للأفراد والمعلومات وتتضمن الاتفاقية الصناعات والإنتاج والتوزيع والتسويق والمبيعات وتوصيل الخدمات وأن الدول المشاركة في GATS سوف تسمح لموردي الخدمات من الأجانب أن يدخلوا في الأسواق المحلية ويتعاملون نفس معاملة المحليين وهذا يعني.

1- منظموا الرحلات، المنشآت الحكومية والشركات المرتبطة بالسياحة والسفر من أي بلد سوف تكون قادرة على أن تقوم بالعمل داخل بلاد أخرى.

2- في قطاع الفنادق تسهل الاتفاقية حقوق الامتياز عقود الإدارة واتفاقية خدمة التكنولوجيا من براعة الاختراعات والرخص.

3- الشركات الأجنبية يمكنها بيع خدماتها تحت نفس ظروف الشركات المحلية والموردين من الدول الأخرى .

4- المساواة بينهم في الحوافز والعوائد الحكومية.

5- يمكنهم نقل العمالة الخاصة بهم إلى البلاد الأجنبية ويتمركزا بها.

6- يحق لأعضاء GATS أن يكونوا أحرار في تطبيق القيود لكي تحمي الآداب العامة وخصوصية الأفراد والبيئة ومنع الغش والخداع والأمن والأمان بصفة عامة.[14]

للتذكير فإن قائمة GATS أشارت إلى أكثر من 140 خدمة ولكن السفر والسياحة والسلع المرتبطة بهما أخذت أكثر اهتمام من قطاعات الخدمات لدرجة أن بعض الدول تستخدم الخدمات السياحية للدخول في هذه الاتفاقية لأهمية الخدمات السياحية في تحرير تجارة الخدمات.[15]

وطبقا للمنظمة العالمية للتجارة فإن التقديرات تشر إلى أن حساب الخدمات السياحية يشكل أكثر من ثلث الصادرات الكلية للخدمات التجارية في كل من الدول النامية والمتقدمة.[16]

3. أثر اتفاقية GATS على أرباح السياحة :

تعمل الاتفاقية العامة لتحرير تجارة الخدمات على زيادة أرباح السياحة بعدة طرق:

- الأهداف الكلية لها هو حفز النمو الاقتصادي وبعث نماء الطلب على المعارض والحوافز ورجال الأعمال والاجتماعات والمؤتمرات.
- التجارة الأكبر في السلع والخدمات يعني فرص عمل أكثر للتجارة في السفر.
- تخفيض القيود التجارية سوف ينمي السياحة ويزيد عوائدها وينتج مجال المنافسة لموردي الخدمات ذوي الحجم الصغير والمتوسط.
- تزيد الاتفاقية من عوائد صناعة السياحة للاقتصاد الوطني والتوظيف إن نجحت الآراء في إزالة القيود والسماح لنظام الحجز الآلي computer Reservation System (CRS) في السوق الجديدة والذي سوف يكون مفتوحا ومتاحا للبلد حيث تحقق مزايا كثيرة في الاستثمار والتدريب والتوظيف والمدفوعات والضرائب.

أيضا يزيد CRS و GATS من تدعيم إمكانية الدول النامية للمنافسة و ذلك يربط أوضاع مسؤوليات سوقهم المفتوح ومتطلبات التحول التكنولوجي والخبرة، وسوف تؤدي سرعة الدول النامية في تدعيم صناعات وجعلها في وضع تنافسي مع الدول المتقدمة.

ويمكن القول بأن الاتفاقية العامة للتجارة في الخدمات لا تعتبر الدواء لكل المشاكل التنموية ولكن تشكل حافزا مهما لتحديد السياسات السياحية

حيث أن السياحة قطاع خدمات تتمتع ببعض المزايا النسبية الغير موجودة في الدول المتقدمة و بعض المنتجات ذات الطابع الخاص و التي لا تخضع للمنافسة في الأسواق العالمية و بالتالي تحقيق مكاسب صافية مع مكاسب الدول المتقدمة.

4. السياحة العالمية وتأثيرها على صناعة السياحة في الجزائر:

عند دخول الجزائر في اتفاقية مع المنظمة العالمية للتجارة وبالتالي التوقيع على الاتفاقيات العاملة للتجارة في الخدمات فسوف يكون من حق سلاسل الفنادق العالمية وشركات السياحة الدولية ووسائل النقل الجوي والبري والبحري أن تعمل بحرة في السوق الجزائرية ومن الواجب علينا مراقبة ما يجري في السوق الدولية والسياحة العالمية وما يجري فيها من تطورات قد تؤثر على النشاط السياحي وهذه أهم التأثيرات المتوقعة في حالة دخول الجزائر في المنظمة العالمية للتجارة و "GATS":

1- سوف يشهد المنتوج السياحي الجزائري ارتفاعا ملحوظا في الأسعار لدخول العديد من الشركات السياحية الأجنبية العملاقة في مجال الاستثمار السياحي وما تترتب علي من توظيف المنجزات العلمية الحديثة وهذا ينعكس على الأسعار بصورة إيجابية وذلك للتطور في النوعية.

2- يتجه مستوى المنتوج السياحي الجزائري للارتفاع نظرا للاهتمام الشركات الأجنبية التي ستدخل السوق المحلية باستخدام الوسائل المتطورة والتكنولوجيا العالمية في مختلف مراحل العمل السياحي وتطبيق الأفكار الجديدة والمتطورة التي تسهم في تحسين وتطوير الخدمات السياحية ولذلك تصبح صناعة السياحة في الجزائر قادرة على المنافسة الخارجية.

3- انظمام الجزائر للمنظمة العالمية للتجارة يتيح الفرصة للقوى العاملة الماهرة المحلية بالعمل بالشركات السياحية المحلية والدولية مما يخفف البطالة.

4- ارتفاع أداء العنصر البشري الوطني في الشركات الجزائرية نتيجة لدخول هذه الشركات في منافسة أداء العاملين فيها من خلال التدريب والرسكلة لمواكبة التطورات المتلاحقة التي تحدث في الأسواق العالمية.

5- إمكانية حدوث انخفاض في حجم العرض السياحي في الجزائر نتيجة للدخول في دائرة المنافسة العالمية وخروج بعض الشركات المحلية من السوق العالمية لعدم قدرتها على مواجهة هذه المنافسة التي تعتمد على تقديم خدمات وبرامج سياحية مرتفعة المستوى ومميزة.

6- مشكلة الجزائر الأساسية هي العرض السياحي وعند إبرام هذه الاتفاقية فإن العرض سوف ينمو بصفة تدريجية وبالتالي تحسن في النوعية والكم ومنه تقهقر في السياحة الداخلية نتيجة الدخول الحر للسياح الأجانب وقدرتهم التنافسية.

خاتمة :

مع بروز الألفية الثالثة بدأت ملامح السياحة الجزائرية تعود من جديد في اتجاهين أولهما استعادة زبائنها وموقعها القديم وثانيهما اكتساح وفتح أسواق جديدة وتطلعات مستقبلية منظمة الاتجاه نحو اقتصاد السوق بما يعني ذلك التخلي الكلي لاحتكار الدولة للقطاع وبالتالي تشجيع الاستثمار المحلي والأجنبي وذلك بتقديم مغريات إضافية وتكملة الخصخصة التامة للمؤسسات العمومية العاملة في القطاع و ذلك بإعطاء دورا كبيرا للقطاع الخاص في عملية التنمية وتفعيل النشاط السياحي.إن التوجه نحو الألفية الثالثة يعني التفكير بالخطوات الثابتة والمراحل القادمة بجدية وعمل متواصل لأن السوق الجديدة تعرف وتفرض أنماط جديدة ومتغيرة وفق ما تفرضه متطلبات العولمة والتكتلات الاقتصادية، ولذلك وجب دراسة السوق والتأثيرات الممكن حدوثها من خلال الانظمام إلى منظمة التجارة العالمية والتوقيع على الاتفاقيات العامة لتحرير تجارة الخدمات، حتى نستفيد من تجارب الآخرين ونأخذ النمط والنوع الذي نراه مناسبا من حيث مردود يته وفعاليته وآثاره الإيجابية.

إن هناك صراعا حقيقيا بين الدول وهناك منافسة شرسة لإثبات الوجود وأن الحكمة تقتضي التعامل من موقع قوّة يفرض الرؤى المتوسطة والبعيدة الأمد للواقع الاقتصادي لإيجاد مكان لنا في هذه الأرض نحترم فيه وتراعى فيه ممتلكاتنا.

. الهوامش :

(1) وزارة السياحة (الجزائر)، مجلة سنة الجزائر في فرنسا ، العدد الثاني، أوت/سبتمبر 2002، ص 15.

(2) تيغرسن الهواري، آفاق التنمية الاقتصادية من خلال قطاعي الفلاحة والسياحة (دراسة حالة إليزي) رسالة ماجستير في الاقتصاد القياسي، كلية الاقتصاد والتسيير، الجزائر، 2002 .

(3) حميداتو محمد الناصر، السياحة في الجزائر دراسة تحليلية قياسية للتدفقات السياحية، رسالة ماجستير اقتصاد وإحصاء تطبيقي ، INPS ، الجزائر، 2005 ص97.

(4) د.مثنى طه الحوري وإسماعيل الدباغ، مبادئ السفر والسياحة، مؤسسة الورق للنشر والتوزيع، عمان، 2000 ص78.

(5) حميداتو محمد الناصر، السياحة في الجزائر دراسة تحليلية قياسية للتدفقات السياحية، مرجع سابق، ص59.

(6) فريدة بالقائد، الحماية القانونية للآثار، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية، العدد 5 ، الجزائر2003/2002، ص 33.

(7) وزارة السياحة والصناعات التقليدية، الأسفار ملف إعلامي، الجزائر، 1999 ، ص20.

(8) المجلس الاقتصادي الاجتماعية، الجزائر، مشروع تقرير(مساهمة من أجل إعادة تحديد السياحة الوطنية)الدورة 16، نوفمبر 2000 ، ص57.

(9) نفس المرجع، ص58.

(10) توصيات الملتقى الثالث لقسم الآثار، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية، مرجع سابق، ص97.

(11) توصيات الملتقى الأول حول الاقتصاد الجزائري في الألفية الثالثة، جامعة سعد دحلب، البليدة، ماي 2002.

(12) هاني ديودار، أثر الاتفاقية العامة للتجارة في الخدمات GATS في المهن الحرة، دار الجامعة الجديدة للنشر، الإسكندرية، 2001 ص17.

(13) دسعيد البطوطي، اقتصاديات السياحة والفنادق، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 2002، ص229.

(14) هاني دويدار، أثر الاتفاقية العامة للتجارة في الخدمات GATS في المهن الحرة، مرجع سابق، ص24.

(15) CazesGeorges/Poties-inretsFrançoise,Le tourismeUrbin,PUF,Paris,1996,p38.

(16) د.سعيد البطوطي ، اقتصاديات السياحة والفنادق، مرجع سابق، ص225.

البنوك و المحيط الاقتصادي الجديد في الجزائر

بقلم
أ/ عبد الله غالم
كلية العلوم الاقتصادية و علوم التسيير
جامعة بسكرة. الجزائر

الملخص :

يهدف هذا المقال إلى حصر المشاكل التي تعاني منها المؤسسات الاقتصادية والبنوك التجارية و إلى الإصلاحات الاقتصادية الواجب القيام بها ، هذا من جهة و من جهة ثانية حاولنا تقديم جملة من التوصيات للبنوك التجارية حتى تساهم في دفع عجلة التنمية الاقتصادية و هذا انطلاقا من التقويم الداخلي للبنوك ثم إلى محيطها الاقتصادي.

Résumé:

Cet article à pour but de limiter les problèmes de les qu'elles soufrent les entreprises économiques et les banques commerciales et les réformes économiques qui doivent être prises. D'un autre coté, on a essayé de présenter un ensemble de recommandations pour les banques commerciales pour qu'elles poussent participer a pousser la roue de développement économique et ça a partire de l'évaluation interne des banques et puis vers son environnement économique.

.المقدمة :

اعتمدت الجزائر في مساعيها لإعادة بناء اقتصادها وللانضمام إلى المنظمة العالمية للتجارة، على البنوك التي تسعى على المدى القصير والمتوسط إلى توسيع شبكتها، وكذلك للتكيف مع اقتصاد السوق؛ على الرغم من أعباء الديون الخارجية وحاجة الوطن إلى المزيد من الاستقرار السياسي.

وعليه فقد تم الانتقال من هيمنة الدولة على النشاط الاقتصادي إلى اقتصاد السوق. وهنا نجحت البنوك في تكييف أنشطتها خاصة في هذه المرحلة الانتقالية والتي تعتبر خطوة حاسمة في مسيرة التنمية الاقتصادية[1].

إن الانتقال من اقتصاد مسير إداريا تهيمن عليه الدولة إلى سوق حر، يتطلب مجموعة من الإصلاحات الجوهرية. ومن بين هذه الإصلاحات كان القطاع المصرفي الذي يعد الرافد الأساسي في تمويل المؤسسات العمومية الغارقة بالديون وهنا استعملت الدولة كل البنوك بما فيها أصغر و أحدث بنك تملكه الدولة وهو بنك التنمية المحلية(BDL)" Banque de Développement Local" على فتح باب الاكتتاب أمام رأس المال الخاص و في غضون ذلك، أتاحت إعادة رسملة المؤسسات العمومية التي تعاني من الخسائر و شراء دين القطاع العمومي لخمسة بنوك تجارية حكومية كبيرة للتحرك نحو العمل على أسس التجارة الحرة، غير أن صعوبة الحصول على قروض مصرفية وعلى مستلزمات الإنتاج والركود في السوق المحلية يشكلان ضغطا على مديري ومسيري القطاعين العام والخاص[2].

إن إصلاح القطاع العام المهيمن على الاقتصاد الوطني اعتمد بالدرجة الأولى على القطاع البنكي الذي وضع استراتيجية تعاون مع البنك الدولي، وارتكزت هذه الاستراتيجية على خوصصة بعض الوحدات الاقتصادية وإغلاق الأخرى . وهنا تم تأسيس إحدى عشرة شركة قابضة "Holding" لإدارة حصة الدولة في تلك المؤسسات المؤقتة. وآلت موجودات الدولة العاملة في القطاع الخاص إلى الشركات المساهمة المستقلة[3].

لقد اتسم التحرك نحو الخوصصة بالتردد وبدأت بنوك القطاع العمومي مقاومة دخول رأسمال القطاع الخاص إليها ورفضوا اقتراح البنك الدولي بشأن عملية الخوصصة المكثفة وهذا من خلال إصدار السندات كما فعلت أوروبا الشرقية.[4]

وعليه سوف نتعرض في هذا المقال إلى البنوك التجارية العمومية والمحيط الاقتصادي الجديد وهذا من خلال النقطتين التاليين :

- البنوك التجارية العمومية و المحيط الاقتصادي الجديد.
- توصيات موجهة للبنوك.

I : البنوك التجارية العمومية و المحيط الاقتصادي الجديد.

من أجل التصدي لمشكلات القطاع المالي التي ظهرت خلال السنوات القليلة الماضية تم إنشاء نظام سليم للوساطة المصرفية بالاستناد إلى قوى السوق في إدارة السياسة النقدية وضمان استخدام آليات السوق لتعبئة التمويل المحلي للميزانية. والواقع أن المؤشرات تدل على أن حجم وفعالية

الوساطة المالية قد حقق نموا بدرجة كبيرة مع تنفيذ الإصلاحات ومع ذلك مازالت هناك حاجة إلى إصلاحات أخرى لتعزيز الوفرات المالية والنهوض بالتخصيص الفعال للموارد.

و فيما يلي نتعرض إلى العناصر التالية: المشاكل التي تعاني منها المؤسسات و البنوك . الرقابة النقدية و الإصلاحات المالية . إصلاحات تعزيز الوفرات المالية و التخصيص الفعال للموارد.

أولا/ المشاكل التي تعاني منها المؤسسات و البنوك[5]:

1 . بالنسبة للمؤسسات :

أ . المؤسسات العمومية الاقتصادية بحاجة دائما لأموال لأن الإمكانيات المتولدة من نشاط تلك المؤسسات ضعيفة حيث نجد أن المؤسسات حاليا بحاجة إلى القرض المصرفي.

ب . لا يمكن في الوقت الحالي الحصول على أموال خارج السوق المصرفي لأن إمكانيات السوق المالي محدودة.

ت . إن بعض المؤسسات معنية بفكرة الخوصصة [6].

ث . الاهتمام بالمردودية المالية يجعل المؤسسات تعاني من مشاكل تسويق منتجاتها لأن فيها منافسة.

و . نلاحظ حاليا بالنسبة لتمويل المؤسسات يبقى الأساس دائما هو البنك.

2 . بالنسبة للبنوك:

أ . تعاني من ضعف في الموارد بالأخص الزبائن(الودائع) حيث أن أغلبية الودائع هي تحت الطلب يعني أنها غير مستقرة ؛

ب . العلاقة . بنوك، مؤسسات . هي علاقة تجارية لكن نسجل دائما أنها تساعد المؤسسات العمومية انطلاقا من تعليمات من وزارة المالية ؛

ت . انسحاب الدولة تماما من تمويل الاقتصاد ؛

ث . الافتقار إلى الإطار المؤسساتي و الخبرة للقيام بالوساطة المالية الحقيقية؛

ج . ضعف السوق الثانوية للأوراق المالية الحكومية التي تسهل تنفيذ عمليات السوق المفتوحة من جانب بنك الجزائر[7]؛

ح . ضعف المركز المالي للبنوك التجارية و اعتمادها على منح القروض المشكوك في تحصيلها و عدم اعتماد البنوك التجارية في الجزائر على تطبيق آليات تسيير ذات كفاءة حتى تتمكن من تحقيق الأرباح؛

خ . تعاني البنوك التجارية من افتقارها إلى اتخاذ أساليب حديثة في الإدارة بصفة غامة وعدم اتخاذ معايير علمية واقتصادية في منح القروض والاعتماد على الودائع فقط؛

د . إن البنوك التجارية في الجزائر تعاني من ضعف التأهيل و التأطير في مجال الصرفية؛

ذ . غياب المنافسة بين البنوك في تقديم أحسن الخدمات المصرفية وقلة البنوك الأجنبية التي ستؤدي إلى حركية هذا القطاع

ر. إن الخطوات المنجزة لتوسيع نطاق التمويل الطويل الأجل ما تزال غير كافية؛

ز . انخفاض دور السوق المفتوحة نظرا لبدايتها في نهاية سنة 1996م بسبب السيولة الراكدة في الجهاز المصرفي و قلة عرض الأوراق المالية القابلة للتداول؛

س . ضعف الثقة بين الأفراد و الجهاز المصرفي بسبب نقص الإعلام والدعاية المصرفية و عدم نشر الثقافة المصرفية لدى المواطنين [8]؛

ش . عدم استخدام شبكة الانترنيت وهذا يبن كذلك عدم تلاؤم نشاط البنك مع المحيط الاقتصادي الجديد ؛

ثانيا / الرقابة النقدية و الإصلاحات المالية.

في سياق تحول الجزائر إلى اقتصاد السوق، طرأ تغير جذري خلال السنوات الأخيرة في طريقة تشغيل القطاع المالي. فمن نظام اعتمد على نوع واحد من البنوك، لعبت فيه الخزينة دورا مباشرا في تمويل الاقتصاد بتوجيه الائتمان من خلال البنوك التجارية المملوكة للدولة إلى مؤسسات عامة خاسرة تفتقر إلى الفعالية، تتحرك الجزائر الآن بشكل مطرد نحو إقامة نظام مالي حديث قائم على آليات السوق.

و فيما يلي نتطرق إلى كل من التنظيم النقدي، الترتيب الخاص بالنقد الأجنبي، إعادة هيكلة البنوك/الإطار التنظيمي، توسيع نطاق الأدوات المالية وتمويل المساكن.

. التنظيم النقدي :

في أواخر الثمانينات، اُتخذت أول مجموعة من التدابير لتحسين نشاط القطاع المالي وكان من بينها إنشاء سوق مالي[9] بين البنوك التجارية. ومُنحَت الأخيرة استقلالها وجرى تطبيق نظام اتفاقيات إعادة الشراء بين البنوك التجارية والبنك المركزي الجزائري.و في سنة 1990م أنشأ قانون النقود والائتمان إطارا نقديا جديدا أحرز بعض التقدم نحو وضع الدعامة المؤسسية لقيام بنك مركزي يتمتع بالاستقلال.و في سنة 1992م، توقف البنك المركزي الجزائري عن فرض حدود الائتمان القصوى على إقراض البنوك التجارية، وبدأ يعتمد تماما على إعادة تمويل البنك المركزي للاقتصاد. وفي أكتوبر 1994م فرض البنك المركزي الجزائري شرطا على البنوك التجارية يقضي بوجود احتياطي ممول لديها(بنسبة 3 % من مجموع الودائع، مع استبعاد الودائع بالعملات الأجنبية). وبدا العمل بمزادات إعادة الشراء في مايو 1995م لتوفير السيولة للبنوك التجارية. وكان الهدف من المزادات زيادة دور أسعار الفائدة من خلال السماح بتطبيق ممارسات السوق التنافسية وضمان المزيد من الشفافية بخصوص معايير توزيع الائتمان. وقد ارتفع عدد المزادات بصفة مستمرة، حيث تعقد مرة كل ثلاثة أسابيع. وأخيرا طبقت عمليات السوق المفتوحة رسميا في نهاية سنة 1996م ولو أن نشاطها ما يزال منخفضا بسبب السيولة الزائدة حاليا في الجهاز المصرفي وقلة عرض الأوراق المالية القابلة للتداول لتعميق السوق. وفيما يتعلق بأسعار الفائدة، حُرِرَت هذه الأسعار تدريجيا خلال هذه العملية واُستبدلت الحدود القصوى على أسعار الإقراض بضوابط على فوارق أسعار الفائدة، ثم أزيلت كافة الضوابط وظهرت أسعار الفائدة الحقيقية الموجبة في أوائل سنة 1996م.

1 . الترتيب الخاص بالنقد الأجنبي:

حل محل جلسات تحديد أسعار النقد الأجنبي في البنك المركزي الجزائري إنشاء سوق للنقد الأجنبي بين البنوك في ديسمبر 1995م. ولتحسين الحصول على النقد الأجنبي، صرح البنك المركزي بإنشاء مكاتب الصرافة في ديسمبر 1996م، التي انتشرت كثيرا في سنة 1997م

2 . إعادة هيكلة البنوك/الإطار التنظيمي:

لتقوية الوساطة المالية في الاقتصاد، قامت السلطات بجهد رئيسي لإصلاح القطاع المصرفي. ففي 1992 . 1993م، تحملت الحكومة ما يزيد على 275 بليون

دينار من المطالبات المصرفية المشكوك في تحصيلها والمستحقة على المؤسسات العامة (ما يعادل 60 % من الائتمان المصرفي المقدم إلى الاقتصاد و23 % من إجمالي الناتج المحلي في سنة 1992م) وذلك باستبدالها بسندات حكومية. وأُغلِقَ صندوق إعادة التأهيل في نهاية سنة 1996م، حيث تمت آخر مدفوعات منه (10 بلايين دينار) في ديسمبر 1997م، في نهاية إعادة رسملة البنوك. ومنذ سنة 1995 من نُفِذَت معايير احترازية جديدة، بما في ذلك فرض حدود على تركيز المخاطرة ووضع قواعد واضحة لتصنيف القروض والمخصصات و في الوقت الحالي، يتعين على البنوك أن تفي بنسبة لرأس المال على الأصول المرجحة بالمخاطر بمقدار 4 % والتي سترتفع إلى المعيار الموضوع من بنك التسويات الدولية وقدره 8 % بحلول سنة 1999م.

وللتأكد من أن البنوك ملتزمة بالشروط الجديدة، قررت الحكومة إعادة ترخيص جميع البنوك من جانب البنك المركزي الجزائري . وأعيد بالفعل ترخيص بنكين منهما بنك خاص جديد. ولإتمام هذه العملية، تجرى عمليات التدقيق على البنوك ومن المتوقع أن تنتهي بنهاية سنة 1997م وقد أدى الانضباط المالي الذي فرضته البنوك على المؤسسات العامة إلى تحسين حافظة القروض المصرفية. وعلاوة على ذلك ولتحسين تشغيل النظام المصرفي وحماية المودعين، اَستُحدِثت آلية محدودة لضم الودائع في ديسمبر 1997م. وأخيرا، سينفذ بدعم فني من البنك الدولي برامج يهدف لتحديث نظام المدفوعات بصفة خاصة لتسريع المعاملات فيما بين البنوك وداخلها.

3 . توسيع نطاق الأدوات المالية:

لزيادة عدد و أنواع الأدوات المالية المتاحة، حيث كان من المتوقع أن يبدأ سوق الأوراق المالية عملياته قبل نهاية سنة 1997م. وقد أُنشِئت لجنة لتنظيم سوق الأوراق المالية والرقابة عليها بالإضافة إلى شركة لإدارة مبادلات الأوراق المالية وقد استفادت الجزائر في هذا الخصوص من المساعدة الفنية لتدريب العاملين وهي المساعدة التي قدمتها كندا، فرنسا و تونس .

4 . تمويل المساكن :

تحول بنك الإسكان (الصندوق الوطني للتوفير والاحتياط) إلى بنك للقروض العقارية يعمل على أساس تجاري في أفريل 1997م. وأُنشِئت شركة لإعادة التمويل العقاري وشركة لضمان القروض العقارية في سبتمبر وديسمبر 1997م على التوالي. وكان من المنتظر أن تساعد هاتان الشركتان

على توسيع الإمكانات المالية في قطاع الإسكان بما في ذلك تشجيع المؤسسات المالية الأخرى على دخول السوق.

ثالثا/ إصلاحات تعزيز الوفرات المالية و التخصيص الفعال للموارد[10].

1 . يأتي في مقدمة جدول أعمال الإصلاح مسألة تعميق السوق الثانوية للأوراق المالية الحكومية. و من شأن هذا التعميق أن يؤدي إلى منحنيات للعائد يمكن استعمالها كمقياس آخر لاتخاذ القرارات وتسهيل تنفيذ عمليات السوق المفتوحة من جانب بنك الجزائر.

2 . يتعين الاستمرار في الجهود الرامية إلى تقوية الوضع المالي للبنوك الحالية حتى تتمكن من تحقيق نسب كفاية راس المال المستهدفة وأن تصبح قادرة على تحقيق الأرباح مما يسهل خوصصتها. وفي هذا الصدد، يجب اتخاذ الخطوات لمنع تكرار منح القروض المشكوك فيها على نطاق واسع إلى الشركات العامة. والواقع أن النجاح في الإصلاح المصرفي سيتوقف بشكل حاسم على توحيد قطاع المؤسسات العامة من ناحية و استمرار بنك الجزائر في مراقبة البنوك التجارية. و من ناحية أخرى سوف تدعوا الحاجة إلى تعزيز المنافسة بين البنوك من خلال إنشاء أسواق مالية غير مصرفية (للأسهم والسندات). وفي هذا الصدد، فإن تحرير الدخول إلى القطاع بالإضافة إلى الخوصصة وتزايد المنافسة الأجنبية سيزيد من ديناميكية هذا القطاع، وذلك بتشجيع اتباع أساليب الإدارة الحديثة والاستعانة بالخبرة الأجنبية. وينبغي أن تؤدي عملية التحرير وتعميق الأسواق المحلية في النهاية إلى تحرير حركة رؤوس الأموال والانتقال إلى القابلية الكاملة للتحويل التي تُعَرض الأسواق المالية المحلية بدرجة أكبر للمنافسة من جانب الأسواق العالمية.

3 . يستدعى الأمر اتخاذ خطوات لتوسيع نطاق التمويل الطويل الأجل من خلال تشجيع إنشاء أسواق للأوراق التجارية والقروض العقارية وغيرها من الأدوات المالية الطويلة الأجل. وفي هذا الصدد، ينبغي إعطاء أولوية كبيرة للانتهاء من إعادة هيكلة الصندوق الوطني للتوفير والاحتياط الجارية حاليا.

4 . يجري إنشاء سوق للأوراق المالية. وكخطوة أولى، أُنشِئت لجنة تنظيم سوق الأوراق المالية والرقابة عليها في أوائل سنة 1997م. والجدير بالذكر أن وجود أسواق فعالة للأسهم يعد ضروريا للنهوض بالقطاع الخاص الحديث، لأنها تعبئ المدخرات وتشكل مصدرا بديلا لتمويل الشركات عن طريق

الأسهم إذ تساعد في التغلب على القيود المفروضة على الشركات العائلية التقليدية. وربما أصبحت أيضا أداة رئيسية في تعبئة المدخرات المحلية والأجنبية لتمويل برنامج الخوصصة كما دلت عليه تجربة مصر والمغرب الناجحة. ولكي تصبح عنصرا رئيسيا في إنجاح برنامج الخوصصة [11].

II: توصيات موجهة للبنوك.

إن التوصيات التي يمكن أن تتوجه بها إلى البنوك التجارية الجزائية في ظل هذه الأوضاع الاقتصادية والمالية التي تعيشها البلاد ، تمس ثلاث مواضيع رئيسية والتي تتميز بدور مهم جدا في تكييف آلية عمل البنوك داخل المحيط الاقتصادي الجديد

وهي : أولا: التقويم الداخلي للبنوك، ثانيا: العلاقات مع العملاء، وثالثا: محيط النشاط المصرفي

أولا . التقويم الداخلي للبنوك [12].

. 1 . في إطار القواعد الجديدة لتشغيل الاقتصاد يجب مطابقة كفاءات عمال البنوك لاحتياجات العملاء المتزايدة والتطورات التكنولوجية. ولكي يتأتى ذلك، نقوم بـ:

أ . إعداد برامج تكوين تتناسب مع تطور النظام المصرفي.

ب . المشاركة الفعالة في التكوين ما بين البنوك من خلال الاستعمال الأمثل لوسائل "SIBF" (Société Interbancaire de Formation)

ت . استعمال البنية الداخلية للتكوين بصفة نظامية.

ث . تنظيم التكفل بالتكوين المصرفي على مستوى هياكل التعليم العالي بتحريك وتنشيط المدى "DES banque" و"DESS banque"

. 2 . بالموازاة لعمليات التكوين من المهم جدا تنظيم اتصالا داخليا وهذا لأجل:

أ . ضمان أحسن نشر للتعليمات و التوجيهات تجاه العمال.

ب . تحسين الثقافة المصرفية للعمال بتوفير الوثائق المختصة.

. 3 . أما فيما يخص الاعتمادات، فهي تتطلب مجهودا لـ:

أ . تكييف البينات ودورات الدراسة والقرارات من أجل الحصول على أحسن فعالية: أ1 . نشر دليل تيسير الاعتمادات. أ2 . تنمية قدرات تحليل الخطر. أ3 . إعادة إعداد مفوضية الاعتماد لتخفيض آجال معالجة ملفات الاعتماد.

ب . التقليص من اللجوء المتكرر للمكشوف المصرفي بتكييف أشكال الاعتماد الأخرى مع احتياجات العملاء، خصم الأوراق التجارية، الشيكات، تعبئة الديون، كفالة الصفقات، اعتمادات التوقيع، سند رهن البضاعة، الاعتماد الايجاري، الفكتورينغ...الخ

ت . رد الاعتبار للأخذ المعقول للمخاطر حتى لا يتم العمل فقط بحشد الضمانات.

ث. ترقية وتعميم متابعة الاعتمادات الممنوحة من خلال تدعيم المراقبة ووضع الوسائل المناسبة.

ج . تحفيز تمويل الاستثمارات وخاصة في غياب المؤسسات المالية والأدوات المناسبة، مع إمكانية إعادة خصم الاعتمادات المتوسطة الأجل لدى بنك الجزائر [13].

ثانيا . العلاقات مع العملاء :

1 . إدخال و تطوير سياسة تجارية نوعية لكل بنك بجعل في مقدمة هذه السياسة أهم ما عندها من نقاط: جودة خدمتها وسمعة علامتها.

السياسة التجارية لكي تحدث تأثيرا معنويا يجب أن ترتكز على:

أ . تسيير و سائل الدفع أكثر حداثة و شفافية.

ب. توفير كل المعلومات المفيدة للعمل لدى كل وكالة.

ت . إقامة علاقة مبنية على السرية فيما يخص عمليات الشراكة مع العملاء الراغبين في ذلك.

وبصفة عامة، يجب على المصرفي أن يكون في الاستماع لعميله وفي خدمته قدر استطاعته و مستعدا للتكفل بعملياته على المستوى اللامركزي وعليه أن يتعود على أن يكون هادئا في ردود أفعاله مهما كان الجانب القانوني للعميل.

2 . من المهم جدا أن يتعرف المتعاملين مع البنك على البنك من خلال دوره و الخدمات التي يمكن أن يقدمها لهم. و لكي يتم ذلك يجب وضع سياسة اتصال تتوافق مع الأهداف المنشودة بواسطة.

a. استخدام حملات إذاعية كافية.

b. النشر عبر وسائل مناسبة كل المعلومات المالية، الاقتصادية أو التعديلية التي يمكن أن تكون محل اهتمام العملاء، هذا إلى جانب هامش يذكر فيه الإحصائيات المالية و النقدية لبنك الجزائر.

هذه الإعمال تمكن من ترقية و تطوير سياسة ديناميكية للتسويق.

3 . بهذه الشروط يكون بالإمكان تدعيم جمع الموارد المالية التي تكون تحت الطلب بطريقة محفزة و يجب أن تكون المجهودات في هذا الاتجاه أكثر أهمية من الموارد المالية تحت الطلب التي لا تكلف إلا مصاريف التسيير.

إن تطور استعمال الشيكات في المبادلات الجارية كان سببا كافيا للبنوك لكي تندفع للالتزام بعملية واسعة تهدف من ورائها إلى صيرفة أكثر شمولية للاقتصاد.

4 . تعبئة الادخار تتطلب نظام على المقاربة الجديدة لإشكالية معدل الفائدة.إذ يجب على البنوك أن تراعي في العوائد التي تقدمها:

a. معطيات الاقتصاد الكلي الأساسية.

b. السياسة النقدية التي لا يمكن أن ترتكز على ترشيد الاعتماد فقط.

وتجدر الإشارة خاصة، داخل محيط يدفع للاستثمار من جديد، توقع نظام أكثر مرونة في اللجوء على إعادة الخصم لدى بنك الجزائر.

على البنوك أن تُدخِل مرونة أكثر في وضع معدلات الفائدة التي تقدمها على الموارد المالية لأجل، دون أن تلحق الضرر بعملية ترقية الأدوات المالية الأخرى.

من جهة أخرى، البنوك في حاجة كبيرة لتدعيم مواردها المالية، وإلا لن تستطيع أن تكون في أتم الاستعداد لتمويل استثمارات عملائها.

5 . الاستثمار، محرر من كل القيود بواسطة القانون الجديد و يساهم في الانفتاح على التوفير وكقياس مرافق لهذا القانون، تجدر الإشارة إلى التشغيل الفعال للأموال لاستقرار التبادلات طبقا لما جاء في القانون90/06 لـ 30 نوفمبر 1999م لبنك الجزائر. هذه الأموال تسمح بتأمين المستثمرين.

ثالثا. محيط النشاط المصرفي.

1 . مبدأ الاستقلالية يتضمن تولي البنوك مسؤولية القرارات التي تتخذها. كل أمر بالتمويل موجه لتدعيم نشاط أو ترقية عملية ما يجب أن يكون مصحوبا بمقاييس التوقع أو التنبؤ للتكفل بالنتائج المالية المغايرة في آجال معقولة.

2 . من المهم ترقية و تسهيل عملية إنشاء بنوك الأعمال، المؤسسات المالية، شركات توظيف الأموال، بنوك "Offshore" وشركات الاستثمار، لتتكفل بعملية تمويل الاستثمارات المنتجة وهذا بتوافق مع التشريع الصارم.

3 . يكون من المناسب تصور الدور الذي يمكن أن تؤديه عملية إنشاء صندوق للأسواق العمومية، في جعل ديون الدولة أكثر سيولة، خاصة تلك التي تحتفظ بها مؤسسات BTPH.

4 . ومن المستحسن تنظيم و بطريقة أكثر فعالية، أسواق الرهن والمال وشركات الكفالة المتبادلة التي تستطيع تسهيل الالتماس إلى الاعتمادات Pلترقية الصادرات، M.I/P.M.E.

5 . من الضروري جعل مشروع إنشاء شركة تأمين الاعتماد للتصدير واقعا ملموسا.

6 . من المهم أيضا تحسين نظام الإعلام فيما بين البنوك من أجل استعجال معالجة العمليات (تغطية الشيكات و الأوراق التجارية الأخرى و عمليات التحويل) و تطوير وسائل دفع جديدة كبطاقة الاعتماد ومنتجات أخرى في مجال النقود[14]

7 . مهم أيضا تعميم مهام البنك و قيوده على الإدارات التي لها علاقة بالنشاط المصرفي، خاصة إدارة الدومين، الضرائب والإدارة القضائية كذلك.

8 . كما يقتضي الأمر جعل التعامل على سندات الخزينة يكون بشروط أكثر أهمية بالنسبة للبنوك.

الخاتمـــة

من خلال دراستنا لهذا الموضوع توصلنا إلى أن:

1 . السياسة التمويلية في الجزائر ترتبط ارتباطا وثيقا بالاتجاه الاقتصادي للبلاد و بالأهداف المسطرة للسياسة الاقتصادية المنتهجة وهذا هو الذي كان وراء التغيرات التي طرأت عليها.

2 . أيضا الجهاز المصرفي تأثر كثيرا بالتحول الاقتصادي و تعرض لعدة إصلاحات تهدف إلى تحسين خدماته و زيادة فعالياته في تمويل الاقتصاد. خاصة في مرحلة التحضير للدخول في اقتصاد السوق وللانضمام للمنظمة العالمية للتجارة نلمس هذا بالأخص في قانون النقد والقرض المؤرخ بـ: 14 أفريل 1990م.

3 . ضرورة تكييف البنوك التجارية الجزائرية بشكل يساعد المؤسسات الاقتصادية على خوض المرحلة الاقتصادية الحالية والتي تتميز بأنها صعبة

جدا وتتطلب مجهودات كبيرة على كل الأصعدة: الاقتصادية، السياسية و الاجتماعية.

وعليه حاولنا تقديم مجموعة من النتائج والتوصيات :

أولا/ النتائج :

1 . أن المؤسسة العمومية الاقتصادية غير قادرة ذاتيا على القيام بتمويل نشاطها، سواء على المدى القصير أو الطويل و الالتماس إلى القرض أمر ضروري و مصيري.

2 . تساهم البنوك التجارية الجزائرية مساهمة قوية في تمويل المؤسسات العمومية الاقتصادية و بالأخص في تمويل نفقات التسيير.

3 . نسجل أن الائتمان المصرفي المستعمل حاليا يتمثل فقط في شكل واحد وهو المكشوف المصرفي، في حين أن للائتمان أشكال مختلفة بحيث تتوافق مع الاحتياجات التمويلية التي يمكن أن تتعرض لها المؤسسة في مرحلتي التسيير و التجهيز.

4 . نسجل أيضا أن قرض الإيجار"Crédit-bail" يمنح من طرف بنك تجاري واحد وهو بنك البركة، في حين نجد أن قانون النقد والقرض المؤرخ في 14 أفريل 1990م يسمح لجميع البنوك التجارية القيام بمنح هذا النوع من القرض.

5 . نسجل حاليا على مستوى السوق المالية دور جد مهم للبنك في مساعدة المؤسسات التي تلجأ إليه لتسيير إجراءات عملية طرحها للأسهم أو السندات، فهو يقدم لها خدمات متميزة في هذا المجال.

6 . التغيرات التي طرأت على السياسة التمويلية في الجزائر، سمحت للمؤسسة الاقتصادية أن تختار البنك الذي تريد التعامل معه وحملتها مسؤولية تدبير مواردها المالية و قبل هذا أقرت استقلالية المؤسسات الاقتصادية بما فيها المؤسسات المالية المصرفية.

7 . تحول الاتجاه الاقتصادي استوجب تطوير النظام المصرفي و المؤسسة الاقتصادية معا للدخول في مرحلة المنافسة أين يكون الهدف الأول لهما هو البقاء في السوق.

ثانيا / التوصيات :

1 . ضرورة استخدام أشكال الائتمان المصرفي التي لا يستعملها البنك التجاري بدعوى أن عملاء البنك لا يطلبونها وإنما عليه أن يوضح مزاياها ويقترحها عليهم.

2 . لفت الانتباه إلى ضرورة تحسين خدمات البنك و توطيد العلاقة "**بنك . مؤسسة**".

3 . حتمية توضيح الفائدة التي يمكن أن تجنيها المؤسسة من خدمات البنك داخل سوق البورصة وذلك عن طريق إعلام مسيري المؤسسات الاقتصادية بأهمية هذه الخدمات.

4 . على البنوك التجارية أيضا أن تبادر بإقامة أيام إعلامية تشرح فيها لرجال الأعمال وأصحاب المؤسسات أهمية قرض الإيجار في سد احتياجات تمويل التجهيز.

5 . ضرورة تدعيم الجهاز المصرفي بهياكل جديدة سواء كانت وطنية أو أجنبية عامة أو خاصة.

. الهوامش :

1 ـ عبد اللطيف بن أشنهوا ، الجزائر اليوم بلد ناجح ، الجزائر: بدون مكان نشر ، سنة 2004 ، ص 70.

2 ـ إعداد مركز البحوث المالية و المصرفية، المغرب العربي : عقبات على طريق البناء الاقتصادي "مجلة الدراسات المالية و المصرفية" 3، من السنة الخامسة(سبتمبر 1997) ص ص. 62 ،63.

3 ـ إعداد مركز البحوث المالية و المصرفية، المغرب العربي :عقبات على طريق البناء الاقتصادي ص 62.

4 ـ المرجع السابق ص 63.

5 ـ حياة بن اسماعين، دور البنوك التجارية في تمويل المؤسسات الاقتصادية، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة عنابة، ص 206.

6 ـ ضياء مجيد الموسوي ، الخوصصة و التصحيحات الهيكلية " آراء و اتجاهات "، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، سنة 2001 ص 28.

7 ـ إشكالية إصلاح المنظومة المصرفية عناصر من أجل فتح نقاش اجتماعي ، " المجلس الوطني الاقتصادي والاجتماعي" الدورة 16 ـ نوفمبر 2000 ـ ص 33.

8 ـ رمضان شراح ، أداء الاقتصاديات الخليجية في ظل توجهات السياستين المالية والنقدية مع الإشارة إلى دور الجهاز المصرفي ـ" مجلة العلوم الإنسانية" ـ جامعة منتوري ـ عدد 18 ديسمبر 2002 ، ص ص. 98 ـ 110.

9 ـ محفوظ جبار، البرصة وموقعها من أسواق العمليات المالية ـ الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ـ 2002 ، ص 18.

10 ـ كريم النشاشبي وآخرون، الجزائر: تحقيق الاستقرار والتحول إلى اقتصاد السوق (واشنطن: صندوق النقد الدولي، 1998) ص 95.
11 ـ نفس المرجع السابق، ص 96.
12 ـ شمعون شمعون، بورصة الجزائر- تقديم عبد الرزاق موري، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ـ 1999 ، ص 140.
13 ـ نادر ألفريد قاحوش، العمل المصرفي عبر الانترنيت، الأردن ـ الدار العربية للعلوم ـ 2000 ص 19
14 ـ طارق عبد العال، التقييم ـ تقدير قيمة بنك لأغراض الاندماج و الخوصصة، الإسكندرية: الدار الجامعية، 2000، ص ص. 288 ـ 290.

ـ قائمة المراجع:

1 ـ إشكالية إصلاح المنظومة المصرفية عناصر من أجل فتح نقاش اجتماعي،" المجلس الوطني الاقتصادي والاجتماعي" الدورة 16 ـ نوفمبر 2000.
2 إعداد مركز البحوث المالية و المصرفية، المغرب العربي: عقبات على طريق البناء الاقتصادي "مجلة الدراسات المالية والمصرفية" 3، من السنة الخامسة(سبتمبر 1997) .
3 حياة بن اسماعين، دور البنوك التجارية في تمويل المؤسسات الاقتصادية، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة عنابة .
4 رمضان شراح، أداء الاقتصاديات الخليجية في ظل توجهات السياستين المالية و النقدية مع الإشارة إلى دور الجهاز المصرفي ـ" مجلة العلوم الإنسانية" ـ جامعة منتوري ـ عدد 18 ديسمبر 2002.
5 شمعون شمعون، بورصة الجزائر ـ تقديم عبد الرزاق موري، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ـ 1999.
6 ضياء مجيد الموسوي، الخوصصة و التصحيحات الهيكلية " آراء و اتجاهات "، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، سنة 2001.
7 طارق عبد العال، التقييم ـ تقدير قيمة بنك لأغراض الاندماج و الخوصصة، الإسكندرية: الدار الجامعية، 2000.
8 عبد اللطيف بن أشنهوا، الجزائر اليوم بلد ناجح، الجزائر: بدون مكان نشر، سنة 2004.
9 كريم النشاشبي وآخرون، الجزائر: تحقيق الاستقرار و التحول إلى اقتصاد السوق (واشنطن: صندوق النقد الدولي، 1998).
10 محفوظ جبار، البرصة وموقعها من أسواق العمليات المالية ـ الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر و التوزيع ـ 2002 .
11 نادر ألفريد قاحوش، العمل المصرفي عبر الانترنيت، الأردن ـ الدار العربية للعلوم ـ 2000 .
12 Henri bourguinat ,Globalisation et politiques économiques-les marges de manœuvre ,Paris, édition : Economica,1999.
13 M.Aglietta,A.brender,V.coudert, Globalisation financière : l'aventure obligée, Paris, édition : Economica,1990.

الاقتصاد غير الرسمي
«اقتصاد الظل»
كشكل من أشكال التهرب الضريبي

بقلم

د/ مقدم عبيرات
أستاذ محاضر بكلية العلوم الاقتصادية
جامعة الأغواط. الجزائر

أ/ أحمد بساس
أستاذ مساعد بكلية العلوم الاقتصادية
جامعة الأغواط. الجزائر

الملخص :

يعد الاقتصاد الرسمي إحدى السلوكات التي لا تخدم الاقتصاد الوطني، والذي يعتبر أحد سلوك من سلوكات التهرب الضريبي حيث يعمل خارج مراقبة الدوائر وهيئات الدولة ، وعليه فإن هذه الدراسة تبحث في هذا السلوك مبرزة الأسباب التي تؤدي إلى نمو هذه الظاهرة وقياسها، والآثار السلبية والإيجابية التي تنشأ عن هذا النشاط غير الرسمي إلى جانب ما يمكن اتخاذه للحد أو تخفيف من هذه الظاهرة.

Résumé

L'économie informelle, c'est une évidence est un comportement qui ne profite guère à l'économie nationale, elle est considérée comme l'une des nombreuses faces de l'évasion fiscale puisqu'elle opère hors du champ du contrôle des structures étatiques et des institutions internationales. De ce fait, notre étude cherche à cerner et à mettre en exergue aussi bien les causes et mobiles menant au développement de ce phénomène pour en suite l'évaluer, mais également à mettre en relief les effets positifs et négatifs qui en résulte tout en essayant de voir qu'elles sont les mesures à prendre pour y mettre fin ou tout au moins à l'atténuer.

تمهيد :

تواجه الدول النامية عند إقامتها نظم ضريبية تحديات كبيرة ،حيث أن معظم العمالة تعمل في قطاعات الزراعة والمشاريع الصغيرة غير الرسمية كونها نادرا ما تتقاضى أجور منتظمة ثابتة، وبعيدة عن السجلات الحسابية، مما يصعب على إدارة الضرائب حساب الوعاء الضريبي لهذه الأجور،إضافة إلى عدم تقيد هذه النشاطات على مستوى السجل

التجاري،الذي بواسطته يمكن معرفة هذه النشاطات والتصريح لدى إدارة الضرائب ، وفي مثل هذه الحالات نكون أمام ما يسمى بقطاع غير رسمي،وبالتالي هناك أموال تدور خارج الاقتصاد الرسمي الذي بواسطته تقوم إدارة الضرائب بتحصيل إيراداتها إزاء هذه النشاطات ، وهذا ما يبين لنا بأن هناك نشاط اقتصادي غير رسمي يساهم في شكل من أشكال التهرب الضريبي ، والذي يطلق عليه أيضا بالاقتصاد الخفي أو اقتصاد الظل .

وظاهرة الاقتصاد غير الرسمي ليست حديثة بل تعتبر من المظاهر القديمة،حيث أن جرائم التهرب والغش الضريبي بدأت مع بناء الحكومات نظم ضريبية والتي تريد محاربة مثل هذه السلوكات التي تنشط خارج المجالات الرسمية أو تعمل في الخفاء.

مما سبق ذكره حول مثل هذه الظواهر أو النشاطات التي تدور خارج مراقبة الدولة يدفع بنا إلى طرح جملة من التساؤلات نحاول إيجازها فيما يلي.

. ما المقصود بالاقتصاد غير الرسمي ، وما هي الأسباب التي تؤدي إلى نمو هذه الظاهرة وقياسها .

. ما هي السبل والطرق الناجعة لمحاربة ظاهرة الاقتصاد غير الرسمي .

للإجابة على كل هذه التساؤلات نحاول تقسيم هذه الدراسة إلى أربع محاور كالتالي:

I. مفهوم وأسباب نمو الاقتصاد غير الرسمي .

II. قياس نمو الاقتصاد غير الرسمي (اقتصاد الظل) .

III. الآثار السلبية والإيجابية للاقتصاد غير الرسمي .

IV. أهم الطرق للحد أو التخفيف من ظاهرة الاقتصاد غير الرسمي .

I. مفهوم وأسباب نمو الاقتصاد غير الرسمي.

أولا: مفهوم الاقتصاد غير الرسمي .

يوجد شبه اتفاق بين دراسي الاقتصاد غير الرسمي. على أن الظاهرة تشترك فيها كافة دول العالم المتقدم منها والنامي، بل ويمكن التأكيد بأن كل شخص منا قد شارك بالفعل بشكل أو بآخر سواء كان يعلم أولا يعلم

أنه يتعامل في الاقتصاد الخفي، وعلى سبيل المثال عندما نشتري سلعة من بائع جائل، أو موظف يقود سيارة أجرة بدون ترخيص أثناء الليل على سبيل العمل الإضافي ، وسباك يقوم بإصلاح ماسورة مياه تالفة لعميل ويحصل على أتعابه نقدا لكنه لا يُقر بهذا الإيراد لإدارة الضرائب[1] في كل هذه الحالات فإننا نتعامل في الاقتصاد الخفي حيث تم إحصاء 732 سوق غير رسمي بمساحة 27 مليون م^2 وتشغيل أكثر من 100.000 تاجر أي ما يعادل 13% من التجار المسجلين بالمركز الوطني للسجل التجاري، وهذه النتائج تحصلت عليها المصالح المشتركة التي تضم مصالح الضرائب والتجارة والجمارك [2] غير أن اتحاد التجار والحرفيين الجزائريين يُفند تصريحات السلطات ويكشف على أن 500.000 تاجر يمارسون التجارة الموازية [3] وذلك أن من أمثال هؤلاء لا يكشفون عن مثل هذه الدخول إلى السلطات الضريبية، وقد نسمع عن بعض المعاملات التي تتم بالمقايضة، أو نسمع عن بعض الأنشطة والمبادلات غير القانونية التي تتم ولا تسجل [4]، والجدول أدناه يعطي بعض أنواع الأنشطة الاقتصادية غير الرسمية [5] .

جدول رقم (1) . **بعض أنواع الأنشطة غير الرسمية.**

نوع النشاط	المعاملات النقدية	المعاملات غير النقدية	التهرب الضريبي	تجنب دفع الضرائب
الأنشطة غير المشروع	الاتجار في السلع المسروقة، المخدرات والقمار التهريب والاحتيال	مقايضة المخدرات والسلع المسروقة أو المهربة، إنتاج المخدرات		
الأنشطة المشروعة			دخل الأعمال الحرة الذي لا يتم الإبلاغ به، الأجور والمرتبات والأصول التي	- التخفيضات أو المزايا الإضافية التي تمنح للموظفين.

- جميع الأعمال التي يقوم بها الفرد بنفسه والمساعدة التي يحصل عليها من أطراف أخرى.	يحصل عليها الفرد من الأعمال غير المبلغ بها والتي تتصل بالخدمات والسلع المشروعة			

المصدر: فريدريك سنايدر مع دومينيك انستي، مقالة صندوق النقد الدولي، قضايا اقتصادية، الاختباء وراء الظلال، ص 2.

كما يُعرف الاقتصاد غير الرسمي على أنه مجموعة أو سلسلة من النشاطات اللاشرعية تنشأ على هامش الاقتصاد الرسمي تُمارس من طرف أفراد أو جماعات محترفة الميدان هدفها الأساسي البحث عن الربح السهل، التهرب من الضرائب ومن المراقبة[6]، أما بالنسبة لـ(TANZ 1982) فإن الاقتصاد الخفي ينصرف إلى كافة الدخول التي لا يتم الكشف عنها للسلطات الضريبية، والتي قد تدخل أوقد لا تدخل ضمن حسابات الدخل القومي [7].

ثانيا : أسباب نمو الاقتصاد غير الرسمي (اقتصاد الظل).

لا شك أن هناك أسباب أدت إلى نمو الاقتصاد غير الرسمي وتقسيمه عبر مختلف اقتصاديات العالم ، إلا أن هذه الأسباب تختلف من دولة إلى أخرى وسنحاول بصفة عامة حصر هذه الأسباب في الآتي:

1 ـ ارتفاع مستوى الضرائب .

يتزايد الحافز نحو التحول إلى العمل في الاقتصاد الخفي إذا كانت الأنشطة في الاقتصاد الرسمي تتعرض للمزيد من الضرائب من وقت لآخر، ويعتمد قرار المشاركة في الاقتصاد الخفي للتهرب من الضرائب على أساس من الموازنة بين العقوبات التي قد يتعرض لها الفرد في حالة اكتشاف التهرب، وكافة المخاطر الأخرى وبين الدخول الإضافية التي ستعود عليه من التهرب من دفع الضرائب، آخذا في الاعتبار مدى استعداده لتحمل المخاطرة وبناء ا على هذه الموازنة يتخذ الفرد قراره بالتهرب أو عدم التهرب.

ويؤدي نمو العبء الضريبي سواء أكان ذلك بالنسبة للضرائب المباشرة أو الضرائب غير المباشرة إلى رفع نسبة الضرائب إلى الناتج القومي، وهو ما يدفع إما إلى محاولة تجنب الضرائب أو التهرب من دفع الضرائب، ويؤدي ارتفاع العبء الضريبي إلى تحويل بعض الأنشطة إلى الاقتصاد الخفي حيث تُصبح هذه الأنشطة غير مسجلة، وبالتالي لا تدفع الضرائب.

كما تُمثل العلاقة التبادلية بين التضخم وارتفاع مستويات الضريبة على الدخل عاملا إضافيا يؤدي إلى ازدهار أنشطة الاقتصاد الخفي، فعندما تزداد الدخول الاسمية مع ارتفاع معدلات التضخم ينتقل دافعي الضرائب إلى شرائح أعلى من الدخل، وهو ما يؤدي إلى ارتفاع معدلات الضرائب بالرغم من أن الدخل القابل للتصرف بعد فرض الضريبة قد ينخفض من الناحية الحقيقية بفعل وجود التضخم، لذلك يعمد بعض الأفراد إلى التهرب الضريبي من خلال إخفاء جانب من دخولهم عند كتابة إقراراتهم الضريبية.

أوقد يميلون إلى تفضيل إجراء المعاملات من خلال نظام المقايضة حتى يتجنبون انخفاض مستويات المعيشة الناجمة عن التضخم وارتفاع معدلات الضريبة في ذات الوقت، على أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل يؤدي تخفيض معدلات الضريبة إلى القضاء على الاقتصاد الخفي؟

إن تخفيض معدلات الضريبة قد لا يعني بالضرورة القضاء على الاقتصاد الخفي، ذلك أن المتعاملين فيه يتمتعون بمعدل ضريبة فعلي يساوي الصفر، وبالتالي فإن تخفيض معدل الضريبة بعدة نقاط ليس من المحتمل أن يؤثر على رغبة هؤلاء الأفراد في إظهار دخولهم الحقيقية ودفع الضريبة المطلوبة، إلا أنه على أحسن الفروض يُمكن تخيل أن تخفيض معدل الضريبة سوف يُقلل من الحافز نحو دخول مزيد من الأفراد إلى الاقتصاد الخفي، أما هؤلاء الذين يتعاملون فعلا في الاقتصاد الخفي فيصعب تصور أن تتأثر أعدادهم بتخفيض معدلات الضريبة [8].

2 ـ اللوائح الحكومية.

يمكن أن تؤدي اللوائح الحكومية إلى زيادة كبيرة في تكلفة العمالة التي تتحملها المؤسسات في الاقتصاد الرسمي، ومن بين هذه اللوائح، الحواجز التجارية، لوائح سوق العمل.

وتُفرض هذه اللوائح إما بهدف تنظيم ممارسة أعمال معينة، أو رفع مستوى الرفاهية الاقتصادية للأفراد وضمان مستويات مناسبة من المعيشة أو الرفاهية أو الأمان، أوقد تُفرض بسبب أن الأنشطة ذاتها أنشطة إجرامية، أو غير قانونية من المنظور الاقتصادي أو الاجتماعي، وإذا كانت هذه القيود مصحوبة بغرامات مرتفعة ونظام فعال للرقابة فقد تحول دون وجود مثل هذه الأنشطة، إلا أنها للأسف في أغلب الأحوال ستحول هذه الأنشطة إلى الاقتصاد الخفي.

وتوضح العديد من الدراسات أن البلدان التي تكثر فيها اللوائح المنظمة لشؤونها الاقتصادية يكون حجم اقتصاد الظل فيها كبيرا، وعلى سبيل المثال، في عينة من 84 بلدا من البلدان النامية وبلدان التحول الاقتصادي والبلدان المتقدمة، تبين أن زيادة نقطة واحدة على مؤشر التنظيم (الذي يتضمن درجات من 1 إلى 5) تقترن بزيادة في اقتصاد الظل نسبتها 10 % [9].

3 - دور المشروعات الصغيرة .

يعتبر الاقتصاد غير الرسمي مهما جدا بالنسبة للمشروعات الصغيرة، كما أن المشروعات الصغيرة مهمة جدا لوجود الاقتصاد غير الرسمي، فالمشروعات الصغيرة تميل إلى إجراء معاملاتها باستخدام النقود السائلة، ومن المعلوم أن مجالات الأعمال التي تقوم على استخدام النقود السائلة في إجراء المعاملات تُسهل من الأنشطة الخفية ولهذا السبب نجد أن أي محاولة لتطبيق النظم الضريبية بالقوة يترتب عليها إفلاس عدد كبير من المشروعات الصغيرة، لأن هذه المشروعات تعمل أصلا في ظل افتراض عدم وجود ضرائب.

ويؤدي تزايد أعداد المشروعات الصغيرة، والتي تقوم أساسا على استخدام النقود السائلة في إبراء المعاملات إلى زيادة الأهمية النسبية للاقتصاد الخفي في العديد من الدول، حيث يُصبح من السهل التهرب من الضريبة عندما يكون حجم المشروعات صغيرا نسبيا [10].

4 - ندرة السلع.

تختلف طبيعة العوامل المسؤولة عن نمو الاقتصاد الخفي من الدول النامية إلى الدول المتقدمة فمما لاشك فيه أن جانبا كبيرا من التحليل عن أسباب نمو الاقتصاد الخفي تم على أساس حالة الدول المتقدمة التي تؤدي فيها الضرائب

دورا أساسيا، أما فيما يتعلق بالدول النامية فإن الأمر يختلف بعض الشيء، إذ أننا نواجه في هذه الحالة اقتصادا على جانب كبير من السيطرة والتحكم فيه من جانب الحكومة، ويعاني من عجز في عرض بعض السلع [11].

كما أن جانبا كبيرا من هيكل الضريبة ينصب على الضرائب غير المباشرة وليس الضرائب على الدخل، والتي يفترض أنها العامل الأساسي في نمو الاقتصاد الخفي في الدول المتقدمة، ولذلك نجد أن السبب الرئيسي في نمو الاقتصاد الخفي في هذه الدول هو نقص عرض السلع الاستهلاكية والرأسمالية وسهولة التلاعب في السلع التي توفرها الحكومة، والتي يُفترض أن يتم توزيعها من خلال المنافذ المختلفة التي تتولى الحكومة الإشراف عليها، وعلى اعتبار أن السلع الأساسية في هذه الدول تُباع بأسعار مدعمة، وتؤدي هذه الأسعار المنخفضة إلى انتشار ظاهرة الطوابير، وأحيانا زيادة فائض الطلب على السلع الاستهلاكية، ويؤدي ذلك الأمر إلى ازدهار أنشطة الاقتصاد الخفي، إما من خلال إعادة بيع هذه السلع بصورة غير قانونية، أومن خلال محاولة إنتاج هذه السلع في الاقتصاد الخفي للوفاء بإحتياجات الطلب عليها.

5 ـ دور المعلومات.

تلعب المعلومات دورا حيويا في أداء الاقتصاد الخفي، فكل من المشترين والبائعين في سوق السلع والعمل يحتاجون إلى معلومات عن الأطراف موضع المعاملات التي تتم على أرض الواقع، كذلك قد تكون هناك حاجة إلى المعلومات عن الأسعار والجودة والبدائل المتاحة، وبدون توافر هذه المعلومات، فإن السوق لا يمكنه العمل، وعلى إثر ذلك ينمو الاقتصاد غير الرسمي الناتج عن توافر المعلومات بسهولة وبتكلفة قليلة [12].

II. قياس الاقتصاد غير الرسمي (اقتصاد الظل).

يتعين أن يعرف المحللون وواضعو السياسات أن تقديرات الاقتصاد غير الرسمي يمكن أن تتباين تباينا كبيرا حسب الطريقة المتبعة في التقدير، وليست هناك طريقة تقدير مثلى فكل منهج يتسم بجوانب قوة وضعف منفردة ويخلص إلى رؤى ونتائج متميزة، ويوضح الجدول أدناه بعض المناهج الشائعة [13]:

جدول رقم (2) : أهم المناهج المستعملة في تقدير اقتصاد الظل (الاقتصاد غير الرسمي)

الطريقة	أهم السمات
المناهج المباشرة 1. المسح بالعينة 2. تدقيق الحسابات الضريبية (التحقيق المحاسبي) المناهج غير المباشرة 1) إحصاءات الحسابات القومية 2) إحصاءات القوى العاملة	تقدير حجم اقتصاد الظل من واقع بيانات المسح تقدير حجم اقتصاد الظل من واقع قياس الدخل غير المبلغ به الخاضع للضريبة تقدير النمو في اقتصاد الظل على أساس التفاوت بين إحصاءات الدخل والإنفاق في الحسابات القومية أو في البيانات الفردية. تقدير النمو في اقتصاد الظل على أساس الانخفاض في مشاركة العمالة في الاقتصاد الرسمي، على افتراض أن القوى العاملة تشارك بنسبة ثابتة عموما.
3) المعاملات	استخدام البيانات الخاصة بالحجم الكلي للمعاملات النقدية في الاقتصاد من أجل حساب إجمالي الناتج المحلي الاسمي الكلي (غير الرسمي والرسمي) ثم تقدير حجم اقتصاد الظل لطرح إجمالي الناتج المحلي الرسمي من إجمالي الناتج المحلي الاسمي الكلي.
4) الطلب على النقود	تقدير حجم اقتصاد الظل من واقع الطلب على السيولة على افتراض أن معاملات الظل تتم نقدا وأن الزيادة في اقتصاد الظل سوف تزيد من الطلب على السيولة.
5) المدخلات المادية (استهلاك الكهرباء)	تقدير من واقع استهلاك الكهرباء على افتراض أن استهلاك الكهرباء هو أفضل مؤشر مادي للنشاط الاقتصادي ككل ثم طرح معدل نمو إجمالي الناتج المحلي الرسمي من معدل نمو استهلاك الكهرباء الكلي، وإرجاع الفرق بينهما إلى نمو اقتصاد الظل
النماذج : منهج المتغير الكامن	تقدير حجم اقتصاد الظل كدالة للمتغيرات المشاهدة التي يفترض تأثيرها على اقتصاد الظل . كالعبء الضريبي وعبء القواعد التنظيمية الحكومية . والمتغيرات التي تتأثر بأنشطة اقتصاد الظل كالسيولة، ساعات العمل الرسمية والبطالة، وما إلى ذلك، وتتميز هذه الطريقة عن غيرها لكونها تنظر في العديد من أسباب والآثار في آن واحد.

المصدر: فريديريك شنايدر ودومينيك أتسي، مقالة صندوق النقد الدولي، قضايا اقتصادية، الاختباء وراء الظلال، ص 11. (اقتصاد الظل هو الاقتصاد غير الرسمي أو الاقتصاد الخفي) .

يتناول منهج تدقيق الحسابات الضريبية (التحقيق المحاسبي) المعلومات على أساس الجهود التي تبذلها الإدارة الضريبية لكشف الدخول التي لا يتم الإفصاح عنها، ويتم ذلك من خلال المراجعة الضريبية المكثفة لعينة من الممولين الذين قدموا إقراراتهم الضريبية للتأكد من مدى صحة هذه الإقرارات.

ويُفترض في هذه الحالة أن يقوم الممول بصورة تطوعية (بالطبع تحت وطأة التهديد القانوني من أن يقع فريسة قوانين التهرب الضريبي) بالكشف عن كافة مصادر دخله ويقوم هذا الأسلوب على أساس اختيار عينة عشوائية من دافعي الضرائب في المجتمع، ثم إخضاع أعمال هؤلاء للفحص الدقيق والمراجعة في محاولة لاكتشاف نسبة التهرب الضريبي ثم تعميم هذه النتائج على المستوى القومي.

إن هذا الأسلوب يُعاني من عدة عيوب منها العيوب المصاحبة لعملية المعاينة بصفة عامة كذلك فإن بعض أشكال الدخل يصعب قياسها أو اكتشافها، مثال ذلك أنشطة التهريب السلعي وتهريب المخدرات وغيرها، وهكذا فإن هذه الوسيلة في التحقيق لا تسمح بتقدير الحجم الكامل للدخول المخفاة بالنسبة لبعض القطاعات أو المجموعات، والتي ترتفع بينها درجة التهرب الضريبي، ولهذا السبب فإنه من الأمور المشكوك فيها أن يؤدي هذا الأسلوب إلى إعطاء معلومات كافية عن مستوى واتجاه الاقتصاد الخفي.

ومنه يمكن القول بأن تقديرات الاقتصاد الخفي يمكن أن تتأثر بسهولة بالتغيرات التي تحدث في أساليب كشف التهرب الضريبي وهيكل الضريبة وكذلك التشريعات الضريبية [14].

III. الآثار السلبية والإيجابية للاقتصاد غير الرسمي.

أولا : الآثار السلبية للاقتصاد غير الرسمي أو الاقتصاد الخفي .

إن الاقتصاد الخفي ظاهرة ذات أبعاد متعددة بشكل بالغ التعقيد، كذلك فإن حجمها وأسبابها وخصائصها والنتائج المترتبة عليها لم تُفهم بعد بالكامل، إن وجود الاقتصاد الخفي لا يؤدي إلى تشويه بيانات الناتج القومي الإجمالي فقط وإنما يؤثر على معلوماتنا حول معظم جوانب النشاط الاقتصادي وهي:

1❖ ـ فقدان حصيلة الضرائب : إن أول وأهم الآثار السلبية المترتبة على وجود الاقتصاد الخفي هي أن جانبا من الدخل الذي يتم توليده داخل الاقتصاد لا يُدفع عنه ضرائب، ويحدث ذلك عندما لا يقوم الأفراد بالكشف عن دخولهم أو طبيعة وظائفهم التي يقومون بها أوكلاهما للسلطات الضريبية.

وعندما يُصبح حجم الاقتصاد الخفي جوهريا، فإنه يؤدي إلى فقد جوهري في الإيرادات العامة ويترتب على الفقد في إيرادات الناتج عن التهرب الضريبي والناتج بدوره عن الحجم الكبير للقطاع الموازي[15] زيادة مستويات الضرائب على الأنشطة التي تتم في الاقتصاد الرسمي.

2❖ ــ الأثر على سياسات الاستقرار الاقتصادي: إن النمو السريع للاقتصاد الخفي قد يؤدي إلى فشل سياسات الاستقرار الاقتصادي، حيث يؤدي هذا الجانب من الاقتصاد إلى تشويه المؤشرات الخاصة بسياسة الاستقرار الاقتصادي، ومن ثم فإن هناك احتمال أن يقع صانع السياسة في خطر وصف طرق علاج غير صحيحة، يسبب تشخيص غير سليم للمشكلة، فنمو الاقتصاد الخفي ينتج عنه نوع من المغالاة في المؤشرات الرسمية للتضخم والبطالة ومعدلات نمو الناتج، وبالتالي فإن سياسة الاستقرار قد تستجيب لمشكلات غير واقعية.

3❖ ـ الأثر على توزيع الموارد: يؤثر وجود الاقتصاد الخفي على أداء الاقتصاد بطرق عدة، ويمكن أن يكون له آثار سلبية على الكفاءة الاقتصادية، فعلى سبيل المثال إذا حدث نمو في الاقتصاد ككل بما في ذلك الاقتصاد غير الرسمي، فإن الحاجة إلى المزيد من الخدمات العامة سوف تكون أكثر إلحاحا، وبما أن الضرائب تُجمع في هذه الحالة من الاقتصاد الرسمي فقط، فإن مستوى الضرائب على الأنشطة التي تتم في الاقتصاد الرسمي سيزداد وتؤدي هذه الزيادة في الضرائب إلى دفع المزيد من الأنشطة إلى التحول نحو الاقتصاد غير الرسمي، حيث تزداد العوائد من التهرب الضريبي.

وفي ظل هذا الوضع تُصبح المنافسة غير عادلة بين الاقتصاديين بالشكل الذي يمكن للاقتصاد الخفي من اجتذاب قدر أكبر من الموارد [16].

ثانيا : الآثار الإيجابية للاقتصاد غير الرسمي.

تُركز معظم الدراسات التي تمت على الاقتصاد غير الرسمي أساسا على الجوانب السلبية له سواء على مستوى التحليل الاقتصادي الكلي أو الجزئي، إلا أن ذلك لا يعني أنه لا توجد آثار إيجابية يتميز بها هذا الاقتصاد والتي تتمثل في:

1❖ ـ قدرة هذا الاقتصاد على تجنب آثار الإجراءات التنظيمية مثل قوانين الحد الأدنى في الأجور والضرائب، تجعل هذا الاقتصاد أكثر ديناميكية ومن ثم أكثر قدرة على الاستجابة بسرعة للتغيرات التي تحدث في ظروف السوق بالمقارنة بالاقتصاد الرسمي.

2❖ ـ قدرة هذا الاقتصاد على تقديم السلعة أو الخدمة بأسعار أقل، وبالتالي يحقق آثار توزيعية موجبة من خلال مساعدة محدودي الدخل.

3❖ ـ يساعد نمو الاقتصاد غير الرسمي على إيضاح التغيرات المطلوبة لكي يصبح الاقتصاد ككل في وضع تنافسي، فقد يكون الاقتصاد غير الرسمي أكثر استجابة للظروف والتغيرات على مستوى الاقتصاد بالشكل الذي قد يساعد صانع السياسة الاقتصادية على تبني عملية التعديل الهيكلي المطلوبة لكي يظل الاقتصاد في وضع أفضل.

IV. أهم الطرق للحد أو التخفيف من ظاهرة الاقتصاد غير الرسمي.

لقد أثبتت الدراسات أن التهرب الضريبي يؤدي دورا أساسيا في نمو الاقتصاد غير الرسمي، غير أن التهرب الضريبي يرتبط بمعدل الضريبة ، فإذا مال هذا المعدل إلى الارتفاع فإن معدل التهرب الضريبي يرتفع وبالتالي يرتفع معه حجم الاقتصاد غير الرسمي.

إن معالجة الاقتصاد غير الرسمي أو الاقتصاد الخفي الناجم عن ارتفاع مستوى التهرب الضريبي، أو ارتفاع معدل التهرب الضريبي لابد وأن ترتبط بالآتي:

1❖ - إعادة إصلاح أو تعديل النظام الضريبي كلما تطلب الأمر ذلك (أكد وزير التجارة الجزائري بمنتدى المجاهد الذي أقيم في 2005/08/02 على أن

هناك عدة إجراءات تم اقتراحها لقانون المالية التكميلي لسنة 2005 وهذا قصد تطهير الأسواق وحماية المستهلكين [17]، وكذا توسيع التشريعات الجبائية ضد الغش والأنشطة غير الرسمية التي نهشت الاقتصاد الوطني [16]

2❖ - مراجعة أساس حساب الضريبة ومعدل الضريبة والتصاعد الضريبي.

3❖ - مراجعة أشكال الكشف عن مصادر الدخل وأساليب التحصيل.

4❖ ــ تقليل المستندات والأوراق المطلوبة للتحقيق المحاسبي وتبسيط الإجراءات خصوصا بالنسبة للمشروعات الصغيرة ذات الإمكانيات المحاسبية المحدودة.

5❖ - مراجعة مدى حدة العقوبات على التهرب الضريبي ومدى ملائمة النظام الضريبي ككل.

6❖ - ضرورة تكيف التشريعات الضريبية لضبط الاقتصاد الموازي [18].

إن السلطات الضريبية قد تكون قادرة على إتباع سياسات فعالة إذا كان لديها الوسائل التي تُحدد بمقتضاها ما إذا كان الشخص يحاول أن يتهرب من دفع الضرائب أم لا، ويمكن أن يتم ذلك على سبيل المثال من خلال مقارنة التقارير المقدمة من الفرد عن دخله بمستوى دخول الأشخاص الآخرين الذين يخضعون للضريبة، والذين يعملون في نفس الوظيفة أو يُقيمون في نفس المنطقة السكنية، فإذا ثبت اختلافها، يتم إجراء مراجعات دورية لهذا الشخص، وبمعنى آخر، فإن هناك احتمالات مراجعة ضريبية تختلف حسب المجموعات المختلفة في المجتمع.

وبالرغم من أن هذه السياسة تبدو لأول وهلة سهلة، إلا أن صياغة هذه السياسة والتطبيق العملي لها مسألة قد تكون صعبة للغاية، فالسلطات لديها العديد من الأسلحة التي يمكن اللجوء إليها لمكافحة الاقتصاد غير الرسمي، على سبيل المثال ضبط مصالح الضرائب ومضاعفة الجهود [19] عند عملية التفتيش الضريبي، وزيادة العقوبات، وخفض معدلات الضرائب...الخ.

إلا أن علاج ظاهرة الاقتصاد غير الرسمي لا يمكن أن يتم بدون الوقوف على الأسباب الحقيقية لوجود هذا الاقتصاد، والتي تنصب أساسا على تخفيض الحوافز نحو الانضمام إلى هذا الاقتصاد وزيادة درجة جاذبية

الاقتصاد الرسمي بالشكل الذي يجعل حجم الاقتصاد غير الرسمي هامشيا، وبالتالي التقليل من الآثار السلبية له إلى أدنى مستوى ممكن [20]، وبهذا الخصوص وبمنتدى يومية المجاهد المنعقد بتاريخ 2005/08/02 قال (وزير التجارة [21] : السيد الهاشمي جعبوب أن السلطات ملزمة على تطهير الأسواق الوطنية من النشاطات الطفيلية الموازية، مشيرا إلى أن السوق الوطنية تتأثر من عدة عوامل تمنع سيرها وهي ممارسات تجارية غير شرعية كالغش في النوعية والمنتجات المقلدة والنشاط التجاري دون سجل تجاري والتهرب والغش الجبائي وتضاعف النشاط الموازي على أرصفة الطرقات، ويقابل ذلك العجز المسجل من حيث عدد أعوان المراقبة الذين لا يتجاوز عددهم 3300 عون بمعدل عون واحد لكل 500 تاجر دون حساب تجار السوق الموازية، غير أنهم تمكنوا خلال سنة 2004 من كشف 3000 مخالفة مع غلق 9630 محل تجاري واكتشاف ما قيمته 5 آلاف مليار سنتيم من الصفقات غير المفوترة مع حجز ما قيمته 400 مليار سنتيم من سلع هذه الصفقات [22].

الخاتمة :

يعتبر الضغط الضريبي من الأسباب الرئيسية الأساسية التي تؤدي إلى اللجوء إلى الانخراط في الاقتصاد غير الرسمي، حيث أن نمو العبء الضريبي،سواء تعلق الأمر بالنسبة للضرائب المباشرة أو غير المباشرة إلى رفع نسبة الضرائب إلى الناتج القومي،وهو ما يدفع بالناشطين ليس بالنسبة للاقتصاد غير الرسمي فحسب بل حتى المنخرطين في الاقتصاد الرسمي إلى تجنب الضرائب أو التهرب من دفعها،وهو ما يعني تحويل بعض الأنشطة الرسمية إلى أنشطة خفية، وبالتالي تصبح غير مسجلة وغير مصرح بها لدى إدارة الضرائب.

بالإضافة إلى الضغط الضريبي كسبب من أسباب التهرب الضريبي تبقى عوامل أخرى وبدرجة أقل أيضا أسباب أخرى ، منها اللوائح والقوانين التي تصدرها الدولة،وندرة السلع ، ونظرا لحجم الطلب عليها،فإن ذلك يعتبر عامل محفز لاستيراد مثل هذه السلع بعيدا عن أعين الجمارك للاستفادة من عدم دفع الرسوم الجمركية عليها،وبالتالي فإن إيصالها إلى المستهلك تعتبر سهلة نظرا لندرتها في السوق من جهة ،والطلب عليها من

جهة ثانية وهو ما يفسر بأن عملية البيع مضمونة وبالتالي تدر أرباح معتبرة وبأسعار يحددها هؤلاء التجار دون خضوعها إلى قواعد العرض والطلب في السوق الرسمي.

والواقع فإن انتشار الأنشطة غير الرسمية يفسر أحيانا على أنه انعكاس لارتفاع تكاليف الانضمام إلى القطاع الرسمي،وأحيانا أخرى يتم تفسيره على اختيار واع ومقصود من جانب تجنب الالتزام بالقواعد واللوائح الرسمية الخاصة بالضرائب والعمل،وعليه فإن تحفيز تحويل هذه الأنشطة إلى الاقتصاد الرسمي يستلزم تطبيق مجموعة من الإصلاحات الكفيلة بترجيح كافة المزايا على كافة تكاليف العمل داخل دائرة الاقتصاد المنظم والمراقب من طرف الدولة،ولا شك أن هذا الانضمام له إيجابياته وسلبياته،إلا أنه يجب النظر إلى الفوائد الصافية للمجتمع بغض النظر عن الخاسرين والرابحين من هذا الاندماج.

وعلى العموم يظل الاقتصاد غير الرسمي سلوك مشين بالنسبة للدولة وللمجتمع لأن تفشي النشاطات التي تعمل داخل هذا الإطار بعيدة عن المراقبة التي تريدها الدولة وبسط سيرتها على كافة الأنشطة سواء الرسمية أو غير الرسمية،لأن ذلك معناه عدم تحصيل مبالغ معتبرة لخزينة الدولة التي يعاد إنفاقها على الصالح العام،لذا لابد من محاربة مثل هذه الظواهر وهو ما يستوجب طرح جملة من الاقتراحات والتوصيات نوجزها في الآتي:

1 ـ إعادة النظر في النظام الضريبي بشكل يجعل انضمام الناشطين في الاقتصاد غير الرسمي إلى النشاطات الرسمية بمنح مزايا وتسهيلات فيما يخص الأنشطة التي تمارس في النظام غير الرسمي.

2 . العمل على نشر الوعي الضريبي بمختلف وسائل الإعلام والندوات والملتقيات.

3 . إعادة النظر في أسعار الضرائب اتجاه تخفيفها بجلب أكبر عدد من الممولين وتحويل سلوك التهرب الضريبي إلى جباية الضرائب.

4 . إجبار كل النشاطات بالتعامل بالفواتير لتسهيل عملية المراقبة من طرف إدارة الضرائب.

5 . فرض عقوبات صارمة لكل من ينشط في إطار الاقتصاد غير الرسمي.

6 . إقامة شبكة معلومات موحدة تربط بين مختلف أنحاء الوطن تشمل على المعلومات الخاصة بالممولين لتسهيل عملية المراقبة من طرف إدارة الضرائب

7 . تكوين أعوان إدارة الضرائب بشكل يسمح بمحاربة الناشطين في الاقتصاد غير الرسمي بصفتهم يعملون على التهرب الضريبي.

8 . حجز كل السلع التي تنشط خارج الاقتصاد الرسمي ومعاقبة المعنيين بذلك .

9 . إدراج ممارسات التي تضر بالاقتصاد الوطني خاصة التهرب الضريبي والنشاط الاقتصادي غير الرسمي في مقررات التربية والتعليم لدى هذه الأجيال باعتبارها مستقبل البلد وتحسيسهم بخطورة هذه السلوكات على الاقتصاد الوطني، والتعريف بأن جباية الضرائب تصرف مقابل ما يحصل عليه المواطن من خدمات كالأمن الإنارة العمومية وتهيئة المحيط ، التعليم المجاني في الجزائر الصحة العدالة .

وأخيرا يمكن القول بأن محاربة الاقتصاد غير الرسمي بشكل نهائي يعتبر شبه مستحيل وإنما التقليل منه بأقصى حد ممكن حيث أن كلا النظاميين يتعايشان مع بعضهما، وبالتالي التقليل من السلبيات التي تنجم عن الاقتصاد غير الرسمي إلى أقل ما يمكن تجسيده على أرض الواقع.

الهوامش :

(1) فريدريك سنايدر ودومينيك انستي ، مقالة صندوق النقد الدولي ، قضايا اقتصادية ، الاختباء وراء الظلال (نمو الاقتصاد الخفي)، ص1.

(2) Quotidien Liberté N° 3912 du 03/08/2005 (Les marchés informels vont être régularisés, 100000 commerçant concernés) P 7.

(3) جريدة الخبر اليومية، رقم 4470 ليوم 2005/08/10 ، نصف مليون تاجر يمارسون التجارة الموازية ، ص 03.

(4) محمد إبراهيم طه السقا ، الاقتصاد الخفي في مصر، مكتبة النهضة، مصر ، 1996 ، ص10

(5) فريدريك سنايدر مع دومينيك انستي ، مرجع سبق ذكره، ص 2.

(6) علي بودلال ، إشكالية الاقتصاد غير الرسمي والعوامل التي تساعد على توسيع رقعته ، الملتقى الوطني الأول حول الاقتصاد الجزائري في الألفية الثالثة، جامعة البليدة في 21 و2002/05/22 ، ص2.

(7) محمد إبراهيم طه السقا، مرجع سبق ذكره ص13.

(8) المرجع نفسه ص19.

(9) فريديريك شنايدر ودومينيك أنشي، مرجع سبق ذكره، ص7.

(10) محمد إبراهيم طه السقا، مرجع سبق ذكره، ص23.

(11) أحمد بساس، فعالية التحقيق المحاسبي في الحد من ظاهرة التهرب الضريبي- دراسة ميدانية بمكتب التحقيقات المحاسبية - مديرية الضرائب - الأغواط - مذكرة ماجستير، كلية العلوم الاقتصادية، جامعة عمار ثليجي الأغواط 2006 ص 72.

(12) نفس المرجع، ص 72.

(13) فريديريك شنايدر ودومينيك أتسي، مرجع سبق ذكره، ص 11.

(14) محمد إبراهيم طه السقا، مرجع سبق ذكره، ص 33.

(15) عبد المجيد قدي، النظام الجبائي الجزائري وتحديات الألفية الثالثة، الملتقى الوطني الأول حول الاقتصاد الجزائري في الألفية الثالثة، البليدة، 21/20 ماي 2002، الجمعية العلمية، نادي الدراسات الاقتصادية، ص6.

(16) محمد إبراهيم طه السقا، مرجع سبق ذكره، ص 82.

(17) Quotidien El Moudjahid du 03/08/2005 (La lutte contre le marché informel va se durcir), P14

(18) كمال رزيق وفارس مسدور، مرجع سبق ذكره، ص 349.

(19) علي بودلال، مرجع سبق ذكره ص 11.

(20) محمد إبراهيم طه السقا، مرجع سبق ذكره، ص 80.

(22) يومية الشروق، العدد 1447 ليوم الأربعاء 2005/08/03، اقتصاد " المصالحة الوطنية لا تعني التشجيع على الغش والتهرب الضريبي"، ص4.

المخطط المحاسبي للدولة (PCE)، إطار جديد للمحاسبة العمومية.

بقلم
أ/ عبد السميع روينة
أستاذ مساعد بقسم التسيير . كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير
جامعة بسكرة . الجزائر

ملخص:

إن الإطار المحاسبي الحالي يتمحور حول الصندوق حيث يركز فقط على ما تم تحصيله وإنفاقه دون الاهتمام بما يجب أن يحصل أو ينفق وهو ما يعبر عنه بمحاسبة الصندوق أين تتم مراقبة وتسجيل عمليات التحصيل والتسديد من والى الصندوق. إن هذا الإطار لا يأخذ بعين الاعتبار عناصر الذمم المالية وبالتالي فان المنقولات ، العقارات، الديون ، كلها تشكل موضوع التسجيل المحاسبي ومتابعة هذه العناصر تكون من طرف المحاسب المعني إذ يقوم بالتكفل إداريا بسندات التحصيل أو الإنفاق بمجرد حصوله عليها.إن الإطار المحاسبي الجديد يسمح بالانتقال من محاسبة الصندوق إلى محاسبة الذمم.

Résumé:

L'application u plan comptable de l'état à compter du mois de janvier 2003 nécessite la détermination des modalités du passage de comptabilité de caisse de la nomenclature des comptes du trésor vers une comptabilité de type patrimonial spécifique à l'état définie par l'ensemble des règles applicables aux comptes du nouveau plan et caractérisé par la comptabilisation des droits constatés ainsi que les amortissements. Les ordonnateurs et les comptables publics auront un rôle plus que nécessaire pour la réussite de ce plan.

مقدمة:

تلعب المحاسبة دورا رئيسيا في النظام المعلوماتي لأي منظمة باعتبارها مصدرا مهما للمعلومة ووسيلة لتقييم نشاط وأداء المؤسسات الخاصة أو العمومية وكذا توفير احتياجات المسيريين المسؤولين عند إعداد أو تحضير الميزانية التقديرية.

غير أن النظام المحاسبي الحالي للدولة لا يتماشى مع التغيرات الاقتصادية الحادثة على الساحة الوطنية، فهو يتميز بغياب إطار محاسبي مضبوط يسمح بدمج مختلف المحاسبات في المحاسبة الوطنية، كما أنه لا يبرز جوانب الذمم المالية والحقوق المثبتة، فهو يتمحور حول محاسبة الصندوق (comptabilité de caisse) أي ما تم تحصيله وإنفاقه، متجاهلا عناصر الذمم المالية وبالتالي فان المنقولات، العقارات، القروض والديون كلها تشكل موضوع تسجيل محاسبي.

لذا بدا ضرورة ملحة تعديل النظام المحاسبي للدولة بهدف عقلنة اختيارات الميزانية لتحسين وصف العمليات المحاسبية، من خلال تقديم معطيات فعالة، دقيقة وصحيحة على مجموع نشاط الدولة، استخدام أداة فعالة لمراقبة استعمال الأموال العمومية، توفير الوثائق المحاسبية الشاملة في الآجال المحددة وبصورة مقروءة ومطابقة لاحتياجات المقررين والمسيرين للمعلومات، علاوة على معرفة ومراقبة العمليات المالية بطريقة أكثر واقعية ، الشيء الذي يسمح بمعرفة الذمة المالية من خلال جميع مكوناتها، تحديد النتائج السنوية وتقدير فعالية عمل الإدارة، وكذا تحديد تكلفة الخدمات[1]، وبالتالي الانتقال من محاسبة الصندوق إلى محاسبة الذمم والتي يتم من خلالها مسك العمليات التي يقوم بها محاسب الدولة حسب طريقة القيد المزدوج وفقا للقواعد العامة المنصوص عليها من طرف الوزير المكلف بالمالية.

1 ـ تعريف المحاسبة العمومية:

تعتبر المحاسبة العمومية فرعا من فروع المحاسبة والتي تهتم بالجانب المالي لسير أجهزة الدولة وقد تطورت بفعل زيادة تدخل الدولة وتضاعف إداراتها ومصالحها، وهي تعنى بتسجيل العمليات المالية الخاصة بتحصيل موارد الدولة وإنفاق هذه الموارد، ثم إعداد التقارير عنها سواء للجهات الحكومية التنفيذية أو الهيئة التشريعية أو للهيأة المكلفة بالمراقبة وهذا ما يمكن هذه الجهات المختلفة من إعداد وتنفيذ ميزانية الدولة ومراقبة الأموال العامة. ويمكن تعريف المحاسبة العمومية بأنها "مجموعة القواعد القانونية والتقنية المطبقة على تنفيذ ميزانيات الهيئات العمومية وبيان عملياتها

المالية وعرض حساباتها ومراقبتها والمحددة لالتزامات ومسؤوليات الآمرين بالصرف والمحاسبين العموميين."[2]

وتهدف المحاسبة العمومية إلى ما يلي :

1- إثبات تواريخ عمليات الإيرادات والنفقات العمومية في دفاتر ووثائق ويوميات معدة لهذا الغرض وتتلاءم مع نشاط هذا القطاع.

2- المحافظة على حقوق الدولة وممتلكاتها مما يسمح بمتابعة تفصيلها.

3- توفير البيانات التي تمكن من مراقبة تنفيذ ميزانية الدولة.

4- إظهار الانحرافات بين الميزانية (الوثيقة التقديرية) والحسابات الختامية (البيانات الفعلية) والعمل على تصحيح هذه الفروق والاختلافات.

5- تمكن بفعل التشريعات المالية إيجاد إطار للعمل وتحديد صلاحيات ومسؤوليات منفذي الميزانية (الآمرون بالصرف والمحاسبون العموميون).

1.1 موارد ونفقات الميزانية العامة للدولة :

"إن الميزانية هي التي تقدر خلال سنة مدنية مجموع الإيرادات والنفقات الخاصة بالتسيير والاستثمار ومنها نفقات التجهيز العمومي والنفقات بالرأسمال وترخص بها."[3] ويمكن ذكر أهم إيرادات الدولة على سبيل الذكر لا الحصر متمثلة فيما يلي :

1. إيرادات الجباية البترولية.
2. إيرادات ذات الطابع الجبائي الضريبي وكذا الغرامات.
3. مداخيل الأملاك التابعة للدولة والولاية والبلدية.
4. التكاليف المدفوعة لقاء الخدمات المؤداة والأتاوى.
5. الأموال المخصصة للمساهمات والهبات والهدايا.
6. تسديد القروض والتسبيقات الممنوحة من طرف الدولة من الميزانيات المالية وكذا الفوائد الممنوحة عنها .
7. مختلف مستحقات الميزانية التي ينص القانون على تحصيلها .
8. الحصة المستحقة للدولة من أرباح مؤسسات القطاع العمومي.

أما النفقات فتعرف محاسبيا بأنها مستحقات الغير تجاه الدولة، وهي على ثلاثة أنواع:

1- نفقات التسيير: وتشمل أعباء الدين العمومي، تخفيضات السلطات العمومية، النفقات الخاصة بوسائل المصالح، المدخلات العمومية.

2- نفقات الاستثمار: وتشمل جميع الاعتمادات المفتوحة بالنسبة إلى الميزانية العامة ووفقا للمخطط السنوي للتنمية لتغطية نفقات الاستثمار الواقعة على عاتق الدولة، ويتم التوزيع بين القطاعات للاعتمادات المفتوحة والمخصصة للاعتماد ذات الطابع النهائي من المخطط السنوي بموجب قانون المالية.

3- نفقات القروض على المدى الطويل حيث تمنح من موارد الادخار التي تحصلها الخزينة والمؤسسات المالية الأخرى، القروض المصرفية، المساهمات الخارجية من الخزينة العمومية، الأموال الخاصة للمؤسسات العمومية، مساهمات نهائية عند الاقتضاء من الميزانية العامة للدولة.

1 . 2 أوجه الاختلاف والتشابه بين المحاسبة العمومية والمحاسبة التجارية: التشابه: يمكن تسجيل النقاط التالية :

1- تطبيق قاعدة القيد المزدوج.

2- البيانات والوثائق وكذا السجلات المستخدمة متماثلة إلى حد بعيد (اليومية، دفتر الأستاذ، ميزان المراجعة، الميزانية).

3- التبويب السليم للحسابات : من خلال تقسيم المجموعات إلى حسابات فإلى حسابات فرعية وهكذا ... .

الاختلاف : فلعل أبرز نقطتين تميزان المحاسبتين هما :

1- الإطار المحاسبي الحالي لا يبرز جوانب الذمم المالية والحقوق المثبتة (Aspects patrimoniaux et droits constatées).

2- عدم الاهتمام بجانب الاهتلاكات وهذا راجع إلى عدم تمكن الدولة من إعداد جرد عام لممتلكاتها العقارية والمنقولة.

2 ـ حدود الإطار المحاسبي الحالي :

رغم بعض التعديلات، فان النظام المحاسبي الحالي لا يخضع للتطور المتعلق بالتغيرات الاقتصادية الحادثة على الساحة الوطنية، ومن أجل تقييم

هذا النظام كان من الضروري التحضير والإعداد لتشخيصات حسب القطاعات ومن خلال هذه التشخيصات تبين انه إذا كانت القواعد القانونية منتظمة ومتطابقة في مختلف وحدات التحصيل التي تطبق فيها المحاسبة العمومية، بالمقابل فان القواعد التقنية لاسيما المدونات وصيغة عمل الحسابات متباينة. هذه الوضعية المتميزة بغياب إطار محاسبي مضبوط تترجم إلى صعوبات دمج مختلف المحاسبات في المحاسبة الوطنية، كما تطرح مشكلة تكوين المحاسبين العموميين لتلبية حاجيات وحدات التحصيل.

عموما فان هذا التقييم سمح بإبراز نقائص في المخطط الحالي يمكن تلخيصها فيما يلي :[4]

1-2 الإطار المحاسبي الحالي لا يبرز جوانب الذمم المالية والحقوق المثبتة:

يتمحور الإطار المحاسبي الحالي حول الصندوق أي ما تم تحصيله لا أكثر ومن ثم إنفاقه دون الاهتمام بما يجب أن يحصل أو ينفق وهو ما يعبر عنه بمحاسبة الصندوق (comptabilité de caisse) أين تتم مراقبة وتسجيل عمليات التحصيل والتسديد من والى الصندوق، هذه العمليات الناجمة عن النفقات والمداخيل التي تمليها قوانين المالية.

إن هذا الإطار لا يأخذ بعين الاعتبار عناصر الذمم المالية وبالتالي فان المنقولات، العقارات، القروض والديون كلها تشكل موضوع التسجيل المحاسبي ومتابعة هذه العناصر تكون من طرف محاسب إضافي بمصالح مختلفة وبدون فعالية كبيرة، إذ أن المحاسب وفور حصوله على سند التحصيل للعناصر السابقة الذكر يقوم بالتكفل إداريا ووثائقيا، لكن دون كتابة محاسبية.

وتكمن الصعوبة اليوم في معرفة المعطيات الرقمية المتعلقة بمكونات هذه العناصر، قيمتها وتطورها وهذا يعود إلى عدم التقييد المحاسبي لهذه المستحقات. أيضا يصعب ضمن الشروط الحالية حصر الأصول المالية للدولة، لاسيما الاشتراكات الداخلية والخارجية في مخطط ثنائي لمكوناتها وتطوراتها وعليه فالنظام الحالي لا يسمح إلا بمعرفة جزئية لنشاط الدولة أو أحد فروعها.

2-2 مدونة الدولة ترتكز على ترقيم خطي أصبح قديما وتجاوزته الأحداث:

تدهورت مدونة الحسابات المعدة على قاعدة الترميز السابق وهذا تبعا للإضافات المتعاقبة التي أفسدت التنسيق بين هذه الحسابات عبر السنين، حيث يفتقر الترقيم الخطي الحالي إلى المرونة لاسيما على مستوى الحسابات الفرعية وأصبح غير متلائم مع العمليات المحاسبية الجديدة للدولة.

3-2 الوثائق الشاملة والنتائج المحاسبية مقدمة حسب صيغة خفية:

تتكون الجداول الشاملة المعدة من طرف الوكالة المحاسبية المركزية للخزينة (ACCT) أساسا من :

- موازين المراجعة العامة الشهرية.
- الوضعيات الشهرية والسنوية لتنفيذ ميزانية التسيير في جانبي النفقات والمداخيل.
- وضعية ميزانية التجهيز.
- الوضعية الشهرية لحسابات الخزينة لاسيما الحساب الجاري للخزينة لدى بنك الجزائر.

فهذه الوثائق ليست سهلة للاستغلال إلا للمطلعين عليها فقط.

4-2 صعوبة تجميع المعلومات(مركزتها) حسب التنظيم المحاسبي الحالي:

إن النظام المحاسبي الحالي للدولة لا يتضمن تقنيات جديدة في المعالجة ونقل المعلومات وهذا راجع للتأخير المسجل في تجميع المعطيات وإعداد الوثائق الشاملة الحاصلة في آجال مخالفة لمتطلبات التسيير الحديث للمالية العامة. بمعنى أن النظام المحاسبي الحالي للدولة لا يتجاوز تسجيل عمليات تحصيل النفقات متجاهلا جانب الذمم المالية والحقوق المثبتة الذي يعتمد أساسا على التقييد المحاسبي للديون والحقوق. تأخر وصول المعلومات عند الحاجة إليها وعدم دقتها.

3 ـ مقتضيات الإصلاح : تعتبر المحاسبة العمومية مصدرا مهما للمعلومة ووسيلة لتقييم نشاط وأداء المؤسسات العمومية وتوفير احتياجات المسيرين المسؤولين عند إعداد أو تحضير الميزانية التقديرية كما أن تعديل

النظام المحاسبي للدولة يهدف إلى عقلنة اختيارات الميزانية لتحسين وصف العمليات المحاسبية، وهذا بغرض :

- تقديم معطيات فعالة، دقيقة وصحيحة على مجموع نشاط الدولة.
- استخدام أداة فعالة لمراقبة استعمال الأموال العمومية تحت زاوية الانتظام والعقلانية.
- توفير الوثائق المحاسبية الشاملة في الآجال المحددة وبصورة مقروءة ومطابقة لاحتياجات المقررين والمسيرين للمعلومات، علاوة على معرفة ومراقبة العمليات المالية بطريقة أكثر واقعية ، الشيء الذي يسمح بـ:

1- معرفة الذمة المالية من خلال جميع مكوناتها.
2- تحديد النتائج السنوية وتقدير فعالية عمل الإدارة.
3- تحديد تكلفة الخدمات.
4- تقديم معلومات واضحة، ملائمة، دقيقة وسهلة للمقارنة.[5]

ولبلوغ الأهداف المذكورة آنفا يجب حتما الانتقال من محاسبة الصندوق إلى محاسبة الذمم والتي يتم من خلالها مسك العمليات التي يقوم بها محاسب الدولة حسب طريقة القيد المزدوج وفقا للقواعد العامة المنصوص عليها من طرف الوزير المكلف بالمالية.

إن هذا الاختيار ورغب التغييرات الجذرية التي أحدثها في التقييد المحاسبي لموارد ونفقات الدولة إلا أنه يجب إسقاطه على إجراءات الميزانية السارية المفعول منذ صدور القانون 84 .16 المتعلق بقوانين المالية والقانون 90 -25 المتعلق بالمحاسبة العمومية المعدل والمتمم أي أن يظل خاضعا لمبادئ المحاسبة العمومية لاسيما:

- ❖ مبدأ الحذر: من خلال التقدير العقلاني للوقائع.
- ❖ مبدأ ثبات الطرق : والتي تسمح وتسهل المقارنات.
- ❖ مبدأ الاستقلالية : الذي يفترض أن الأعباء والإيرادات السنوية فقط هما اللذان يحددان النتيجة السنوية.

4 ـ مسعى بدأ تنفيذ المخطط المحاسبي للدولة:

في إطار تنفيذ مشروع إصلاح المحاسبة العمومية باشرت المديرية العامة للمحاسبة العمومية في وضع مجموعة عمل والتي التزمت أعمال الإصلاح ابتداء من شهر أوت 1995، وتتميز بمرحلتين :

1/ تصور مشروع الاصطلاح.

2/ بدأ تنفيذ مشروع الإصلاح.

بالنسبة للنقطة الأولى فمن أجل تجسيد هذه المرحلة تبنت مجموعة العمل المسعى التالي:

. إحصاء وتجميع الوثائق التقنية المتعلقة بالمحاسبة العمومية والإعداد لفهرس تم تسليمه إلى أعضاء المجموعة ليتمكنوا من مراجعته.

. إعداد تشخيصات حول الأنظمة المحاسبية وهذا على مستوى مختلف وحدات التحصيل (الدولة، الجماعات المحلية، المؤسسات العمومية ذات الطابع الإداري، الميزانية الملحقة للبريد والمنشآت الصحية).

. إجراء نقاش موسع مع مختلف الوزارات حول جوانب المشروع وتمحور هذا النقاش حول التقييد المحاسبي لكل من الاستثمارات، الاهتلاكات، المستحقات والديون، للمخزونات.

. استغلال التشخيصات وتحديد محاور الإصلاح.

أما النقطة الثانية فقد تم من خلالها:

.. إعداد مشروع المخطط المحاسبي للدولة حيث تناول تعميق، ترتيب وترميز الحسابات في المجموعات العشر لمشروع (PCE).

. إعداد جدولين يبينان كل حساب من حسابات مدونة حسابات الخزينة (NCT) وما يقابله في مدونة المخطط المحاسبي الجديد وتم طرحه على مستوى المراكز المحاسبية للاختبار.

.. إعداد مشروع للتكوين في التقنيات الجديدة التي جاء بها المخطط المحاسبي للدولة.

. اختبار المخطط المحاسبي على مستوى المراكز المحاسبية الولائية.

5 ـ المخطط المحاسبي للدولة:[6]

لقد سمح المخطط ب رفع الصعوبات المتعلقة ب :

1- اختبار المدونة .

2- التقييد المحاسبي للاستثمارات.

3- التقييد المحاسبي للمستحقات والديون.

4- التقييد المحاسبي للعمليات المتعلقة بالحسابات الخاصة بالخزينة.

اختبار هذه النقاط سمح بإيجاد العديد من الحلول البديلة.

5 ـ 1 اختبار المدونة :

إن إعداد الميزانية و المتابعة التفصيلية لتنفيذها يؤسس على أساس مدونة الميزانية في حين أن المدونة المحاسبية مؤسسة على الترتيب حسب طبيعة النفقات والتكاليف، وأمام هذه الازدواجية تم تصور ثلاث بدائل لإعداد إطار محاسبي للدولة هي :

1. التخلي عن مدونة الخزينة الحالية لحساب المدونة المحاسبية الجديدة.
2. توحيد المدونتين بدمج مدونة الميزانية في المدونة المحاسبية
3. إتباع تنفيذ الميزانية حسب مدونة الميزانية في إطار محاسبة مساعدة على مستوى الخزينة الولائية على أساس إعادة ترتيب النفقات والمداخيل المسجلة في حسابات الميزانية.

ونظرا للصعوبات التي يطرحها بدء تنفيذ الصيغتين الأوليتين وبمراعاة التقاليد العريقة للميزانية تم اعتماد الاختيار الثالث كمرحلة أولى واقترح إطار محاسبي قريب من P C N بـ :

- حسابات الميزانية : من المجموعة الأولى إلى الخامسة.
- حسابات التسيير : المجموعة السادسة والسابعة.
- حسابات النتائج : المجموعة الأولى .

أما المجموعات "0" و "8" و "9" فخصصت على التوالي للالتزامات خارج الميزانية، ولوصف العمليات المتعلقة بتنفيذ قوانين المالية ، ولتسجيل أملاك الخزينة.

5 ـ 2 التقييد المحاسبي لمختلف عناصر المخطط المحاسبي الجديد :

5 ـ 2 ـ 1 **تقييد الاستثمارات** : إن التكفل المحاسبي للاستثمارات يمر أولا بإحصائها والانتهاء من الجرد العام للأملاك الوطنية ومن ثم تقدير ثمنها، كما يطرح هذا التقييد مشكل الاهتلاكات ومنفعتها للدولة مع العلم أن نفقات التجهيز مسجلة في التكاليف السنة الجارية التي تتوفر اعتماداتها . إن حساب الاهتلاكات يشكل أبرز اهتمامات الدولة ذلك أنه يمثل عنصرا ضروريا في تحديد سعر الخدمات.

5 ـ 2 ـ 2 **تقييد المستحقات والديون** : إن التكفل بهذه العناصر يطرح مشكلة معرفة توقيت التقييد (عند الإمضاء بالالتزام، عند صرفها، عند الأمر بها، بعد تأشيرة المراقب المالي فيما يخص الديون) و (عند إثباتها أو عند صرفها

بالنسبة للمستحقات) وهي تتطلب أيضا وضع إجراءات فعالة لتجميع المعلومات على مستوى الآمرين بالصرف وكذا نقل كشوفات الضرائب، تعاقدات القروض و كذا الوثائق الثبوتية للالتزامات مثل عقود الشراء وتعاقدات الاقتراض بالنسبة للديون إلى المحاسبين .

6 ـ عرض المخطط المحاسبي للدولة الجديد :[7]

إن المخطط المحاسبي الحالي لا يتضمن تقنيات ولا قواعد قانونية لمعالجة المعلومات ونقلها ومرد هذا التأخير المسجل في تجميع المعطيات وإعداد الوثائق الشاملة المواكبة لمتطلبات التسيير الحديث للمالية العامة، كما أن الترقيم الخطي الحالي يفتقر إلى المرونة لاسيما على مستوى الحسابات الفرعية، فأضحى هذا الترقيم غير متكيف مع الاحتياجات المتولدة من أهمية التكفل بالعمليات الجديدة المسجلة محاسبيا .

لهذا جاء المخطط المحاسبي الجديد بتقنيات حديثة مجسدة في استنباط تقنيات محاسبية مستمدة أساسا من المخطط المحاسبي الوطني، فأصبح المخطط الجديد مكونا من المجموعات التالية:

خمس أقسام لحسابات الميزانية هي :

المجموعة الأولى : النتائج والديون: تقدم الفرق بين نتائج المجموعة السابعة وتكاليف المجموعة السادسة (ديون داخلية وخارجية .

المجموعة الثانية : الأصول الثابتة. تضم كل من الأصول الثابتة (المادية والمعنوية) ، القروض، سندات المساهمة والتوظيف، التسبيقات والاهتلاكات.

المجموعة الثالثة : حسابات المخزونات والربط: تتضمن أساسا الحسابت المتعلقة بالتقييد المحاسبي للحقوق المثبتة وهي أهم العناصر التي جاء بها المخطط.

المجموعة الرابعة : حسابات الغير .تسجل فيها العمليات المتعلقة بتنفيذ قوانين المالية (المدينين والمقترضين المختلفين، إصدار شيكات الميزانية،...) .

المجموعة الخامسة: الحسابات المالية وتتضمن أساسا:

- النتائج المنتظر تحقيقها
- الصكوك البنكية المرسلة عند تسديد الضرائب، الحقوق ورسوم القروض الأجنبية، عائدات أملاك الدولة.

• قسمان لحسابات التسيير:

المجموعة السادسة : حسابات التكاليف.

المجموعة السابعة : حسابات النتائج.

- قسم للممتلكات وعجز الميزانية : المجموعة الثامنة أملاك الخزينة:يعمل هذا القسم في نهاية السنة لدى المحاسب المركزي للخزينة ويسمح بتبيان أملاك وعجز الخزينة .
- قسم عرض الموازنة للعمليات المنفذة لقانون المالية: المجموعة التاسعة تسمح بالقيام بعمليات حساب نتيجة تنفيذ قانون المالية.
- قسم الالتزامات خارج الميزانية: المجموعة "0".تعمل هذه المجموعة فقط لدى المحاسب المركزي وهي موجهة للمتابعة للمستحقات والنفقات خارج الميزانية.

7. المميزات الأساسية للمخطط المحاسبي للدولة :

إن أبرز ما جاء به المخطط المحاسبي الجديد هو المرور من محاسبة الميزانية إلى محاسبة الذمم المالية وهذا من خلال اعتماد مبدأ التقييد المحاسبي للحقوق المثبتة، ويسمح بالإضافة إلى وصف ومراقبة العمليات المالية بإبراز الحقوق الباقية للتحصيل الخاصة بإيرادات الميزانية في مقابل المستحقات المحصلة و من ثمة معرفة الوضعية المالية للميزانية في نهاية كل سنة مدنية.

7 .1 الحقوق المثبتة : (Droits constatés)

هي كل المداخيل المحصلة بأجل والتي تتطلب إصدارا سابقا لبيان التحصيل، ويتم تقييدها محاسبيا بمجرد إثباتها وهذا في الطرف الدائن للحساب 38 (منتوجات للتحصيل) وكذا في الجانب المدين للحساب 40 (المكلفون). فبمجرد حصول المحاسبين لأوامر التحصيل فإنهم يتكلفون بتحصيل المستحقات العمومية. وانطلاقا من مبدأ سنوية الميزانية فان الحقوق المثبتة الباقية للتحصيل لسنوات سابقة تقيد في حسابات ثانوية مخصصة لهذا الغرض. ويتطلب هذا التقييد تنسيقا بين الآمرين بالصرف والمحاسبين الثانويين من خلال إعداد الآمرين بالصرف لجداول إرسال لبيانات التحصيل (BETR) وجمعها في سجلات تسمح بمعرفة في تاريخ محدد إجمالي مستحقات الدولة ومن ثم تحديد فعالية التحصيل (من خلال حساب الفرق بين ما تم تحصيله فعلا وبين ما يجب تحصيله مع نهاية

السنة). لكن واقع الحال أن الآمرين بالصرف في مختلف المديريات الولائية لمختلف أقسام وزارة المالية يتجاوزون تماما هذا الدور ناهيك عن جهلهم أصلا بهاته المهمة.

ويلخص المخطط الموالي كيفية تسجيل الحقوق المثبتة وكذا إلغاء السنوات السابقة والسنة الحالية :

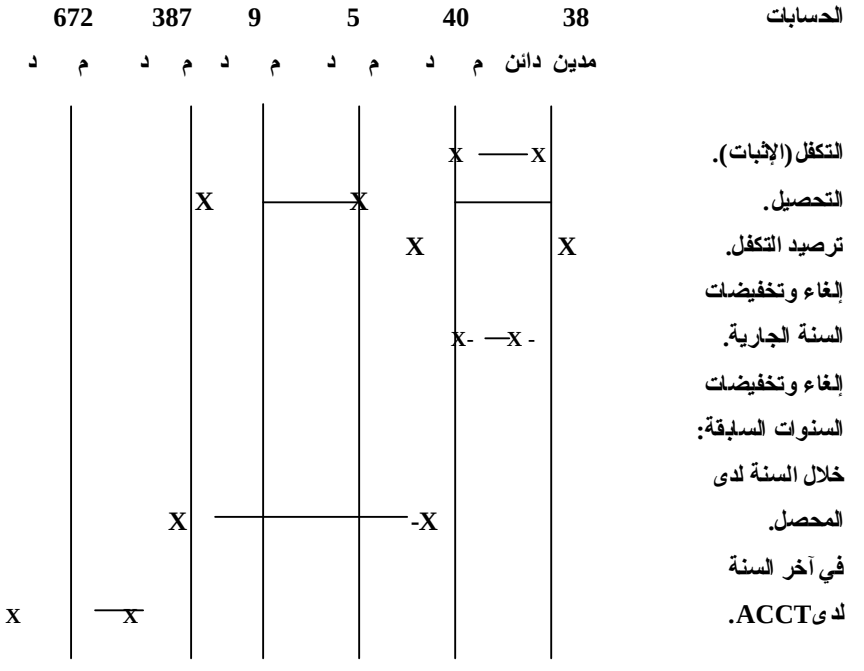

الشكل (1) : مخطط توضيحي حل كيفية التقييد المحاسبي للحقوق المثبتة.
المصدر: **guide pratique, Receveurs des domaines et conservateurs fonciers. Ministère des finances, direction générale de comptabilité, DMNC, 2004. p12.**

وهي المداخيل المتحصل عليها نقدا قبل إصدار بيان التحصيل، كما في حالة الديون ذات الطابع الاستثنائي الناتجة عن تنفيذ الأحكام والقرارات القضائية لصالح الهيئات العمومية أو قرارات وزارة المالية الصادرة ضد المدينين لتلك الهيئات (محاسبين عموميين، مقاولين، موردين،...) لمطالبتهم بدفع بواقي الحساب حيث أن تحصيلها يتم عن طريق التكفل المباشر بتلك الأحكام والقرارات.

3.7 الاهتلاكات : (Amortissements)

تضم المجموعة الثانية من المخطط المحاسبي للدولة الاستثمارات المعنوية والمادية، الديون، سندات المساهمة والتوظيف، التسبيقات واهتلاكات الاستثمارات. هذا الحساب الأخير لا يمكن تطبيقه في غياب الجرد العام للأملاك الوطنية، رغم أن هذه العملية يفترض انطلاقها منذ سنة 1976 (تاريخ صدور قانون تنظيمها) و أكد عليها المرسوم 91/455 المؤرخ في 1991/11/23 المتعلق بجرد الأملاك الوطنية. إلا أن واقع الحال يبرز تأخر هذه العملية كثيرا رغم ما نص عليه قانون المالية لسنة 2003 لاسيما في مادته 83 من ضرورة إلزام كل المصالح العمومية بجرد كل أملاكها تبعا لنموذج بطاقة جرد خلاف ذلك سيؤدي إلى توقيف عملياتها المالية في جانب النفقات على مستوى المراقب المالي.

وفيما يلي مخطط حول التقييد المحاسبي للاهتلاكات:

تأثيرات المجموعة الثانية:

99		21	
X			X

المدين: حساب 21(الاستثمارات).

الدائن: حساب 99(تأثيرات نتائج تنفيذ قانون المالية)

مخصصات اهتلاكات الاستثمارات:

281		681	
	X	X	

المدين:ح681 (مخصصات اهتلاكات الاستثمار)

الدائن:ح281 (اهتلاكات الاستثمارات المادية)

الاهتلاكات الشاملة:

21		281	
X			X

المدين:ح281(اهتلاكات الاستثمارات المادية)

الدائن:ح21 (الاستثمارات المادية)

علما أن الحسابات 21 281 ترصد في نهاية السنة في الحساب 681.

الخاتمة :

إن العمل بالمخطط المحاسبي للدولة (PCE) والذي شرع فيه منذ سنة 2003 على مستوى الخزانات العمومية الولائية وكذا قباضات المصالح العمومية، هو بداية فقط لإصلاح المحاسبة العمومية غير أن نجاحه يستوجب تجاوبا من طرف المحاسبين الرئيسين وكذا الثانويين للدولة من خلال العمل على التأكد من سلامته وصلاحيته لكل العمليات المالية وتصحيح كل الانحرافات التي قد تظهر عند تطبيقه هذا من جهة، ومن

جهة أخرى ضرورة وعي الآمرين بالصرف بالدور المنوط بهم في ظل هذا المخطط من خلال مسك محاسبات موازية على مستوى المديريات ومتابعة نشاط المحاسبين الثانويين لاسيما فيما يتعلق بالحقوق المثبتة وكذا الجرد العام لممتلكات الدولة ليتم لاحقا التسجيل المحاسبي لهته القيم المنقولة والعقارية.

إن الإطار المحاسبي الجديد المستوحى من المخطط المحاسبي الوطني يرتكز في ترتيبه على تنظيم عشري مستحدثا بذلك تقنية جديدة مجسدة في التقييد المحاسبي للحقوق المثبتة والاهتلاكات، تقنية تسمح بالانتقال من محاسبة الصندوق إلى محاسبة الذمم شريطة التطبيق السليم لمقتضيات الإصلاح من طرف كل الأعوان المكلفين بتنفيذ الميزانية العامة للدولة وهذا على كل المستويات.

- الهوامش:

---

1 instruction relative aux règles de fonctionnement des comptables de l'état , PCE, tome1, document du tresor de la wilaya de Biskra, pp 1-2

2 محمد مسعي، المحاسبة العمومية، دار الهدى عين مليلة الجزائر، 2003. ص 8.

3 حسين صغير، دروس في المالية والمحاسبة العمومية ، دار المحمدية العامة، الجزائر، 1999. ص135.

4 Miloud boutaba, reforme de la comptabilité publique.Algerie.Document du trésor de la wilaya de biskra.

5 instruction relative aux règles de fonctionnement des comptables de l'état ,O.P.Cit, pp 1-2

6 Instruction relative aux regles de fonctionnement des comptes du PCE . Ministere des finances. Direction générale de comptabilité decembre2002.

7 PCE, circulaire relative a la comptabilisation des droits constatés.Ministere des finances DGC-DMNC- 2004.

guide pratique, Receveurs des domaines et conservateurs fonciers. Ministère des finances, direction générale de comptabilité, DMNC, 2004. p12.

واقع تسيير الإنتاج
بين النظرة الغربية (MRP) والنظرة اليابانية (JIT)

بقلم
أ / محمد قريشي
أستاذ مساعد بقسم التسيير. كلية العلوم الاقتصادية والتسيير
جامعة محمد خيضر بسكرة. الجزائر

ملخص :

في ظل التغيرات التي يشهدها الاقتصاد العالمي، ونتيجة للتطور السريع والمستمر للأساليب الإنتاجية، خاصة مع الهيمنة العالمية الجديدة التي تتبنى اقتصاد السوق، أصبحت الطرق الكلاسيكية لتسيير الإنتاج غير قادرة على مسايرة هذه االتغيرات، وبالتالي ظهرت أنظمة جديدة لتسيير الإنتاج، التي تمكن المؤسسة من التكيف مع التغيرات التكنولوجية والظروف االتنافسية ومسايرة أذواق المستهلكين المختلفة. ومن أهم هذه الأنظمة أو الأساليب الأكثر انتشارا نجد :أسلوب **MRP** ونظام**JIT** اللذان يعتبران من الأساليب المتطورة في تسيير الإنتاج.

Résumé :

A l'instar des changements que connaît l'économie mondiale et en conséquences des progrès rapides et continus des méthodes de production et particulièrement avec la nouvelle domination mondiale qui adopte l'économie de marché, les méthodes classiques de gestion de la production sont devenus incapables de tenir face à ces changement ce qui à donné l'apparition de nouveaux système de gestion de production qui permettent à l'entreprise de mieux s'adapter avec les changements technologiques et les circenstances compétitives et de répondre à la satisfaction des exigences diverses du consommateur.

De ces importants systèmes les plus réputes ; on trouve le système dit (MRP) et le système dit (Jit) qui sent considéres parmi les systèmes les plus développés dans la gestion de production .

مقدمة :

تشهد الساحة الاقتصادية العالمية تطورات متسارعة، أدت إلى تغيير معالم النظام الاقتصادي السائد، والأطراف الفاعلة فيه، والمسيطرة عليه، فتوحد أوروبا تحت راية الإتحاد الأوروبي، والقوة المتعاظمة لليابان، وسعي الولايات

المتحدة الأمريكية لفرض سيطرتها على الكل جعلت من دول العالم الثالث تواجه تحديات عديدة، إضافة إلى تلك التي كانت ولا تزال تتخبط فيها منذ عشرات السنين.

وبما أن الجزائر واحدة من هذه الدول فإن عليها أن تعمل جديا على رفع التحدي والعمل على اجتياز كل هذه العوائق، والتكيف مع تغيرات المحيط، خصوصا مع دخول الجزائر في المنظمة العالمية للتجارة (OMC).

فكل هذا يلزمها فتح أسواقها دون قيد أمام كافة المنتوجات الأجنبية، وهذا بالتأكيد ما سيهدد الاقتصاد والصناعة المحليين، خاصة في الظروف الراهنة التي تتميز بعدم قدرة مؤسساتنا الوطنية على المنافسة الشرسة، والتي لن تبلغها إلا بتحسين النوعية و تخفيض التكاليف، القدرة على التحكم في الآجال، زيادة الإنتاجية، زيادة الإبداع واكتساب الكفاءات وحسن تسييرها، إلى غير ذلك من المتطلبات التي يجب أن يحققها الجهاز الإنتاجي. وبالتالي فإن كل هذا يتطلب البحث عن أنظمة تسيير الإنتاج المناسبة والفعالة. هذه الأخيرة متعددة، لكن أقدمها وأكثرها انتشارا هو نظام تخطيط الاحتياجات المادية MRP (Matériel Requirement Planning) والذي ظل يعتبر ولفترة طويلة نظاما متفوقا في تسيير الإنتاج، حيث أنه مرتبط بالريادة الأمريكية وسيطرتها على السوق العالمية. لكن مع مرور الوقت ظهرت العديد من الأنظمة الجديدة، جاءت لنقد النظام السابق (MRP) ومعالجة جوانب النقص فيه، وأهم هذه الأنظمة هو نظام الوقت المحدد والذي يعرف بـ JIT (JUST –IN -TIME) إلا أن تطبيق هذا النظام في دول العالم الثالث أمر غير ممكن، لأن تطبيقه مرتبط بتوفر شروط معينة.

وإذا نظرنا إلى مؤسستنا الوطنية فإننا نجدها تفتقر لتسيير الإنتاج وفق المنطق الحديث، وبالتالي يجب عليها العمل أكثر من أجل فهم متطلبات ومحتويات هذا المنطق. ومساهمة في هذا المجال، قمنا بإعداد هذا المقال المتواضع الذي يهدف إلى تسليط الضوء على موضوع : واقع تسيير الإنتاج بين النظرة الغربية (MRP) والنظرة اليبانية (JIT).

1. تعريف تسيير الإنتاج :

يقصد بتسيير الإنتاج " الوظيفة المتمثلة في إنتاج الكميات التي يطلبها المستهلك في الوقت المحدد وفي ظل سعر تكلفة وجودة منتوج محددين،

والاستخدام التام والأمثل لموارد المؤسسة الشيء الذي يضمن لها الاستمرار والنمو وتحقيق الموقع التنافسي المرغوب فيه.[1]

بالإضافة إلى ذلك فإن تسيير الإنتاج هو:"تخطيط ومراقبة عمليات الإنتاج والنوعية، والكميات المنتجة و كل الأعمال التي تقوم بخدمة الإنتاج، بما في ذلك شراء المواد التي تستخدم في العملية الإنتاجية وصيانة الآلات"[2]

إذن من خلال هاذين التعريفين نستنتج بأن تسيير الإنتاج هو المبدأ الأساسي الذي يعمل على ضمان الإنتاج بالكمية المطلوبة والجودة المناسبة وفي الآجال المحددة، وبأدنى تكلفة.

2. **تسيير الإنتاج كعملية :**

تتطلب العقلانية الاقتصادية تسيير الإنتاج تسييرا علميا، محكما وفعالا، ويتم كل هذا من خلال أربعة عمليات:

أ . تخطيط الإنتاج : " هو القيام بالتنبؤ لوضع خطة لجميع خطوات تتابع العمليات بطريقة تمكن من تحقيق الأهداف الإنتاجية، أو بعبارة أخرى فإن تخطيط الإنتاج هو تخطيط وبرمجة العمل بصورة مفصلة، بحيث يشمل وضع حدود لعمليات الصنع في المستقبل، والتنبؤات الخاصة والاحتياطات الواجب توافرها "[3]. إذن تخطيط الإنتاج هو عملية جد مهمة تسعى إلى تحقيق التوازن بين الطلبات المتوقعة والاستخدام الأمثل للمواد الإنتاجية من رأس مال وطاقة وعمل.

ب . **تنظيم الإنتاج** : ويقصد به" ترتيب إجراءات الخطة المرسومة لكي يتسنى إنجازها بكفاءة إنتاجية عالية وذلك بواسطة عاملين أصحاب الاختصاص، وتحديد أوجه النشاط وتوزيعها على القوى العاملة من أجل تحقيق الأهداف المرسومة"[4].

ومنه فتنظيم الإنتاج وفق هذه الصورة يعمل على منع الإسراف في الموارد وذلك من خلال تدريب وتأهيل العاملين في الإنتاج بما يتناسب ومتغيرات إدارة الإنتاج من حيث الإمكانيات المادية والبشرية والطاقة الإنتاجية.

ج . توجيه الإنتاج : ويمكن تعريفه على أنه" عملية إرشاد لنشاطات أفراد المؤسسة في الاتجاهات المناسبة التي تؤدي إلى تحقيق أهدافها"[5] .

فمن خلال هذا التعريف نجد أن توجيه الإنتاج هو عبارة عن عملية تعتمد عليها مصلحة الإنتاج، وذلك بغرض تحقيق التعاون بين العاملين في هذه

المصلحة من جهة، وتحقيق أهداف الإنتاج من جهة أخرى . وأن فعالية توجيه الإنتاج تتوقف على مدى تجانس الأهداف الفردية مع أهداف وظيفة الإنتاج.

د . الرقابة على الإنتاج : " وهي الوظيفة التي من خلالها تتم الرقابة على توريد المواد وتوجيه الأنشطة الإنتاجية لمؤسسة ما، على النحو الذي يضمن لها الاستخدام الأمثل للطاقة الإنتاجية المتاحة من السلع والخدمات المطلوبة بالطرق المحددة للوفاء ببرامج المبيعات المعتمدة"[6].

3. تسيير الإنتاج بين النظرة الكلاسيكية والنظرة الحديثة :

أ . التسيير الكلاسيكي للإنتاج : ويمكن تطبيق هذا النوع من التسيير في الإنتاج الصناعي، أي الإنتاج بمجموعات أو دفعات كبيرة، والذي يهدف إلى وضع التوقعات المتعلقة بطلبات الزبائن في الأشهر القادمة، وذلك بعد الشروع في عملية الإنتاج[7]. ويمكن توضيح التسيير الكلاسيكي للإنتاج من خلال الشكل الموالي:

الشكل 1:التسيير الكلاسيكي للإنتاج

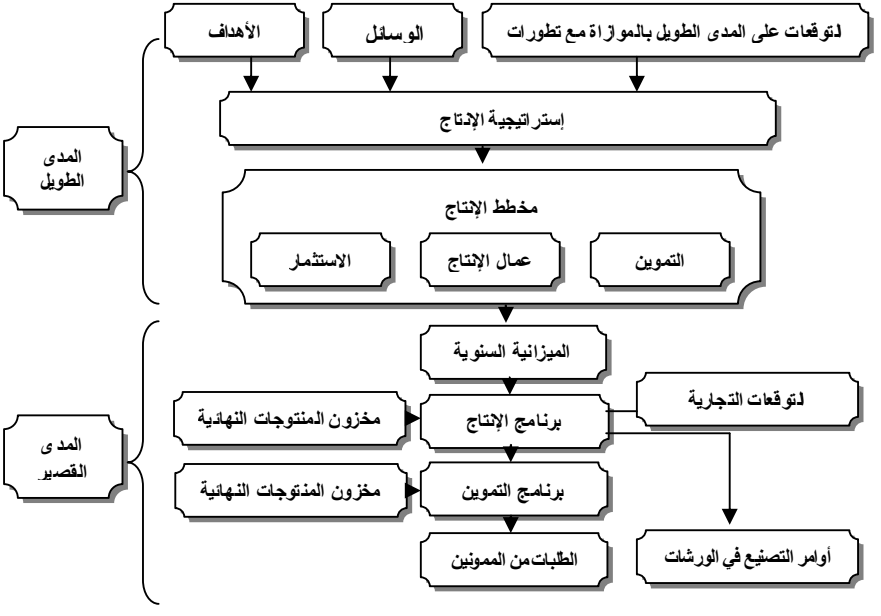

P.Baranger : gestion de la production, éd viubert, paris, 1987,p 96 :

إن التسيير الكلاسيكي للإنتاج يعتمد على ثلاث مبادئ أساسية هي[8]:

- الإنتاج من أجل التخزين : في ظل هذه الظروف فإن الإنتاج يتم من أجل التخزين ريثما يتم بيعه، إذ أن عملية التخزين هاته تسمح أيضا بالاستجابة للزيادة الفجائية في الطلب على المنتجات، كما تسمح أيضا بالاستخدام الأفضل لقدرات الإنتاج.
- برمجة الإنتاج : ويتم ذلك من خلال وضع مخطط للإنتاج الذي يأخذ بعين الاعتبار التوقعات الخاصة بالطلبات الناتجة عن المصالح التجارية، وهذا المخطط يحدد في فترة زمنية معتبرة قدرات الإنتاج الضرورية اللازمة لمختلف الورشات، ووسائل الإنتاج الواجب تطبيقها كرأس المال التقني والبشري بشكل خاص.

فبرمجة الإنتاج تحدد وتثبت في آجال قصيرة (أسبوع أو شهر....الخ) الكميات الواجب إنتاجها وذلك انطلاقا من التوقعات النهائية الخاصة بالبيع، والأخذ بعين الاعتبار مستوى المخزونات.

- المحاسبة الصناعية: (La comptabilité industrielle) إن المحاسبة الصناعية والمحاسبة التحليلية لنشاطات الإنتاج، ستسمح بالتمييز بين التكاليف المتغيرة والتكاليف الثابتة، وكذلك التكاليف المباشرة والتكاليف الغير مباشرة وبعد الأخذ بعين الاعتبار تأثير النشاط.

ب . التسيير الحديث للإنتاج : كان تسيير الإنتاج إلى غاية بداية الستينات يعتمد أساسا على طرق كلاسيكية لم تأخذ بعين الاعتبار الجهاز الإنتاجي. ولم تمكن المسؤولين عن تخطيط الإنتاج من اتخاذ القرارات المتعلقة بالكميات المطلوبة وآجالها. وبالتالي عدم الفعالية التي ظهرت في السياسات الكلاسيكية أدت إلى بذل مجهودات كبيرة في البحث عن طرق أو أنظمة جديدة لتسيير الإنتاج، وأهم هذه الأنظمة نجد **MRP, JIT** [9]. وسوف نتطرق إليهما بشكل مفصل في النقطة الموالية

4. واقع تسيير الإنتاج بين النظرة الغربية (MRP) والنظرة اليابانية (JIT):

أولا : تسيير الإنتاج حسب نظام MRP :

أ . تعريف نظام MRP : يعتبر نظام تخطيط الاحتياجات المادية (MRP) من الأنظمة ذات الكفاءة المستخدمة في السيطرة على الإنتاج و المخزون، وعادة ما تجري مقارنة نظام (MRP) بنموذج كمية الطلب الاقتصادية، وذلك لأن نظام (MRP) يتسم بخصائص أساسية تجعله أكثر كفاءة وملائمة في

السيطرة على الإنتاج والمخزون. ولكي نوضح ذلك نشير إلى أن نماذج المخزون تعالج كل مادة أو جزء كطلب مستقل قائم بذاته، ثم بعد ذلك يتم حساب كمية الطلب الاقتصادية له في كل منتوج بشكل مفصل. ولكن عندما تكون تلك المادة أو ذلك الجزء يدخل في تركيب أكثر من منتوج فليس من الجدوى الاقتصادية أن لا تحسب الاحتياجات الكلية من المادة أو الجزء مرة واحدة بغض النظر عن استخدامها في أي منتوج من المنتجات.

كما أن الطلب قد يكون مستمرا ودوريا، فتكون نماذج كمية الطلبية الثابتة أو الفترة الثابتة ملائمة لهذا النوع من الطلب، ولمعالجة التأرجح في الطلب في مثل هذه الحالة يتم استخدام مخزون الأمان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى قد يكون الطلب غير مستمر وغير دوري، وإنما متقطع؛ أي يكون في فترة ما عاليا وفي فترة أخرى لا يوجد طلب، في مثل هذه الحالة فإن نماذج المخزون لا تسمح بوصول مستوى المخزون إلى الصفر، وعندما يكون مساوي للصفر فإن هذا يعني المخزون يبقى عاليا.

وإزاء هذه المآخذ على نماذج المخزون، فإن نظام (MRP) قدم معالجة ذات كفاءة عالية، حيث تطور في عقد السبعينات (1965 . 1976) وانتشر بسرعة بفضل الحملة التي قامت بها الجمعية الأمريكية للسيطرة على الإنتاج والمخزون، فخلال خمس سنوات (1976.1971) ازداد عدد الشركات التي تتبناه من 150 إلى 1000 شركة، وذلك راجع لأهمية في تحديد الاحتياجات من الأجزاء والمواد الأولية أينما وجدت ، وهذا من خلال جدول الإنتاج الرئيسي[10].

ب. مكونات نظام (MRP): يتكون نظام (MRP) من ثلاثة عناصر وهي[11]:

. التسميات (Les NOMENCLATURES) : إن التسمية هي من أهم الوثائق التنظيمية التي تستعمل في التموين بشكل خاص، وفي المؤسسة بشكل عام، يتمثل هدفها في اقتصاد الوقت وتوحيد المعلومات في المؤسسة ويتم وضع التسمية في مرحلتين:

. مرحلة وضع ملف لقائمة المواد: وفي هذه المرحلة يتم تحديد جميع الأجزاء والمواد الأولية والمجموعات الفرعية المطلوبة لإنتاج وحدة واحدة من المنتوج النهائي. لذا فإن كل منتج له استمارة (قائمة) المواد الخاصة به، وهذه

الأخيرة يمكن توضيحها من خلال تركيبة شجرة المنتوج، حيث أن هذه التركيبة تبدأ من المنتوج المستهدف.الذي يأخذ المستوى صفر، لتأتي بعده المستويات الأخرى التي تمثل المواد والأجزاء المكونة له.

. **مرحلة وضع الرموز :** يتم في هذه المرحلة إعطاء كل جزء رمزا أو مؤشرا، وبالتالي أينما يستخدم ذلك الجزء يعطى نفس الرمز أو العلامة، مما يسهل تحديد الاحتياجات الكلية للمنتجات المختلفة والمخزون وغيرها، ولتوضيح كل ما سبق نأخذ الشكل التالي:

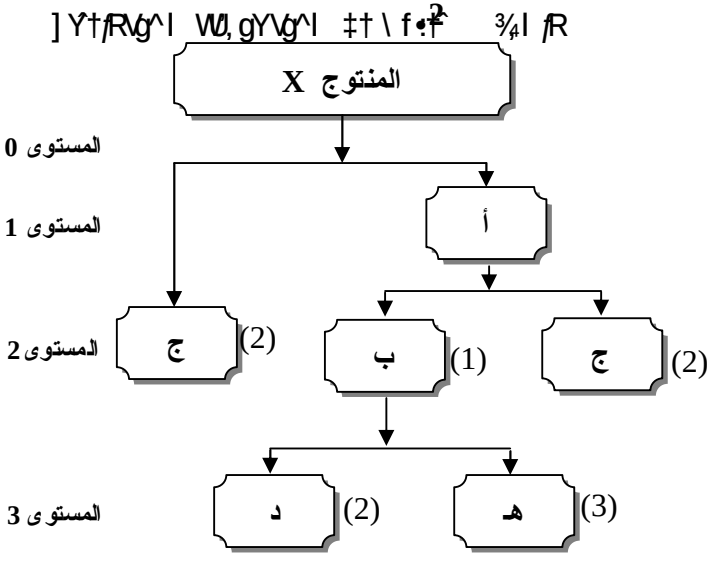

المصدر : نجم عبود نجم، **نظام الوقت المحدد (JIT)**، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، سلسلة بحوث و دراسات،1995، ص: 84.

فمن خلال هذا الشكل نجد بأن المنتوج X يتم صنعه من :

ثلاث وحدات من (أ)، ووحدتين من (ج)، وكل وحدة من (أ) تصنع من وحدتين من (ج) ووحدة واحدة من (ب)، وكل وحدة من (ب) يتم صنعها من 3 وحدات من (هـ) ووحدتين من (د).

من الواضح أن تركيبة شجرة المنتوج تساعد على فهم المنتوج بسهولة.

- جدول الإنتاج الرئيسي : وهو يحدد المنتجات أو الأجزاء التي سيتم إنتاجها، بالكمية المطلوبة وفي الآجال المحددة

وهذا الجدول يقسم الأفق الزمني للتخطيط إلى عدة فترات، وهي عادة ما تكون أسابيع، ولأن نظام (MRP) هو مصمم لتحديد الاحتياجات الكلية والصافية، فإنه يعمل على حساب جميع الاحتياجات من المنتوج(X) مثلا، كالاحتياجات الخاصة بالطلبيات على المنتوج احتياجات المخازن، احتياجات الصيانة ....الخ، ثم بعد ذلك يتم حساب الاحتياجات الصافية.

- ملفات حالة المخزون : و هي تستخدم لخزن البيانات عن حالة كل مادة أو كل جزء، و ذلك في الفترة الزمنية المعنية، وهي تتضمن ثلاثة أنواع من البيانات :

1- البيانات الأساسية عن كل جزء (خصائصه، تخطيط حجم الوجبة، فترة التوريد، مخزون الأمان...إلخ)

2- البيانات الخاصة بحالة المخزون

3- البيانات الإضافية (تفاصيل عن الطلبيات، تغيرات الطلبية،طلبات الشراء المعلقة...إلخ)

ج: التخطيط لحساب الاحتياجات حسب نظام MRP:

إن مبدأ التخطيط حسب هذا النظام هو عملية سهلة ، لأنه يعتمد أساسا على دفتر الطلبيات المعبر عنه بالمنتجات النهائية، وذلك طبعا بمساعدة التسميات في تحليل هذه الطلبية إلى مجموعات جزئية،مكونات مواد.

ومن خلال هذا التحليل يجب الأخذ بعين الاعتبار المخزونات الموجودة في المخازن و ذلك من أجل تفادي الإنتاج الغير مفيد (الزائد)

و عموما التخطيط لحساب الاحتياجات حسب نظام MRP يمكن أن نوضحه من خلال الشكل الموالي:

الشكل رقم : 03 التخطيط لحساب الاحتياجات المادية

XS٥٥٥ 'UqfRW|S٥٥٥٥٥a		
ÉÏ ß?ç **Fermes**	É Ñç Êî?ç **Optionnelles**	**Prévisionnelles**

INCERTITUDE CROISSANTE

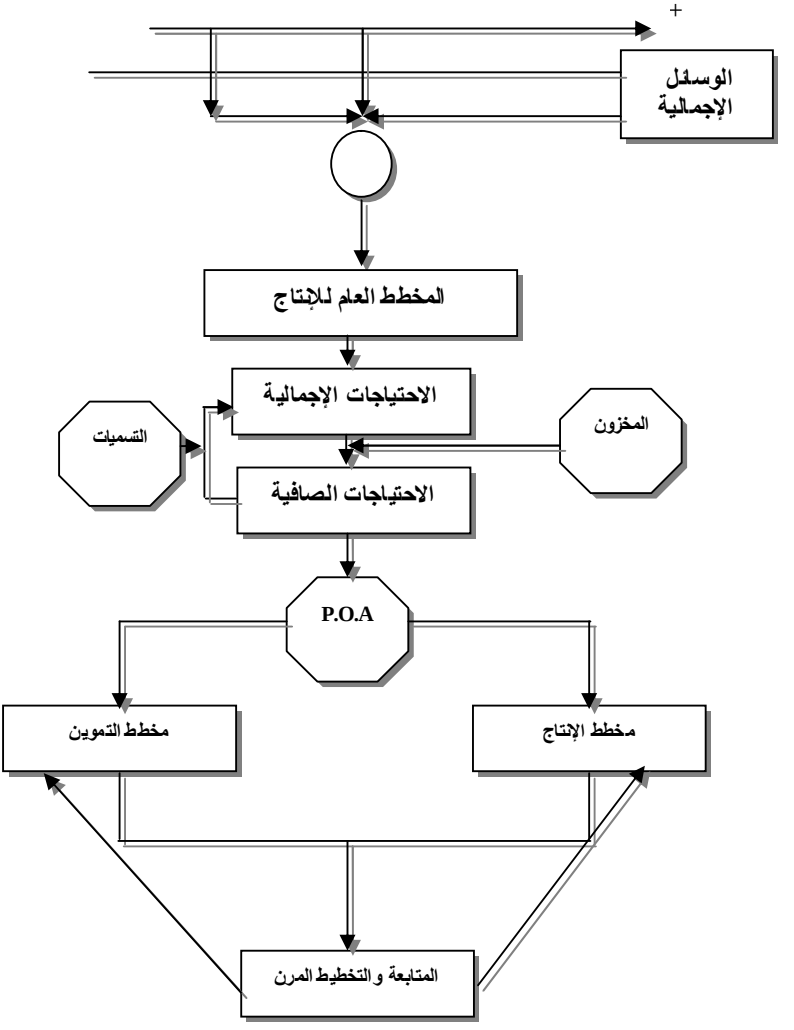

.83 m ~U$ t ^gt .:^ e•ll .:^ gen tfR

حيث إن[12]:

- **دفتر الطلبيات : هو أساس تخطيط الإنتاج، و يتكون من مجموعة المعلومات الخاصة بالطلبية حيث إذا كانت هذه الطلبيات أكيدة فإنها تسمح بالانطلاق الفعلي للإنتاج، بينما توقعات المبيعات تجعل حافظة الطلبيات غير مستقرة (volatil) .**
- **المخطط العام للإنتاج: هذا المخطط هو حاصل المفاوضة بين المسؤولين على الإنتاج هذا من جهة، والمسؤولين على البيع من جهة أخرى وذلك بغرض إنتاج الكميات المطلوبة و تسليمها في الآجال المحددة.**
- **حساب الإحتياجات الإجمالية والصافية: تمر عملية حساب الإحتياجات بمرحلتين :**

- المرحلة الأولى : ويتم فيها تحليل شجرة المنتوج إلى مجموعات ثم مجموعات جزئية ثم إلى مواد أولية، مع تحديد رقم كل مستوى، ترميز المواد (المكونات) وكذلك تحديد معاملات العبور الخاصة بكل مكون.

- المرحلة الثانية : وفيها تتم عملية حساب الإحتياجات الإجمالية ثم الإحتياجات الصافية من كل مكون

و لتوضيح ذلك نأخذ المثال التالي :

إذا كانت لدينا مجموعة جزئية A تحتوي على : 8 قطع من المادة (س) ، 2 قطع من المادة (ع) ، 5 قطع من المادة (ص) ويلزمنا 3 مجموعات جزئية من النوع A في تركيب المنتوج النهائي.

ومنه نجد أن الإحتياجات الإجمالية من :

قطع النوع (س)=8 ×3= 24 قطعة

قطع النوع (ع) = 2×3= 6 قطعة

قطع النوع (ص) =5 ×3= 15 قطعة

و لكن إذا كان هناك : 4 قطع من النوع (ع) في طور التصنيع و 4 قطع من النوع (س) موجودة في مخازن المؤسسة فتكون الإحتياجات الصافية :

من المادة (س) = 24 ـ 4 =20 قطعة

من المادة (ع) =6 ـ 4 = 2 قطعة

من المادة (ص) = 15 قطعة

وفي الحالة العامة من اجل حساب الإحتياجات الإجمالية و الإحتياجات الصافية من المكونات نستخدم المعادلتين التاليتين :

$$BNj(t) = BBj(t) - STOCK\ j(t)$$
$$BBj(t) = BNpere\ J\ .\ Cj\ pere\ J$$

حيث :

(t) BNj: هي الاحتياجات الصافية من المكون في اللحظة (t).

(t) STOCK : مخزون المكونات في اللحظة (t).

(t) BBj : الاحتياجات الإجمالية من المكونات في اللحظة (t).

BN pere J: الاحتياجات الصافية لأب المكون (j)، حيث الأب (j) هو المكون الذي يوجد في المستوى الأعلى مباشرة لـ (j).

Cj pere j : معامل عبور (j) في اتجاه الأب (j) وهو يبين عدد المكونات (j) اللازمة لتكوين الأب (j).

وعليه فإن عملية حساب الاحتياجات الصافية يضع أوامر البدء في الإنتاج أو أوامر التموين باكرا (قبل الأوان) وذلك لتفادي المخزونات الزائدة عن الحاجة والغير مفيدة.

ثانيا : تسيير الإنتاج حسب نظام الوقت (JIT)

JIT: (Just In Time) هو أحد الأنظمة المتطورة في تسيير الإنتاج و تتبلور فلسفته بشكل عام في التطوير المستمر الذي يعتمد على وسيلة أساسية و هي محاولة الإستغناء على كل أنواع المخزون ليصبح مساويا للصفر، و لكي تحقق المؤسسة هذا الهدف يجب عليها العمل بكل أقسامها و قطاعاتها و على مراحل و خطوات متطورة. (13)

1. مفهوم نظام الوقت المحدد (المناسب)JIT :

هو فلسفة جديدة تقدم أساليب جديدة للإنتاج، تساعد بكفاءة على تحقيق الموقع التنافسي ما بين الشركات الكبيرة في الأسواق العالمية، و هذه الفلسفة تقوم أساسا على أداء الشيء المطلوب في الوقت المحدد دون أي تقديم أو تأخير،وما يتطلبه ذلك من إدارة و توظيف الموارد البشرية المتاحة.

وتعود جذور هذا النظام إلى البيئة اليابانية وخصائصها المتميزة، إذ طورته شركة تويوتا (TOYOTA) في الستينات وذلك من طرفTaiichi-ohno، حيث كان تطبيقه لأول مرة في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1980 من قبل مصنع " كاواساكي لنكولن نبراسكا" ومع مرور الوقت أخذت تطبقه الشركات الأمريكية العامة في صناعة السيارات والإلكترونيات، لينتشر بعد ذلك في أوروبا

وأمريكا الجنوبية و الوسطى وهكذا أخذت شعبية هذا النظام تتسع باستمرار بعد أن حظي باعتراف واسع بكفاءته في إزالة مختلف مصادر الهدر، وخفض المخزون، وجدولة الإنتاج، وتحقيق الجودة العالية، هذا إلى جانب إقامة علاقات واسعة وجديدة مع الموردين..الخ

وكما نرى فإن نظام JIT بقدر ما يمثل فلسفة الإنتاج تشتمل على عناصر أساسية قابلة للتطبيق في بيئات معينة، لأنه يتضمن خصائص متميزة مرتبطة بجذورها اليابانية، وبالتالي هذا ما يفسر ما أشار إليه هاي "E.J.HAY"، إن الكثير يسأل: أنا أعرف كل شيء عن فلسفة نظامJIT، والنظريات التي تمكن ورائها ولكن سؤالي كيف أطبقها في شركتي"

ورغم كل هذا، فإن تطبيقات JIT خارج اليابان حققت نتائج جد إيجابية ومن بينها نذكر[14]:

1. زيادة في إنتاجية العمل بنسبة 20 %- 50%
2. خفض وقت التحميل الصناعي بحوالي : 80%- 90 %.
3. خفض تكلفة الإخفاق (ضرورة إعادة العمل) بحوالي: 40%-50%.
4. خفض تكلفة شراء المواد بحوالي : 8%-15%.
5. خفض كمية المخزون بنسبة : 50%-90%.
6. تقليص احتياجات الموقع نسبة 30%-40%.
7. زيادة في استغلال طاقة المعدات نسبة : 30%-40%

2. نظام JIT ومبدأ الخمس أصفار :

إن نظام JIT الذي طبقته بنجاح شركة TOYOTA اليابانية، يمثل رؤية حقيقية وشاملة ومتكاملة لنظام الإنتاج بكل عناصره، بدءا من المجهزين، العمليات التحويلية، التخزين، العاملين، ثم وصولا إلى المنتجات النهائية والزبون وأخيرا عمليات التحسين المستمرة لكل هذه العناصر والمكونات.

وما يجب الإشارة إليه هو نظام JIT يعتمد على مبدأ الخمس أصفار (Cinq Zéros)[15]

1. صفر الأوراق (Zéro Papier) وهذا يعني التخفيض قدر الإمكان من الإجراءات القانونية، والأعمال الإدارية اليدوية أو الآلية.

2. صفر الآجال (Zéro Délai)، أي القضاء على كل المصادر التي تتسبب في تضييع الوقت، وذلك بين الآجال التي يتم فيها تسجيل الطلبية، ووقت انتهاء المنتوج، وإرساله إلى الزبون.

3. صفر التعطلات (Zéro pane) : أي السعي إلى الوصول للحالة التي لا يمكن للتعطل أن يحدث.

4. صفر العيوب(Zéro défaut): وذلك من خلال العمل على تخفيض مستويات التلف (العيوب) إلى أقل مستوى ممكن بهدف التحسين المستمر والجودة.

5. صفر المخزون (Zéro stock): وهذا المبدأ ينص على عدم وجود مخزون الأمان،وبالتالي يجب أن يكون الموردين قريبين من المؤسسة المنتجة، حيث نجد بأن شركة TOYOTA تتعامل مع الموردين الذين تربطهم بها علاقات طويلة الأمد، ويجب أن يتموقعون في مكان قريب من مصانعها ويمكن الوصول إليهم في زمن ساعة واحدة أو أقل بالتقريب.

3. **نظام السحب كانبان kanban :**

كانبان هي كلمة يابانية وتعني البطاقة ، وهي مصطلح إستخدم من قبل منتجي السيارات، ففي دورة الإنتاج التقليدية فإن العامل لما ينهي معالجة جزء من الأجزاء يدفعه إلى العملية الموالية، وهذا بغض النظر إن كان العامل في هذه العملية جاهزا أم غير جاهز لاستلام ذلك الجزء، وبالتالي هذا سبب من أسباب زيادة المخزون قيد الإنجاز، أما في نظام KANBAN فإن الجزء الذي تمت معالجته يسحب من العملية السابقة وفقا لما يكون مطلوبا، بحيث يطلب العامل في العملية الموالية الجزء المعني في الوقت المناسب .

أدخل نظام Kanban في شركة (TOYOTA) عام 1953 وهو نظام عرف في العالم بنظام بطاقات السحب اليدوي للسيطرة على المخزون، و يتألف من بطاقات وصناديق قياسية، حيث البطاقات تنقسم إلى نوعين [16] :

- Kanban الإنتاج : وتتضمن كل المعلومات الخاصة بالإنتاج المطلوب، رقم البطاقة، رقم الجزء، وصف الجزء، كمية الأجزاء في الصندوق، رقم الصندوق، أين ينتج الجزء.

- Kanban السحب : فتجيز حركة الصناديق من مخرجات محطة العمل السابقة إلى مدخلات محطة العمل اللاحقة، ويشترط بأن تكون هذه الصناديق ذات مواصفات خاصة، حيث كل جزء يصمم له صندوق حسب مواصفاته، ويحفظ بداخل هذا الصندوق كي لا يتعرض للضرر ويسهل تناوله.

ومن أجل توضيح عمل نظام Kanban نأخذ الشكل الموالي: [17]

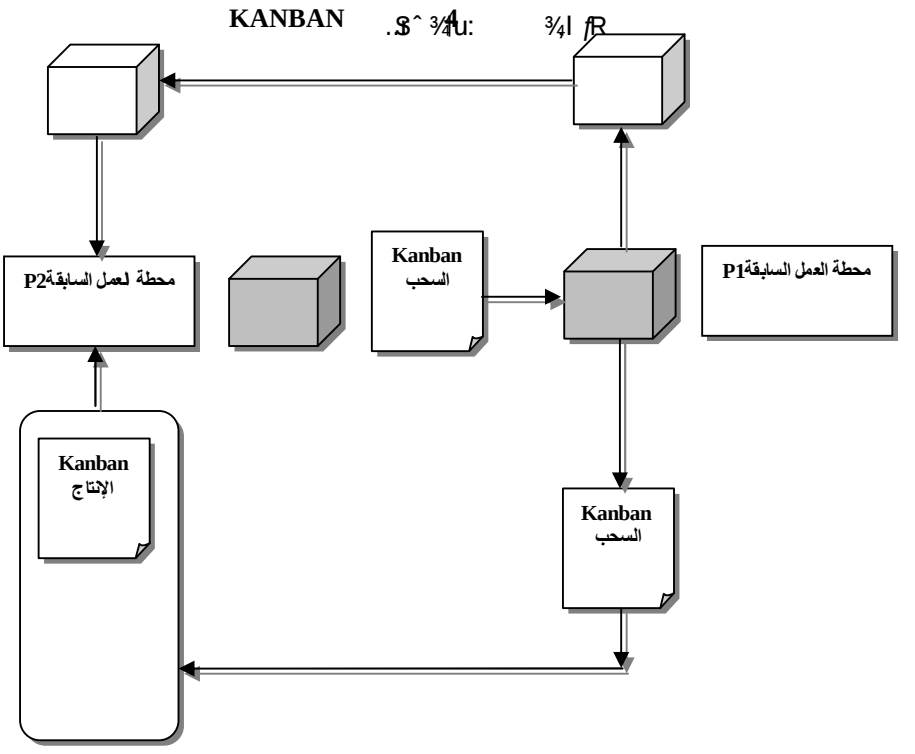

Source : Philippe Vallin, **La logistique modèle et méthode du pilotage des flux** ; Economica, Paris, 1999, P66.

وإذا كانت محطة العمل اللاحقة (P1) تحتاج إلى استعمال الأجزاء المصنوعة من طرف محطة العمل السابقة (P2)، ترسل KANBAN الإنتاج والتي تحتوي على المعلومات المذكورة سابقا، إذ تُعَلَّقْ على جدول يسمى بـ TABLEAU KANBAN وهو موجود في محطة العمل (P2)، فينطلق الإنتاج في هذا المركز وترسل هذه الأجزاء في صناديق مع بطاقة Kanban السحب، ونفس الشيء إذا كانت محطة العمل اللاحقة (P1) في حاجة إلى الأجزاء المصنوعة من طرف محطة العمل السابقة (P2).

4. أهداف نظام الإنتاج في الوقت المحدد (JIT):

يسعى نظام JIT إلى تحقيق العديد من الأهداف والتي من أبرزها نذكر[18]:

أ ـ خفض مستويات المخزون : وذلك حتى تصل قيمته إلى الصفر، ويتحقق هذا من خلال تخفيض جميع أنواع المخزون كلها، سواء كانت للمواد الخام أو المنتجات نصف مصنعة أو المنتجات التامة الصنع.

والهدف من وراء كل هذا تخفيض رأس المال وتخفيض التكاليف الأخرى غير المباشرة المرتبطة بالاحتفاظ بالمخزون

ب . تبسيط تدفق الإنتاج بمرونة : حيث أن التبسيط يعتبر هدف يسعى إليه نظام الإنتاج في الوقت المحدد، ويحارب من أجله، وهذا الأخير يعمل على :

. تبسيط تصميم المنتوج وتحليل مكوناته.

. تبسيط عمليات التشغيل والآداء عن طريق توصيف وتوضيح كل خطوة للعاملين ووضع الآلات في مجموعات تكنولوجية لتبسيط الأداء وسرعة تدفقه.

. تبسيط إجراءات الرقابة.

. تبسيط تدفق المواد الخام وأجزاء الموارد المختلفة للإنتاج باستخدام نظام السحب أو Kanban System في سحب المواد الخام وتدفقها.

. استجابة النظم المختلفة والمتداخلة مع النظام الإنتاجي لتلبي جميعها احتياجاته في الوقت المحدد.

ج . الإستجابة السريعة لطلبات السوق المتنوعة في أقصر وقت ممكن : ولتحقيق كل هذا يتطلب المرونة وسرعة التدفق والتنسيق مع الموردين، ومهارات مختلف العاملين، وعمل دراسات متقدمة لمعرفة احتمالات السوق المختلفة على الطلب للمنتجات الحالية والمستقبلية.

د . تحقيق أعلى مستوى للجودة : يعتبر هذا الهدف أحد الأهداف الرئيسية لنظام الإنتاج في الوقت المحدد. ويتم تحقيق ذلك بعمل كل مرحلة من مراحل الإنتاج من البداية إلى النهاية بشكل سليم، وبالتالي لن يكون هناك أية فرصة لإنتاج وحدة معيبة.

هـ . تقليل وقت الدورة الإنتاجية : إن وقت الدورة الإنتاجية هو الوقت ما بين أول خطوة في الإنتاج إلى الخطوة التي يصبح فيها المنتوج جاهزا على الخط الإنتاجي وينقسم، وقت الدورة الإنتاجية إلى ثلاث عناصر هي :

. وقت إعداد الآلة : وهو وقت ثابت لا يتغير عادة.

. إعادة ضبط الآلة : وهو وقت يتغير مع زيادة حجم الدفعة.

. تشغيل الدفعة : وهو يزيد مع زيادة حجم الدفعة.

وبالتالي من أجل تقليل وقت الدورة الإنتاجية (الإنتاج الكلي) يجب مراعاة :

- الاهتمام المتزايد بالصيانة الوقائية للوصول إلى الأعطال بنسبة 0 %

o تنوع المهارات لضمان سرعة الأداء وجودته لجعل وقت الإعداد = صفر

و. التأكيد والعمل على التطوير المستمر والابتكار : حيث أن العمل على التطوير والابتكار في أي جزء من أجزاء التشغيل يساهم في تحقيق تخفيضات في التكاليف والعمل بمرونة، وكذلك وجود تصميم أمثل للمنتج، وتطوير هذا التصميم والابتكار فيه يساعد على الاستغلال الأمثل للموارد والارتفاع بمستوى الجودة، ويمكن تحقيق هذا التطوير والابتكار المستمرين عن طريق بناء علاقة قوية واتصالات مستمرة ومتبادلة بين الإدارة والعاملين، لأنه في نظام JIT الإدارة ترى أن العاملين هم أقدر من غيرهم على معرفة ظروف العمل المحيطة بهم وأن تشجيعهم على تقديم المقترحات وجعلها موضع الاعتبار يجعل العاملين يتفانون في العمل وينمي لديهم روح المبادرة والابتكار

ثالثا : مقارنة بين نظام MRP ونظام JIT[19]:

1. يستخدم نظام MRP فلسفة للتخطيط تقوم بناءا على خطة مواد صحيحة حسب الاحتياجات، وبعدها يتم التنفيذ حسب الخطة، عكس ذلك فإن JIT يؤكد على إزالة الهدر وهذا يكون بخفض المخزون وكشف المشكلات وإذا كان MRP يأخذ المصنع كمعطي فإن JIT ليس كذلك، لأنه يجب أن ينظم هو الآخر حسب مفاهيم JIT.

2. يستخدم نظام MRP لمعالجة المعلومات المعقدة والتفصيلية، أما نظام JIT فإنه نظام يدوي يستعين بالسيطرة البصرية، وإذا كان MRP يتبع طلبات الإنتاج وطلبات الشراء، ويتطلب عملا مكتبيا واسعا من اجل السيطرة على المصنع، فإن JIT يسخدم بطاقات كانبان التي تستخدم كطلبات إنتاج أو طلبات شراء، مما يقلص العمل المكتبي إلى الحد الأدنى، مع عدم الحاجة لاستخدام الحاسوب .

3. يسمح نظام MRP بجدولة إنتاج متغير بدرجة كبيرة، كما يمكن استخدام جدولة من نوع JIT مع نظام MRP ولكن عندئذ لا يكون استخدام الحاسوب مطلوبا، أما JIT فيتطلب جدولة إنتاج ثابت يكون متماثلا من يوم لأخر ومن ساعة لساعة.

4. يبحث نظام JIT في خفض أوقات الإعداد إلى الحد الأدنى مما يسمح بتبني حجم وجبة اقتصادية صغيرة، أما نظام MRP فيأخذ أوقات الإعداد كمعطي، لهذا فإن حجم الوجبة الكبير يعتبر مقبولا في مدخل MRP التقليدي.

5. يعتبر نظام JIT الموردين جزءا من الفريق كما انه يشجع على علاقات طويلة الأمد معهم ، أما مع نظام MRP فالموردون يعاملون في أغلب الأحيان كخصوم ويحرض بعضهم على بعض من أجل أسعار أفضل.

6. في نظام JIT العمال مسؤولون عن إنتاج أجزاء ذات نوعية جيدة لدعم العمليات اللاحقة، ويشاركون أيضا في حل المشكلات ويكلفون برفع الإنتاجية وتحسين النوعية. أما عن نظام MRP فالعمال جزء من النظام ويخضعون للسيطرة والتخصص في عمل واحد، فدور العامل هو إتباع الخطة.

وبغض النظر عن هاته الاختلافات فإن JIT وMRP لهما مجالات خاصة للاستفادة منهما، ففي الإنتاج المتكرر (Repetative production) فإن نظام JIT على الأرجح يعطي نتائج أفضل، وخاصة في ظروف بيئية ملائمة حيث يمكن أن يخلقها نظام JIT نفسه. كما هو الحال في جدولة رئيسية مستقرة مجهزة متعاونة، وعمال ذوي مهارات متعددة ...إلخ، أما MRP فإنه يعطي أفضل النتائج في مستوى الأعمال حسب الطلب وفي بيئة إنتاج غير متكررة، أما في بيئة الإنتاج شبه المتكررة فإن الربط بين النظامين يكون أكثر كفاءة، وفي هذه الحالة فإن MRP يستخدم لتخطيط المواد ونظام JIT يستخدم في السيطرة على المصنع. وبالفعل حققت شركة ياماها (The YAMAHA motor Co) في الثمانينات هذا الربط بين النظامين بتطوير نظام جديد هو (SynchroMRP) والشكل الموالي يوضح جوانب من هذا الربط :

الشكل 5: يوضح الربط بين نظام الوقت المحدد ونظام تخطيط الاحتياجات المادية

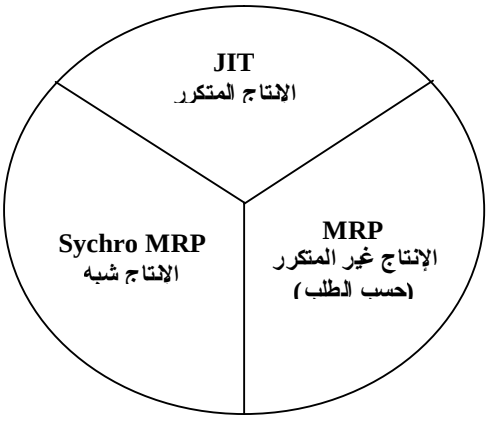

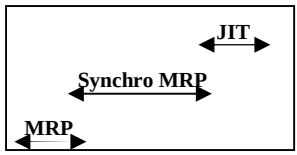

ÑÑÎSÊa ÑÎUâ¸ Ìç¢ê?ç

.[88] m ~lS$ t ^gt œeat fRX •fR.S^ .:^ e•lu .:^ gen tfR

الهوامش :

1. علي الشرقاوي ، إدارة النشاط الإنتاجي في المشروعات الصناعية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان، ص: 05.
2. بشير عباس علاق، مصطلحات العلوم الإدارية ـ المحاسبة والتمويل ، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، . بيروت. ط1 ، ص: 414.
3. نفس المرجع ، ص : 414.
4. محمد رسلان الجيوشي وجميلة جاد الله، الإدارة علم وتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، عمان.ط1 2000، ص : 87
5. نفس المرجع ، ص 127.
6. علي الشرقاوي، تخطيط ورقابة الإنتاج ، دار النهضة العربية، بيروت ، ص : 31.
7. P. Baranger ;Gestion de la production, éd, Viubert, Paris, 1987 , 95.
8. IBID, PP : 95-97.
9. Alain Spalainzani : Précis de gestion Industrielle de production,OPU,1994 ,P 110.
10. نجم عبود نجم، نظام الوقت المحدد(Jit)، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، القاهرة، سلسلة بحوث ودراسات ، 1995، ص ص: 81 ـ82.
11. نفس المرجع ، ص ص : 84 ـ 86.
12. Alain Spalainzani , OP,cit , pp : 113-114.
13. عصام الدين مصطفى، الآثار المحاسبية للمنهج الياباني في إدارة الإنتاج ، منهج المخزون الصفري ، المجلة العلمية للاقتصاد والتجارة ، مصر، 1990، ص 2.
14. نجم عبود نجم، مرجع سابق، ص ص : 22 ـ 23.
15. P.Baranger, Op,cit , pp : 97-99.
16. نجم عبود نجم ، مرجع سابق، ص ص : 52 ـ 57.
17. Philippe Vallin, La logistique modèle et méthode du pilotage des flux, économica, Paris, 1999, P 66.
18. سعيد يس عامر ، الإدارة وتحديات التغيير، مركز وايد سيرفيس للاستثمارات والتطوير الإداري ، مصر، 2001، ص ص : 321 ـ327.
19. نجم عبود نجم، مرجع سابق، ص ص : 86 ـ89.

التنبؤ بأزمات الأسواق المالية

بقلم
أ/ علي قابوسة
أستاذ مساعد بمعهد العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير
بالمركز الجامعي بالوادي

الملخص :

يعالج هذا الموضوع مسألة التنبؤ بأزمات الأسواق المالية، والتي بدأت تقلق العديد من الاقتصاديين نظرا للآثار الكبيرة التي تتركها اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، ومن ثم يعرض هذا البحث لجملة من النماذج المصممة أساسا للإفادة في إنشاء نظام إنذار مبكر للأسواق العربية يتناسب مع ما يحتاج إليه من مؤشرات اقتصادية .

Summary

This paper treats the question of crises predictions in financial markets which worries much of economists due to their big effects economically, socially and politically. Therefore, the research suggests some samples designed basically for use as early alarm systems to the Arabic markets and which match with their needs concerning the economic signs.

مقدمة :

في السنوات القليلة الماضية ، حاول العديد من الباحثين الاقتصاديين أمثال Reinhart , lizondo , kaminsky بناء نماذج خاصة للتنبؤ بأزمات الأسواق المالية على أمل تفادي الآثار الاقتصادية والاجتماعية المدمرة لها وكانت الأزمة الآسيوية وقبلها الأزمة المكسيكية وما تركتاه من آثار سلبية ماثلة للعيان .

ويبدو أن الفرضية التي انطلق منها هؤلاء الباحثون هي أن التنبؤ بحدوث الأزمة من شأنه أن يقلل من الخسائر الاقتصادية المحتملة ، فخطورة الأزمة لا تكمن في الأزمة فقط وإنما بعنصر المفاجأة التي يرافقها شأنها في ذلك شأن الزلزال الذي يعصف ببلد ما و الذي يمكن أن تخفف أثاره المدمرة عندما

يتوقع الناس حدوث الزلزال و يتخذوا الاحتياطات اللازمة لتقليل الخسائر البشرية والمادية .

وبالرغم من حداثة النماذج التي تناولت موضوع التنبؤ بأزمات الأسواق المالية إلا أن هذه الأزمات ليست جديدة ولا ترتبط بالنظام المالي الحالي، فالتاريخ الاقتصادي يشير لنا إلى العديد من الأزمات سواء في القطاع المصرفي أو الأزمات في أسواق الصرف الأجنبي، ففي القرن العشرين كانت هناك أزمة الفرنك الفرنسي والجنيه الاسترليني في عقد الستينيات ، انهيار نظام بريتون وودز في بداية عقد السبعينيات و أزمة الديون العالمية في الثمانينيات ،ولم تقتصر هذه الأزمات على القرن العشرين فقط بل إن القرن الذي سبقه شهد العديد من الأزمات منها على سبيل المثال أزمة سعر الصرف في الولايات المتحدة الأمريكية للفترة 1894 ـ 1896 والتي عصفت بقاعدة الذهب التي كانت متبعة آنذاك .

لكن لا بد من الإشارة إلى أن الأزمات المعاصرة تختلف عن تلك التي حدثت في الماضي للتطور الهائل الذي حصل في وسائل الاتصال ومن ثم التكامل بين الأسواق في مختلف أنحاء العالم بحيث أن ما يحصل في أي سوق تنتقل أثاره السلبية (أو الايجابية) إلى بقية أسواق العالم مهما بعدت المسافات الجغرافية بينهما ، فوسائل الاتصال الحديثة جعلت من هذه الأسواق سوقا واحدة وهذا عكس ما كان موجودا في بداية القرن الماضي حيث كانت الأسواق تمتاز بالانفصال (وإن كان غير تام) بعضها عن البعض الأخر مما جعل ظاهرة العدوى contagious بين الأسواق المالية محدودة للغاية .

أولا : أنواع الأزمات في الأسواق المالية :

تواجه الأسواق المالية العديد من الأزمات التي يمكن حصرها كما يلي:

1 . أزمة العملة currency crisis :

وتحدث هذه الأزمة عندما تتعرض العملة إلى المضاربة مما يؤدي إلى تدهور كبير في قيمتها سواء بالانخفاض depreciation أو التخفيض devaluation وفي هذه الحالة تحاول السلطات النقدية أن تدافع عن عملتها

من خلال طرح كميات كبيرة من العملات الأجنبية أو زيادة أسعار الفائدة من أجل امتصاص الفائض من عرض النقد ومن ثم رفع قيمتها .

2 . الأزمات المصرفية Banking Crises :

وهي الحالة التي تفشل فيها المصارف في تجميع الادخارات ومواجهة السحوبات من قبل عملائها بما يصيبها بالإفلاس الأمر الذي يدفع الحكومة على التدخل لمنع ذلك من خلال تقديم العون والمساعدة بشكل كبير .

3 . الأزمات المالية الشاملة Systemic Financial Crises :

والتي تسبب اضطراب في عمل الأسواق المالية وفي مجال أداء وظيفة السوق المالية الأمر الذي يمكن أن يكون له نتائج سلبية على الاقتصاد القومي ومن الممكن أن يتزامن حدوث أزمات العملة مع الأزمات المالية ، ولكن أزمات العملة لتتضمن بالضرورة أضرارا لنظام المدفوعات المحلي وبالتالي لاتصل أن تكون أزمة مالية شاملة .

4 . أزمة الديون الخارجية External debt Crises :

وهي عدم قدرة البلد على تسديد ديونه الخارجية أو خدمتها سواء كانت خاصة أو حكومية .

وعلى العموم لا يمكن فصل هذه الأزمات من بعضها كونها في أغلب الأحيان تشترك أيضا في المسببات أو أن لها جذور أو أصولا مشتركة common origins وتشترك أيضا في النتائج التي تتمحور حول انعدام الثقة بالعملة و انخفاض في قيمة الأصول المالية و ضعف في الاقتصاد بصورة عامة وانهيار العديد من المؤسسات المالية وغير المالية مما يؤدي إلى ضعف في الاقتصاد .

من جهة أخرى يمكن أن تحدث هذه الأزمات في وقت واحد كما هو الحال في الأزمة الآسيوية و المكسيكية، ومن الممكن أيضا أن تقتصر الأزمة على نوع واحد في هذه الأزمات كما هو الحال في أزمة نظام سعر الصرف الأوروبي عام 1992.1993 والتي كانت بالأساس أزمة عملة بالرغم من أن بعض الدول في شمال أوروبا قد تزامنت فيها أزمة العملة مع أزمة القطاع المصرفي . من

الممكن أن تبدأ الأزمة في نوع واحد منها ثم تحدث الأزمات الأخرى تباعا، حيث إن الأزمات المصرفية تسبق غالبا أزمات العملة وخاصة في الدولة النامية، كما حصل في تركيا و فنزويلا في منتصف عقد التسعينيات . ولكن ليس بالضرورة أن تكون الأزمة التي تحدث أولا سببا في حدوث الأزمة اللاحقة لها .

ثانيا : مصادر الأزمات في الأسواق المالية

أشار العديد من الاقتصاديين إلى أهم مصادر أو المسببات الأزمات في الأسواق المالية خاصة وفي الاقتصاد بصورة عامة ، فقد أشار Fredric s.Mishkin إلى بعض هذه العوامل وهي كما سنرى تركز على الجوانب النقدية و المصرفية و طبقا لرأي هذه الكاتب فهناك خمسة عوامل مسببة للازمة[2]

1 . الزيادة في أسعار الفائدة وما تسببه من انخفاض الاستثمارات وبالتالي انخفاض مستوى النشاط الاقتصادي

2 . انخفاض أسعار الأسهم ، حيث إن هذا الانخفاض يؤدي إلى انخفاض صافي ثروة الشركات الأمر الذي يقلل من رغبة المقرضين في تقديم أموالهم وذلك لآن صافي ثروة الشركات يلعب نفس دور أو وظيفة الضمان الإضافي وإذا ما انخفض هذا الضمان فإن المستثمرين سوف يشعرون باطمئنان أقل تجاه الاستثمار.

3 . الانخفاض غير المتوقع في مستوى الأسعار يؤدي الانخفاض غير المتوقع في الأسعار أيضا إلى انخفاض صافي ثروة المشروع وذلك لآن القيمة الحقيقية للديون (المطلوبات) سوف تزداد بينما لا تزداد القيمة الحقيقية لموجودات الشركة والنتيجة ستكون انخفاض القيمة الحقيقة لصافي الثروة.

4 . الزيادة في حالة عدم التأكد أو اللايقين والتي تدفع بالمستثمرين بعيدا عن الاستثمار والنمو الاقتصادي .

5 . الذعر المصرفي Bank panic مما يؤدي إلي إغلاق العديد من المصارف العاملة الآمر الذي يقود إلى سحب المستثمرين لأموالهم وانخفاض الأرصدة النقدية المعدة للاقتراض مما يعرقل من عملية الاستثمار والنمو الاقتصادي.

مما تقدم نستنتج بأن Frederic قد ركز على متغير الاستثمار باعتباره المحدد الأساسي للازمات في الأسواق المالية ،إضافة إلى ذلك قدم هذا الكاتب مخططا يبين فيه تشريح Anatomy للازمات المالية موضح بالشكل (1) .

من جهة أخرى أشار تقرير صندوق النقد الدولي الصادر في 1998 إلى أن عدم الاستقرار الاقتصادي يعتبر من أهم العوامل التي تقف وراء الأزمات المالية ، ففي العديد من الحالات تؤدي السياسات المالية والنقدية التوسعية إلى ثورة في عملية الاقتراض مؤدية إلى زيادة في تراكم الدين وكذلك الإفراط في الاستثمار في الموجودات الحقيقية مؤدية بأسعار الأسهم والعقارات إلى مستويات غير مستقرة . وعندما تبدأ السياسات الاقتصادية في احتواء التضخم ومعالجة العجز في ميزان المدفوعات سيؤدي ذلك إلى انخفاض أو تباطؤ في النشاط الاقتصادي، إضافة إلى مصاعب في تسديد وخدمة الديون التي تهدد المصارف بالإفلاس وخلق حالة من الذعر المالي Financial panic ، وقد وجد أن عدم الاستقرار الاقتصادي لعب دورا مهما في نشوء الأزمات والاضطرابات في القطاع المالي في بلدان أمريكا اللاتينية إضافة إلى أسواق مالية ناشئة في العديد من البلدان، إضافة إلى ذلك فإن عدم الاستقرار الاقتصادي من أهم العوامل التي تقف وراء الأزمات المصرفية التي شهدتها الدول الصناعية في فترة ما بعد الحرب .

من جهة أخرى تلعب الظروف العالمية دورا في الأزمات الاقتصادية ومنها أزمات الأسواق المالية وخاصة الأسواق الناشئة ، والملاحظ أن هناك تحولا في معدلات التبادل التجاري وفي أسعار الفائدة العالمية وكذلك انخفاض غير متوقع في أسعار الصادرات .

فالتغيرات في أسعار الفائدة في الدول الصناعية لها أهمية متزايدة بالنسبة لأسواق المال الناشئة في جميع أنحاء العالم ، وهي تعكس بذلك التكامل المتزايد بين الأسواق المالية والمتقدمة والناشئة ، وعولمة الاستثمار ، فانخفاض أسعار الفائدة في الدول الصناعية سبب تدفقا كبيرا في رؤوس الأموال باتجاه الدول الناشئة حيث يبحث المستثمرون الأجانب دائما على الربح الأعلى المقترن بدرجة أمان جيدة .

Anatomy Of Financial Crisis

« تشريح » هيكل الأزمة المالية

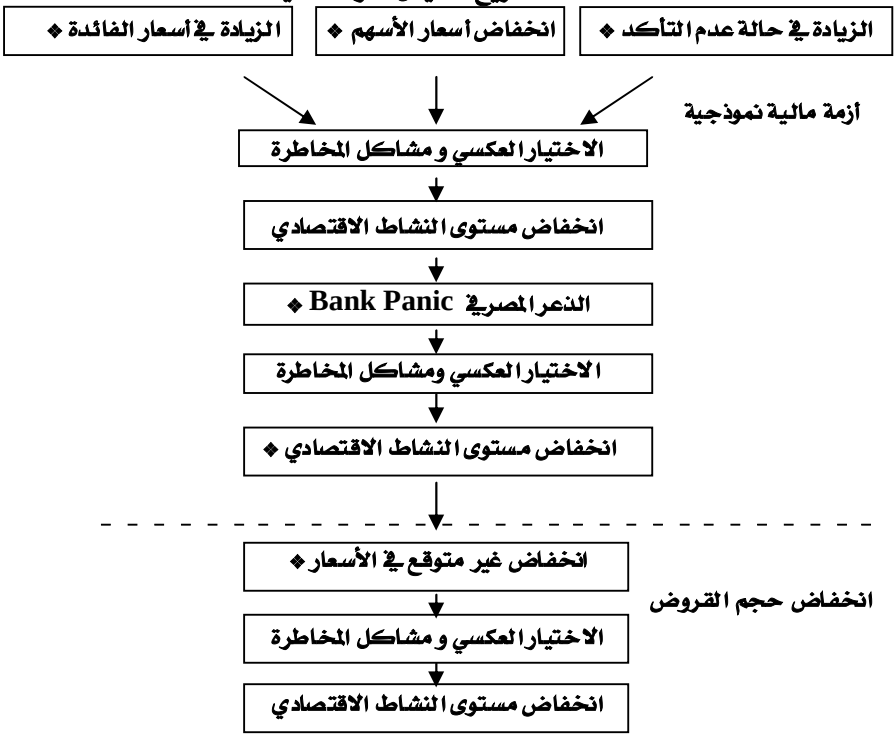

◆العوامل المسببة للأزمة

المصدر : Frederic s. Mishkin، Op . Cit، p197

شكل رقم (1)

وبالمقابل فإن ارتفاع أسعار الفائدة في الدول الصناعية من شأنه أن يكبح تدفق التمويل الخارجي صوب هذه الأسواق الناشئة وبالتالي ترتفع كلفة الاقتراض من المصارف المحلية مما يشكل عائقا أمام الاستثمار في هذه البلدان .

إلى جانب ذلك ، فإن مكونات تدفقات رأس المال الأجنبي تلعب دورا مهما في العديد من أزمات الأسواق المالية وهذا ما حصل في أزمة جنوب شرق آسيا ،فمن الأسباب التي كانت تقف وراء الأزمة الآسيوية وكذلك الأزمة المالية في المكسيك الاعتماد على القروض قصيرة الأجل" أو ما تسمى بالأموال الساخنة " لمعالجة الخلل في الحساب الجاري من ميزان المدفوعات حيث إن

من طبيعة هذه الأموال تحركها السريع والذي من شأنه . وهذا ما حصل فعلا . أن يولد اضطرابات داخل هذه الأسواق ، في حين أن الاستثمار الأجنبي المباشر الطويل الأجل يعتبر طريقة أكثر أمانا واستقرار لتمويل المشروعات الإنتاجية والتنمية الاقتصادية بصورة عامة حيث إن القروض القصيرة الأجل غالبا ما تتجه لتمويل الاستهلاك بدلا من الإنتاج .

ثالثا : منهجية التنبؤ بأزمات الأسواق المالية :

استخدام الاقتصاديون نوعين من المناهج التطبيقية في محاولاتهم للتنبؤ بالأزمات وذلك من خلال تحديد ودراسة سلوك بعض المتغيرات السابقة للأحداث أو ما تسمى بالمتغيرات القيادية Leading Indicators .

1ـ المنهج الأول : حاول العديد من الاقتصاديين تحديد مجموعة من المؤشرات القيادية ومقارنة سلوك هذه المتغيرات قبل حدوث الأزمة بسلوكها خلال الأوقات العادية أو غير المضطربة Tranquil Times [4] وحسب هذا المنهج يمكن الاعتماد على المتغير واستخدامه كمؤشر قيادي إذا ما أظهر سلوكا شاذا قبل حدوث الأزمة وحاول الاقتصاديون تحقيق نوع من التوازن بين تخفيض احتمالية عدم قدرة المتغير على التنبؤ بالأزمة وتخفيض احتمالية إعطاء هذا المتغير لإشارات خاطئة حول حدوث الأزمة .

وخلاصة هذا المنهج هو تحديد مجموعة من المتغيرات الاقتصادية التي تأخذ سلوكا شاذا قبل حدوث الأزمة وبالتالي استخدامها لغرض التنبؤ ومن ميزة هذا المنهج بساطة تطبيقه ولا يتضمن نماذج قياسية محددة ولكن المشكلة التي تظهر هنا هي تحديد التوليفة المناسبة من هذه المتغيرات .

وفي الحقيقة هناك العديد من المتغيرات المحتملة التي يمكن استخدامها كمؤشرات لحدوث الأزمة ولكن قبل هذا على الباحث والمحلل الاقتصادي أولا فهم أسباب الأزمة ، فإذا كان يعتقد بأن أزمة العملة مثلا هي نتيجة لمشاكل تتعلق بالقطاع المالي بدرجة أساسية فيمكنه استخدام المؤشرات التالية كمتغيرات قيادية : العجز المالي ، الإنفاق الحكومي ، الائتمان المقدم إلى القطاع العام من قبل الجهاز المصرفي [5] .

أما إذا كان السبب يكمن في أداء الجهاز المصرفي بمكن عندئذ استخدام المؤشرات التالية للتنبؤ بالأزمة : نمو الائتمان المقدم للقطاع الخاص، درجة التحرر المالي، مستوى المديونية الخارجية للقطاع المصرفي من القروض القصيرة الأجل .

ويمكن استخدام متغيرات حقيقة للتنبؤ مثل نمو الناتج المحلي ، معدل البطالة ، بل وحتى التطورات السياسية والاجتماعية .

2 . **المنهج الثاني** : وهو المنهج الذي يستخدم النماذج القياسية ويتضمن التحديد المباشر لاحتمالية حدوث الأزمة وتحديد المتغيرات التي تساعدنا إحصائيا في تطوير قدرتنا على التنبؤ ، إن ميزة هذا المنهج تتمثل في القدرة على إجراء تقييم للعديد من المتغيرات بنفس الوقت واختبار المعنوية الإحصائية لها لحساب احتمالية حدوث الأزمة في وقت محدد ، لقد تم تطبيق هذا المنهج باستخدام البيانات السنوية ولغرض تطوير هذا المنهج فمن الأفضل استخدام البيانات الفصلية أو الشهرية لعمل تصفية أو غربلة أدق للمتغيرات الاقتصادية التي تصلح لاستخدامها كمؤشرات قيادية للتنبؤ بالأزمة، ولكن في هذه الحالة سيصبح تطبيق هذا المنهج في الأسواق الناشئة صعبا ومعقدا لعدم توفر الشفافية في البيانات الاقتصادية المتعلقة سواء بالسوق أو الاقتصاد العام .

رابعا: الدراسات الرائدة في مجال التنبؤ بأزمات الأسواق المالية :

سنحاول في الجزء الأول من هذه الفقرة أن نستعرض أهم الدراسات الرائدة في مجال التنبؤ بالأزمات في الأسواق المالية وخاصة أزمات العملة على أن نتطرق في الجزء الثاني لبعض الأفكار التي وردت حول أسواق الأسهم .

ترجع الدراسات الرائدة في مجال بناء نماذج بأزمات العملة في الأسواق المالية إلى عام 1996، أي بمعنى أن الجهود التي بذلت في هذا المجال ما زالت حديثة العهد ولكنها بالتأكيد ستفتح أفاقا واسعة أمام بحوث أخرى في هذا المجال وسنحاول إعطاء فكرة عن كل من هذه النماذج الثلاثة .

(1) نموذج : Kaminsky ,Lizondo and Reinhart (KLR)1998 منهج الإشارات .

تحدث الأزمات الخاصة بالعملة ، وفق النموذج ، عندما يتجاوز المعدل الموزون للنسبة المئوية للتخفيض الشهري في سعر الصرف Weighted average of monthly percentage depreciation والنسبة المئوية الانخفاض الشهري في الاحتياطيات متوسطها بأكثر من ثلاثة انحرافات معيارية [6] . ويقترح هذا النموذج دراسة مجموعة من المؤشرات (المتغيرات) التي تميل إلى إظهار سلوك شاذ قبل حدوث الأزمة بمدة تقارب 24 شهرا ، وبالفعل فقد اختار الباحثون 15 مؤشرا بالاعتماد على النظرية الاقتصادية ومدى توفر البيانات الشهرية لهذه المتغيرات ، هي [7] :

1- الاحتياطيات الدولية (دولار أمريكي).
2- حجم الواردات (دولار أمريكي) .
3- حجم الصادرات (دولار أمريكي).
4- معدلات التبادل التجاري .
5- الانحرافات في أسعار الصرف .
6- الفرق ما بين أسعار الفائدة على الودائع المحلية و الأجنبية .
7- عرض النقد (M1)
8- المضاعفات النقدية (M2).
9- نسبة الائتمان المحلي / CDP .
10- أسعار الفائدة الحقيقية على الودائع .
11- نسبة الاقتراض (الأسمى) إلى حجم الودائع .
12- حجم الودائع لدى المصارف التجارية .
13- نسبة النقود broad money إلى إجمالي الاحتياطيات الدولية .
14- مؤشر الإنتاج (الرقم القياسي).
15- مؤشر أسعار الأسهم (الرقم القياسي).

(2) نموذج : Frankel &Rose (1996)

لتقرير احتمال حدوث الأزمة .قام الباحثان ، في إطار هذا النموذج ،بعملية تقرير لاحتمال حدوث انهيار في العملة وذلك باستخدام بيانات سنوية لـ 100 بلد نام للفترة 1971 – 1992 ، إلا أن استخدام البيانات السنوية من شأنه أن يقيد إمكانية تطبيقه كنظام إنذار مبكر Early Warning

System ولكنه بالمقابل يسمح بتحليل العديد من المتغيرات مثل مكونات الدين الخارجي.

لقد اختبر F& R الفرضية التالية " إن هناك سمة معينة لتدفقات رأس المال نحو الداخل ترتبط ارتباطا طرديا مع حدوث الأزمة "

ومن هذه السمات : [8]

1- تكون حصة الاستثمار الأجنبي المباشر قليلة مقارنة بتدفقات رأس المال نحو الداخل .

2- حصة الديون التي تمتاز بامتيازات معينة (أسعار فائدة منخفضة مثلا) من بنوك التنمية تكون منخفضة .

3- حصة الدين الحكومي والقروض قصيرة الأجل وقروض البنوك التجارية تكون كبيرة .

من جهة أخرى أورد f & r مفهومهما للازمة أو انهيار العملة بأنه الانخفاض في سعر الصرف الأسمى بنسبة 25٪ على الأقل وأن يتجاوز الانخفاض هذا التغيير في سعر الصرف مقارنة بالسنة الماضية بنسبة 10٪ على الأقل .

وطبقا لنموذج f & r يزداد احتمال حدوث الأزمة عندما [9] :

1- تكون معدلات الفائدة الأجنبية عالية .
2- نمو مرتفع في الائتمان المرتفع .
3- تقييم سعر الصرف بأعلى من قيمته وبنسبة كبيرة مقارنة بالمعدل المتوسط .
4- تكون نسبة العجز في الحساب الجاري من Ğ d p كبيرة
5- تكون القروض الخارجية التي تتمتع ببعض الامتيازات القليلة .
6- تكون حصة الاستثمار الأجنبي المباشر قليلة نسبة إلى حجم الدين الخارجي .

(3) نموذج : (STV) (1996) sachs ,Tornell and Velasco "محددات حجم الأزمة "

كان هدف هذا النموذج دراسة تأثير الأزمة المالية في المكسيك عام 1994 على باقي الأسواق الناشئة عام 1995، وقد حلل الباحثون محددات حجم الأزمة في العملة لعشرين بلدا عام 1995 .

إلا أن هذا النموذج ليس باستطاعته أن يلقي الضوء على توقيت الأزمة ولكن من ذلك يمكنه أن يجيب على تساؤل مفاده :أي من البلدان أكثر احتمالا لآن يعاني من الأزمات في حالة حدوث أي تغير في البيئة الاقتصادية الدولية ؟و الحقيقة أن هذا المنهج يمكن أن يثير بعض الملاحظات لعدة أسباب منها [10] :

1- إن عملية التنبؤ بوقت حدوث الأزمة أصعب بكثير من دراسة تأثير انتقال الأزمة إلى الأسواق المالية المختلفة .

2- إن محددات الأزمة المالية يمكن أن تتغير عبر الزمن أو لا ومن بلد لآخر ثانيا .

ومع ذلك، فإن هذا النموذج لم يصمم أصلا للتنبؤ بالأزمات في المستقبل ولكن لتفسير ما حصل عام 1995.

والذي يمكن أن يحدث في أوقات أخرى كما حصل عام1997.

لقد حدد نموذج (STV) مؤشر الأزمة بأنه المجموع الموزون للانخفاض النسبي في الاحتياطات إضافة إلى الانخفاض النسبي في سعر الصرف من شهر الحرث عام 1994 وحتى شهر الطير 1995، وأكد الباحثون بأن البلدان التي تعرضت للعديد من الصدمات كانت تتسم ببعض الصفات منها:

أ. نظام مصرفي ضعيف، ويمثل هذا الضعف المتغير L B الذي يعبر عن نمو الائتمان للقطاع الخاص من 1990 ولغاية 1994

ب. ندما يكون سعر الصرف مقوما تقييما عاليا R E R ووجد الباحثون أن هذه العوامل تهم البلدان ذات الاحتياطيات المنخفضة D L R فقط والتي تقاس بنسبة الاحتياطيات /M2 في ربع السنة الذي تكون فيه هذه النسبة أقل ما يمكن

ج- أساسيات ضعيفة Weak fundamentals والتي تعني وجود R E R في ثلاثة أرباع السنة أو L B أي بمعنى أن البلد يعاني من نمو الائتمان للقطاع الخاص بدرجة ملحوظة في ثلاثة أرباع من السنة (أي معظم السنة) وكذلك تقييم سعر الصرف بأعلى من قيمته في معظم السنة .

ومن خلال الاختبارات القياسية التي أجراها الباحثون والتي تمثلها معادلة الانحدار التالية [11] :

RER.DLR I ND =B1+B2RER +B3LB+B4
+B5LB.DLR+B6RER.DWF+B7LB.DWF+U1

توصل الباحثون إلى عدة استنتاجات أهمها [12]:

1 . إن تأثير RER سالب بالنسبة للبلدان ذات الاحتياطيات المنخفضة والتي تعاني من أساسيات ضعيفة أي أن مجموع

B2+B4+B6 يكون سالبا .

2 .أن تأثير L B موجب لنفس المجموعة من البلدان (أي أن مجموع B3+B5+B7 موجب) .

3 . القوة التفسيرية للنموذج R2 = 0.69 وهذا يشير إلى أن النموذج يفس69٪ من التغير الحاصل في مؤشر الأزمة IND وهي نسبة مقبولة في مثل هذه النماذج .

مما تقدم نلاحظ ، أنه بالرغم من اختلاف النماذج الثلاثة في طريقة التحلل أو النتائج إلا أنها اتفقت على أن احتمال حدوث الأزمة (أزمة العملة) في الأسواق المالية يزداد عندما :

1- يكون معدل نمو الائتمان المحلي عاليا .

2- تقييم سعر الصرف تقييما مرتفعا مقارنة بالاتجاه العام .

3- تكون نسبة M2 /الاحتياطيات عالية .

4- يحصل عجز كبير في الحساب الجاري .

خامسا : الفرضيات الاقتصادية الخاصة بالتنبؤ بأزمات أسواق الأسهم .

يشير الأدب الاقتصادي إلى العديد من الآراء والفرضيات الاقتصادية التي قدمت حول أسواق الأسهم والانخفاض الذي يمكن أن يحصل لأسعار الأسهم مسببة في ذلك ، حدوث أزمة في هذه الأسواق يمكن أن تنتقل تأثيراتها إلى الأسواق الأخرى .

وكان من أبرز الاقتصاديين الذين حاولوا التنبؤ بانخفاض أسعار الأسهم وحدوث الأزمة الاقتصادية الأمريكي Berly W.Sprinkel الذي أشار في مؤلفه الأول "النقود وأسعار الأسهم" عام 1971 وكذلك في أسواق الأسهم والمعبر عنها في انخفاض شديد في الأسعار مسببة الانخفاض في عرض النقد ، وأن الفترة الزمنية التي تفصل ما بين انخفاض السيولة في الاقتصاد وانخفاض أسعار الأسهم تصل إلى 15شهرا [13] .

أما الطريقة التي اعتمدها W.Sprinkel في التوصل إلى هذه النتيجة فكانت التحليل البياني ولم يستخدم طرق القياس الاقتصادي المعروفة لتقديرات العلاقة بين تغيرات عرض النقد وأسعار الأسهم ولعل هذه الناحية كانت إحدى الانتقادات التي وجهت إليه من قبل بعض الاقتصاديين .

من جهة أخرى ، حاول كل من Homa &JaFFe التنبؤ بالتحركات الرئيسية لمستوى أسعار الأسهم ، وهي محاولة لتطوير المنهج الذي جاء به (Sprinkel) حيث استخدم الباحثان معادلة انحدار لمستوى أسعار الأسهم على المستوى الجاري لعرض النقد وعلى المعدلات المتباطئة زمنيا " فصل واحد " ذلك بالاعتماد على البيانات الفعلية [14] .

وحصل H& J على معامل تحديد عالي القيمة (R2 =0.97) والذي نجم ،حسب رأي (Rozeff) ، عن تحرك كل من أسعار الآسهم وعرض النقد باتجاهات مشتركة خلال مدة البحث [15] إضافة إلى ذلك ، فإن النموذج الخاص بـ (H&J) كان يعاني من مشكلة الارتباط الذاتي [16] (Autocorrelation) .

يعتمد على قدرة المستثمرين في التنبؤ بمعدلات نمو عرض النقد . وقد استخدم (H &J) بالفعل نموذجا تنبؤيا خاصا بنمو عرض النقد اشتمل على

العديد من المتغيرات المستقلة ، مثل الاستخدام ، ميزان المدفوعات ، الرقم القياسي للأسعار والمعدل المتباطئ لنمو عرض النقد [17] .

من جهة أخرى، أشار persons إلى وجود علاقة مابين تغيرات أسعار الأسهم، حيث توصل الباحث إلى إمكانية التنبؤ بانخفاض أسعار الأسهم من خلال ملاحظة أسعار الفائدة في السوق وقد حدد الباحث باستخدام معامل الارتباط بأن انخفاض أسعار الأسهم يصل بعد ستة أشهر في الارتفاع الكبير الذي يصل في أسعار الفائدة [18] .

الخلاصة :

من خلال العرض السابق لاحظنا أن عملية التنبؤ بأزمات الأسواق المالية بدأت تقلق العديد من الاقتصاديين لما يمكن أن تسببه من آثار اقتصادية واجتماعية و سياسية كبيرة ورغم أن بعض هذه الأفكار التي ربطت بين التغيرات الحاصلة

في أحد المتغيرات الاقتصادية و أسعار البورصات تعود إلى بدايات هذا القرن إلا الدراسات الحديثة التي أشرنا لها والتي تناولت محاولة التنبؤ بأزمات العملة قد أخذت منحا جديا أكثر من السابق لتعدد الأزمات التي حصلت في الفترة الأخيرة وتكرارها من فترة إلى أخرى ، ولخطورتها الكامنة في سهولة انتقالها بسرعة إلي الأسواق الأخرى مثل النار في الهشيم، ولكن مع ذلك، فالدراسات التي ذكرناها لم تحقق نجاحا كبيرا في التنبؤ بأزمات السوق المالية ومازالت تشكل محاولات جادة في مشروع لم يكتمل وبالتالي لا يمكننا الحديث عن نظرية أو نموذج حاسم في هذا المجال، ولكن من جهة أخرى ساعدت هذه النماذج وكل المحاولات التي جرت قبلها على تطوير أدواتنا وقدراتنا بخصوص التنبؤ بالأزمات المالية ، وقد تشهد الفترة القادمة العديد من هذه المحاولات سواء في إيجاد أفضل المتغيرات التي يمكن استخدامها كمتغيرات استرشادية للتنبؤ بالأزمات أو في ناحية الطرق القياسية المستخدمة ، لذلك فإن كل تطور وتقدم يحصل في فروع العلوم الأخرى وخاصة الإحصائية سينعكس بشكل إيجابي على الجهود المستقبلية في هذا المجال

إن النماذج التي أوردناها صممت بالأساس للتنبؤ بأزمات الأسواق المالية المتقدمة لذلك نعتقد أن فائدة هذه النماذج ستكون محدودة بالنسبة لآسواقنا المالية العربية وذلك لتعدد المؤشرات الاقتصادية المستخدمة في هذه النماذج والتي لا تتوفر عنها بيانات دقيقة ومستمرة في أسواقنا العربية إضافة إلى اختلاف البيئة المادية والفارق في تطور المؤسسات المالية ، ومع ذلك فإن النماذج التي استعرضناها يمكن أن تفيدنا في إقامة وحتى التفكير على الأقل، في إنشاء "نظام إنذار مبكر " لأسواقنا العربية واعتماد المؤشرات التي يمكن أن تلعب دورا استرشاديا في التنبؤ بالأزمات المالية من واقع التجارب السابقة التي مرت بها الأسواق ، أي بعبارة أخرى وضع نظام إنذار مبكر "عربي" لأسواقنا المالية يتناسب مع ما يحتاج من مؤشرات اقتصادية وهذا ما نسعى إليه في المستقبل إنشاء الله .

. الهوامش :

1-IMF.World Economic Outlook , May 1998,P 75
2-Frederic S.Misnkin,The Economic oFMoney ,Banking &Financial M arkets , Harper Collins ,Inc , 1992,178
3-IMF ,World Economis outlook ,May 1998 ,p76 .
4- انظر نموذج Frankel &Rose في الفقرة التالية
5- Sunil Sharma , "The Challenge of predicting Economic Crises,"MF, Finance &Development ,June 1999,p41
6-Andrew Berg &Catherine pattilo, "Are Currency Crises predictable ?ATest, IMF, Staff papers .Vol .46 No :2 , June1999,p.41
7- علي قابوسة. مدخل للأسواق المالية. تحت الطبع .
8- محمد صالح جابر .الاستثمار بالأسهم والسندات وتحليل الأوراق المالية . منشورات وزارة الثقافة والإعلام بغداد 1992 ص19.
9- حيدر فاخر عبد الستار. تحليل الاقتصادي لتغيرات أسعار الأسهم. منهج الاقتصاد الكلي. الرياض. دار المريخ 2002ص13.
10- فرج محمد شلوف . أسواق الأوراق المالية واحتمالات نشأتها في ليبيا .واقعه وإمكانات تطويرها. منشورات جمعية الاقتصاديين الليبيين. بنغازي 1993.
11 - أيمن عزت الميداني. أسواق الأوراق المالية في المملكة العربية السعودية. المجلة العربية للإدارة العدد03- 1998.
12 - جلال محمد البنا . دليل الاستثمار في الأوراق المالية والأسهم مكتبة مد بولي . القاهرة .طبعة الأولى. 1997 ص43.
13-Beryl w.sprinkle. money& stock prices new York Richard D.Irwin.1964.p.3.
14-kenneth E. woma & Dwight M .Jaffe. the stuoIy on Money& common stock prices. Journal of financial (Dec. 1971) in Frank k. Reilly,

Investment Analysis& portolio Management(llinois: the Dryden press,1979) ,p25
15-Michael S.Rozeff, ″ Money & Stock prices, "Journal of financial Economics Sept , 1974,p245
16- frank k.Reilly, investment Analysis & portfolio Management.p252
17-Michael, S Rozeff, Op. cit, p245.18-
18- Warren M. persons & Edwin Frickey,"Money Rates& Security prices "the review of Economics & statistics vol.0001926,p.32

اللغة والفكر والمعنى

بقلم
د/ محمد بوعمامه
أستاذ محاضر في اللغويات بقسم اللغة العربية
جامعة باتنة. الجزائر

ملخص :

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح مفهوم " العلامات اللغوية " بوصفها أهم الوسائل في حقل التواصل الإنساني، كما تركز على توضيح العلاقة القائمة بين هذه العلامات اللغوية والفكر، وبين هذا الأخير والمعنى، وذلك من خلال عرض آراء الفلاسفة واللغويين وعلماء النفس .

Résumé

Cette étude a pour but de clarifier le concept de « signes linguistiques » en tant que moyen trés important dans le champ de la communication humaine . Elle a pour but - aussi – de demontrer la relation entre ces signes linguistiques et la pensée,et entre cette dernière et la signification , et cela a travers les idées des philosophes,linguistes et psycholinguistes .

أولا :حاجة الإنسان إلى اللغة

من المعلوم أن الإنسان " أرقى أنواع الحيوان وأوسعها إدراكا وبسعة إدراكه كثرت حاجاته كثرة لا يستطيع الاستقلال بها وحده، فاحتاج إلى التعاون مع بني قومه، لكن هذا التعاون يحتاج إلى تفاهم، وإلى أن يعرف كل من المتعاونين ما عند الآخر، وإلا تعذر العمل، فهو بذلك يحتاج إلى واسطة للتفاهم، وقد منحه الله قوة النطق، وهو أخصر طريق للإفهام وأوفاه بالمراد، فلِم لا يكون به وفاء الحاجة " [1].

غير أن هذه الحاجة كانت في بداية الأمر بسيطة، لم تتعد حدود تلبية المتطلبات التي تقوم عليها حياته من مسكن ومأكل، وملبس، ومن ثم فالألفاظ المستعملة آنذاك كانت على قدر هذه المتطلبات .

لكن، بما أن الإنسان بطبعه يميل إلى المعرفة . ونعني بذلك معرفة ما يحدث في العالم المحيط به . فإنه دائم البحث على استكشاف كل ما من

شأنه أن يساعده على تحسين ظروف معيشته، فراح ينقب في الطبيعة محاولا معرفة أسرارها غير المحدودة فتوسعت . تبعا لذلك . مداركه، وأصبحت حاجته إلى اللغة أكثر من ذي قبل.

ونتيجة لذلك نما معجمه اللغوي نموا كبيرا، نتج عنه تنظيم أموره تنظيما محكما فتكونت . بالتالي . عشائر وقبائل، لكل منها حياتها الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، ثم توسعت تلك العشائر والقبائل لتصبح أمما متعددة .

ولا يخفى علينا . تبعا لهذه المعطيات . ما حدث من تطور عبر الأزمنة المختلفة إلى أن وصل الإنسان إلى ما هو عليه من التمدن والتحضر، فتشعبت مسالك حياته وتعقدت، وصار لزاما عليه مجاراة هذا الزخم الحضاري، فسطر قوانين ودساتير، كما استحدث وسائل وآلات كثيرة، وكان من نتيجة هذا كله أن تطورت لغته وكثرت ألفاظها وتعددت دلالاتها، حتى إننا لنجد للفظة الواحدة عدة معان وللمعنى الواحد عدة ألفاظ .

وهكذا نجد أن حاجة الإنسان إلى اللغة أمر لا مفر منه، وشرط من شروط تواصله مع الآخرين، وأحد المقومات الأساسية لاستمراره وبقائه. ويلاحظ أن نحت تعابير جديدة سببه التطور الذي مر به الإنسان عبر الحقب التاريخية المختلفة، وسبب هذا التطور هو النزوع نحو حياة أفضل، وذلك عن طريق المخترعات العلمية، والنظم الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية . وقد سجل كريستوفر نيروب K.Nyrop هذه الحقيقة في مقدمته العامة لتاريخ نحو اللغة الفرنسية فقال : « سواء أكان السبب اختراعا علميا، أم تطورا صناعيا، أم حركة فكرية، أم طريقة جديدة للإحساس أو الفهم، أم إثراء للمجال الأخلاقي، أم تحويرا في الحياة الاجتماعية، فإن الإبداع اللغوي مطلوب جدا . وكل إنسان يخترع ألفاظا جديدة، سواء أكان عالما أم جاهلا، عاملا أم عاطلا، طبيبا أم فنانا »[2].

يحتاج الإنسان إلى اللغة. كذلك. بوصفها أداة تفكير، وبواسطتها ينقل أفكاره إلى الأفراد الآخرين في جماعته . يحتاج إليها لأنها هي كيانه وشخصيته وهويته، وطبيعي أن لا كيان ولا شخصية ولا هوية دون لغة . فاللغة هي الإنسان، والإنسان هو اللغة . « فلئن اندرج الإنسان في جنس الحيوان تبعا لمقتضيات التصنيف المتدرج في الكائنات، فإنه بالكلام ينفصل عن الحيوانية ليتفرد بنوعه، فيكون الكلام بذلك جوهر الإنسانية في الإنسان . لذلك يلح المنظرون على سمة الانفصال بين الحيوانية والإنسانية ابتداء

من الحدث اللساني . ففي الكلام فضل الإنسان على سائر الحيوان وتكريم الخالق له، وبالكلام يخرج الإنسان من حد البهيمية إلى حد الإنسانية » [3].

غير أن القول بأن الإنسان حيوان ناطق يعد إجحافا في حق هذا الكائن الذي فضله الله على سائر الكائنات الحية الأخرى ليس بالنطق فحسب، إنما بالتفكير وبالشخصية، ومن ثم يحق لنا أن نقول : الإنسان حيوان مفكر وذو شخصية .

ثانيا : حقيقة اللغة :

رأينا قبل قليل أن اللغة وسيلة تعبير، واتصال، وتبادل للخبرات والمعلومات بين الناس، فضلا على أنها أداة تفكير، وتعبير عن الأحاسيس والعواطف، وبمعنى آخر:اللغة هي محور الحياة الاجتماعية والفكرية والوجدانية.

لكن، ما حقيقة اللغة؟ وكيف يمكن لنا أن نربط بين اللغة كأصوات وبين الفكر كتصورات؟ وهل نكتفي بالقول أن اللغة هي تعبير عن الأفكار، أو أنه يجب البحث في مصدر هذه الأفكار وكيفية ترجمتها إلى الواقع بواسطة اللغة ؟

هذه أسئلة لابد أن لها مبرراتها العلمية، وتحتاج إلى الاستدلال بأدلة علمية منطقية، وحجج دامغة تنكشف على إثرها حقيقة اللغة وصلتها بالفكر والمعنى .

يعرف ابن جني اللغة بأنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[4]. وهذا التعريف يشمل . كما نلاحظ . أربع قضايا جوهرية وهي : الأصوات، والوظيفة، والطابع الاجتماعي للغة، والطابع النفسي .

والشيء الملفت للانتباه في تعريف ابن جني للغة هو أنه أدرك بفكره الثاقب أن اللغة «أصوات » قبل أن تكون « كتابة »، وهو رأي ذهب إليه كثير من علماء اللغة المحدثين . فهذا دي سوسير De Saussure يعرف اللغة بأنها نظام من الرموز الصوتية التي تعبر عن الأفكار[5]. ويذهب يسبرسن Jespersen إلى أن اللغة أساسها الفم والأذن وليس القلم والعين [6].

وهناك تعريفات أخرى كثيرة تؤكد على طبيعة اللغة الصوتية ووظيفتها الاجتماعية . فهذا روبنزRobins يعرفها بأنها نظام من الرموز الصوتية الاعتباطية، والقابلة للتغير والتكيف تبعا لظروف المجتمع [7]. ويعرفها كارول Caroll بأنها أصوات عرفية منطوقة تستعمل في التعامل بين الأفراد[8].

في حين يعرفها كل من بلوخ Bloch وترايجر Trager بأنها نظام من الرموز المنطوقة الاعتباطية التي تتعاون بها فئة اجتماعية [9].

نخلص من هذه التعريفات كلها إلى أن اللغة ليست مجرد أصوات تنطق وتسمع، بل هي « وسيلة الإنسان في التعبير، أوجدها لينزل المجهول إلى مرتبة المعلوم، وبها ينتصر على أسرار الكون ومشاكل الحياة اليومية. وباللغة يعبر الإنسان عن التصارع القوي في ذاته، وبها يعبر عن النسيان ومضامين الفكر ويجعل ما وراء الطبيعة موضوعا متناولا، وفكرا متبادلا بين الأجيال » [10].

نعم، هذه هي حقيقة اللغة : صورة صوتية، ووظيفة اجتماعية، وأداة للتعبير عن مضامين الفكر. لكن بماذا نعلل التواصل Communication الذي يتم دون هذه الأداة، أي اللغة كأصوات؟ فهناك الإشارات والرموز الكتابية التي تؤدي الوظيفة نفسها التي تؤديها الأصوات سواء بسواء، ومن ثم يمكننا أن نتساءل مرة أخرى : هل مثل هذه الإشارات والرموز الكتابية داخلة في نطاق اللغة أو هي خارجة عنها؟

فأحيانا يحاول الإنسان أن يعبر عما يجول في ذهنه من أفكار فتعوزه الكلمات، ومن ثم يستعين بالإشارات التي قد تكون باليد، أو بالرأس، أو بالعين. وعلى هذا الأساس تنقل الإشارة " التواصل من ميدان القول إلى التخاطب الصامت، إلى الإيماء. ويحدث الإيماء حوارا دقيقا مبينا قلما يحصل فيه سوء تفاهم بين المتحاورين. الإيماء خطاب بليغ، ولكن بدون كلام ملفوظ [11].

وهذه الإشارات عبارة عن حركات إرادية تصدر عن الإنسان بغرض التعبير عن تصورات فكرية خاصة . فهو يميل إلى الاقتصاد في الجهد العضلي، ويختصر أفكاره في كثير من المناسبات برموز تدل عليها . غير أن اللجوء إلى مثل هذه الإشارات ت في كثير من الحالات. لا يعني عدم وجود الكلمات،بل هناك أسباب أخرى منطقية نوجزها فيما يلي:

1 . **الخوف** : ومعنى ذلك أن الإنسان قد يصادف موقفا لا يستطيع أن ينبس فيه ببنت شفة، ومن ثم يلجأ إلى مثل هذه الإشارات . ولنضرب مثالا على ذلك بجماعة من الأشرار تقوم بسرقة منزل أو محل أو أي شيء آخر. فمن المؤكد أن زعيم العصابة يقوم بمعاينة أولا، ثم يشير إلى أصحابه بإيماءة بالرأس أو بإشارة باليد، أن ادخلوا فلا أحد هنا . هذا بالإضافة إلى الإشارات الدالة على توزيع المهام، بحيث يشير إلى أحدهم أن يدخل من هذا الباب، وإلى الآخر من الباب الذي يليه، وهكذا إلى أن تتم العملية .

2 . **صرف الانتباه** : لنفرض أن شخصا ما يطالع كتابا، أو يحل مسألة رياضية، أو يستمع إلى نبأ هام وبالمقابل هناك شخص آخر يكلمه، فمن المؤكد أن الأول لا يرد على الثاني بالكلمات، بل بإشارات تعني : أمهلني قليلا، أو لا أعي ما تقول، إلى غير ذلك .

3 . **أعراض مرضية** : كأن يكون الإنسان مريضا باللوزتين، أو بالضرس، أو بالتهاب في اللثة أو في اللسان، أو غيرها من الأعراض المرضية التي تحول بينه وبين استعمال الكلمات.

4 . **العجز** : ومعناه أن يكون الإنسان أخرسا، وبالتالي فتواصله مع الآخرين يكون بمثل هذه الإشارات.

5 . **الظرف** : كأن يكون الإنسان في مكان فيه غوغاء، ثم يمر صديق له بجانبه، ففي مثل هذه الحالة تكون التحية بالإشارة ويكون الرد عليها بالمثل.

ولابد من التذكير. هنا . بأن الإشارات لا تعني ما يصدر عن الإنسان من حركات فحسب، بل هناك أيضا « الأضواء الحمراء، والخضراء، وإشارات السير... ورنين الهاتف، والجرس، والتزمير..الخ » [12].

هذا بخصوص الإشارة، أما فيما يخص الكتابة فإننا نجد العلماء قد ذهبوا في ذلك مذاهب شتى . فهذا ابن سينا يضع الكتابة في المرتبة الأخيرة بعد العالم الخارجي بوصفه أساس التصورات الذهنية، وبعد الأصوات التي يعبر بها عن هذه التصورات. يقول : « لما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمجاورة انبعثت إلى اختراع شيء يتوصل به إلى ذلك... فمالت الطبيعة إلى استعمال الصوت ووقفت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتقطيعها معا، ليدل على ما في النفس من أثر. ثم وقع اضطرار ثان إلى إعلام الغائبين من الموجودين في الزمان، أو من المستقبلين إعلاما بتدوين ما علم... فاحتيج إلى ضرب آخر من الإعلام غير النطق فاخترعت أشكال الكتابة » [13].

أما الإمام الغزالي فيضع العلاقة نفسها التي وضعها ابن سينا وهي : العالم الخارجي، ثم التصورات الذهنية، ثم الأصوات، وأخيرا الكتابة . يقول : « اعلم أن المراتب فيما تقصده أربع، واللفظ في المرتبة الثالثة . فإن للشيء وجودا في الأعيان، ثم في الأذهان، ثم في اللفظ، ثم في الكتابة . فالكتابة دالة على اللفظ، واللفظ دال على المعنى الذي في النفس، والذي في النفس هو مثال الموجود في الأعيان » [14].

وأما ابن خلدون. على الرغم من أن الكتابة عنده تعبر عن الأفكار مثل التعبير باللسان سواء بسواء . فإنه يضعها في المرتبة الثانية بعد الأصوات . يقول : « ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهي معرفة الألفاظ ودلالتها على المعاني الذهنية، تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب، ومشافهة اللسان بالخطاب . فلابد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك. فأولا دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخفها، ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة...»[15].

وإذا جئنا إلى علم اللغة الحديث فإننا نجد رائده دي سوسير قد سلك المسلك نفسه الذي رأيناه عند علماء العربية، مع تأكيده على عدم إمكانية الفصل بين الأصوات والرموز الكتابية. يقول: « إن إقصاء الشكل المكتوب يشبه حرمان السابح المبتدئ من حزام النجاة . سيكون من الأفضل استبدال ما هو طبيعي بما هو صناعي، ولكن هذا مستحيل قبل أن ندرس أولا أصوات اللغة، والأصوات معزولة عن رموزها الكتابية ليست إلا مفاهيم مبهمة» [16].

أما كارول Caroll فيرى أن الكتابة شيء ثانوي، وهي تعتمد أساسا على اللغة المنطوقة [17]. وأما فندريس Vendryes فيؤكد على أن النص المكتوب لا يعد تمثيلا دقيقا للكلام [18].

نخلص من هذه الأقوال جميعها إلى أن اللغة أساسها أصوات منطوقة مسموعة،وما هذه الإشارات والرموز الكتابية إلا محاولة اختصار«الأفكار المجردة والعمليات المطولة بما يمكن أن يرمز إليها أو يدل عليها»[19]، ومن ثم فهي خارجة عن نطاق اللغة .

ثالثا : طبيعة الفكر ووظيفته

يعرف الفكر بأنه « احد العمليات أو الوظائف العقلية أو المخية التي تشمل أيضا الذاكرة، والانتباه، والخيال، واللغة » [20] . ويعرف كذلك بأنه « ما يحدث في خبرة الكائن العضوي ...حين يواجه مشكلة أو يتعرف عليها إلى حلها »[21] .

نستنتج من هذين التعريفين أن الفكر عبارة عن نشاط ذهني يقوم به الإنسان بغرض التعبير عن حاجات كامنة في نفسه، أو أشياء طبيعية موجودة في محيطه، أو رغبات خاصة يريد تحقيقها. وفي كل هذه الحالات يقوم الفكر بإثارة قضايا، ثم عقد مقارنات، ثم إصدار أحكام، ليصل في النهاية إلى نتائج.

ونوضح هذا الكلام بالمثال التالي : « لنفرض أن شخصا كان يجلس تحت شجرة تفاح، وأراد أن يقطف ثمرة منها . فلو كانت التفاحة في متناول يده ما وجدت مشكلة، ولو كانت التفاحة بعيدة عن متناوله لظهرت المشكلة، ولو حاول الحصول عليها بعصا أو بسلم يتسلقه لوجد الحل . فما يحدث في عقله حين واجه هذه المشكلة أو حين سعى إلى حلها هو ما يطلق عليه التفكير» [22].

الفكر إذن عمليات عقلية تتميز تميزا واضحا عن الأشياء الطبيعية. فلقد زود الله الإنسان بدماغ « يضمن تلاؤم الفكر مع الظروف في كل لحظة من حياة الإنسان، ويضمن اتصال الفكر بالواقع في غير انقطاع... » [23].

والدماغ هو عضو التفكير، ويتكون من تلافيف مخية تتدرج في نموها مع تدرج النمو الجسمي، وتبلغ أقصى درجات تطورها عند بلوغ الإنسان سن الرشد، وهي المرحلة التي تظهر فيها قدراته العقلية في التعامل مع ظروفه ومشاكله اليومية، وكذا قدراته في التأقلم والتفاعل مع البيئة المحيطة.

ولابد من الإشارة. هنا . إلى أن الدماغ " ليس هو في حد ذاته مصدر الفكر أو عامل حدوثه، بل هو أداة ذلك الحدوث . فطبيعة الفكر لا يعنيها الدماغ في حد ذاته، لأن هذا الأخير عاجز عن أن يوجد أية فكرة، وأن مصدر الفكر هو العالم المحيط بالإنسان، أو بيئته الطبيعية والاجتماعية . وطبيعة الفكر ليست مادية ولكنها نسخة منها أو انطباع عنها، غير أن هذا الانطباع ليس ذا طبيعة فوتوغرافية بل هي صورة ذهنية [24] .

الفكر إذن ليس شيئا ماديا ملموسا، ولا يشغل أي جزء من حيز مادي معين . فهو قدرات ذهنية منظمة تتجه نحو تحقيق أهداف معينة، إنه بمثابة مرآة تعكس انطباعات الفرد حول الأشياء المحسوسة الموجودة في البيئة المحيطة.

رابعا : العلاقة بين الفكر واللغة :

أ . مصدر الأفكار :

طبيعي أن الله لم يفضل الإنسان على الكائنات الحية الأخرى باللغة فحسب، إنما ميزه كذلك بدماغ تصدر عنه نشاطات ذهنية قصد الاتصال المباشر بالواقع، أعني واقع العالم الخارجي الذي يمثل التصورات التي ترتسم في الذهن مباشرة عند الاتصال به.

ومما يجب معرفته هو أن عناصر العالم الخارجي غير محدودة، ومن ثم فإن الإنسان الذي أودع الله فيه هذا الجهاز (أي الدماغ) قادر على ترجمة هذه

العناصر بواسطة قدرات ذهنية تجعل منها (أي من هذه العناصر) عالما ماديا منعكسا في الفكر والوعي . وقد أشار ابن سينا هذه القضية بقوله : « إن الإنسان قد أوتي قوة حسية ترتسم فيها صور الأمور الخارجية وتتأدى عنها إلى النفس، فترتسم فيها ارتساما ثانيا ثابتا وإن غاب عن الحس، ثم ربما ارتسم بعد ذلك أمور على نحو ما أداه الحس. فإما أن تكون هي المرتسمات في الحس ولكنها انقلبت عن هيئاتها المحسوسة إلى التجريد، أو تكون ارتسمت من جنبة أخرى » [25].

نعم، إن أفكار الإنسان، أو بعبارة أدق التصورات الذهنية، أساسها المحيط الخارجي، أو البيئة الطبيعية والاجتماعية التي يتفاعل الإنسان معها . فمعلوم أن « النشاط الدماغي هو النشاط النفسي للحركات وحياة الفكر تصفو على حياة الدماغ،لأن حياة الفكر نقطة اتصال الفكر بالمادة . إن حياة الفكر هي التمركز حول الفعل الذي ينبغي تحقيقه،فهي إذن الاتصال بالأشياء عن طريق الدماغ » [26].

فعلا، المادة هي مصدر الفكر، وهذه المادة قد تكون طبيعية، وقد تكون من صنع الإنسان . فأما المادة الطبيعية فيمثلها المحيط الخارجي بوصفه مرتعا خصبا للفكر، ومادة للنشاط الإبداعي لدى الإنسان، وأما التي هي من صنع الإنسان فتتمثل في تلك الآلات البدائية والمخترعات العلمية الحديثة.

فالإنسان درج منذ القديم على التفكير في استعمال آلات تساعده على مجابهة الصعاب التي تواجهه في حياته اليومية، وأعطى لكل أداة إسما ومفهوما وغرضا، ثم استعمل هذه الأدوات في حرف وصنائع متعددة . وقد قيل « إن الإنسان هو المتمدن بالطبع، والتوحش دأب السباع، ولهذا المعنى توزعت الصنائع، وانقسمت الحرف على الخلق، فكل واحد قصر وقته على حرفة يشتغل بها، لأن كل واحد من الخلق لا يمكنه أن يقوم بجملة مقاصده، فحينئذ لا يخلو من أن يكون محال حاجاته حاضرة عنده أو غائبة بعيدة عنه، فإن كانت حاضرة بين يديه أمكنه الإشارة إليها، وإن كانت غائبة فلا بد له من أن يدل على محل حاجاته وعل مقصوده وغرضه، فوضعوا الكلام دلالة، ووجدوا اللسان أسرع الأعضاء حركة وقبولا للترداد » [27].

المادة إذن هي أول ما استرعى فكر الإنسان، وهي أول واسطة بينه وبين العالم، وبينه وبين المجتمع، وبواسطتها ارتقى درجات سلم التطور . إنها نتاج فكري، بل هي الفكر ذاته، والبيئات الغنية بالأشياء المصنوعة والمكتشفة يكون فيها مستوى الفكر على درجة عالية من الرقي .

غير أن اتصال الفكر بالمادة يحتاج إلى واسطة، فلِمَ لا تكون هذه الواسطة هي اللغة ؟ إن « كل لغة إنما هي أدوات حضرية . فلقد استعمل الجد الأول للإنسان العصا في الصيد، وقلد صوت الحيوان، ثم تلفظ بمسميات للعصا، وللصيد، وللطير . فالحياة تدور حول إشباع الحاجات، وهذا الإشباع يدفع إلى العمل، والعمل إلى اكتشاف الآلات أو إلى صنعها ثم ترقيتها . هكذا تكثر الاتصالات المجتمعية حول أعمال مشتركة، فتتجلى مختلف التعابير من إشارات ولغات ورموز » [28].

نخلص من كل هذا إلى أن المادة هي مصدر الفكر، وسبب وجود العلامات اللغوية . واللغة هي الأداة التي يتم بها التفكير، فهذا الأخير لا يمكن أن يتم دون لغة، واللغة لا يمكن أن تكون بمعزل عن الفكر، ومن ثم فالعلاقة بينهما هي علاقة تكاملية، ويمكن اعتبارهما بمثابة وجهين لعملية بسيكولوجية واحدة .

ب. كيفية حدوث العلاقة بين الفكر واللغة :

رأينا قبل قليل أنه لا يمكن أن تكون هناك أفكار مجردة قائمة بذاتها، بل لابد من أداة تترجم بواسطتها هذه الأفكار، وكانت هذه الأداة هي اللغة، ومن ثم فإن هناك ترابطا قويا بين الفكر واللغة، وعلاقة وطيدة بينهما . فكيف تحدث هذه العلاقة يا ترى ؟

يقول السيوطي : « اختلف هل الألفاظ موضوعة بإزاء الصور الذهنية . أي الصورة التي تصورها الواضع في ذهنه عند إرادة الوضع . أو بإزاء الماهيات الخارجية؟ فذهب الشيخ أبو إسحاق الشيرازي إلى الثاني وهو المختار، وذهب الإمام فخر الدين وأتباعه إلى الأول، واستدلوا عليه بأن اللفظ يتغير بحسب تغير الصورة في الذهن، فإن من رأى شبحا من بعيد وظنه حجرا أطلق عليه لفظ الحجر، فإذا دنا منه وظنه شجرا أطلق عليه لفظ الشجر، فإذا دنا وظنه فرسا أطلق عليه لفظ الفرس، فإذا تحقق أنه إنسان أطلق عليه لفظ الإنسان، فبان بهذا أن إطلاق الألفاظ دائر مع المعاني الذهنية دون الخارجية، فدل على أن الوضع للمعنى الذهني لا الخارجي » [29].

نفهم من هذا القول أن اللغة تتبع الأفكار وتكون معها جنبا إلى جنب . والمقصود بالأفكار . هنا . التصورات الذهنية التي ترتسم في الذهن في شكل معاني مترابطة . فالإنسان يرى الأشياء مجردة في العالم الخارجي، ثم ترتسم في ذهنه صور وأشكال تتعلق بهذه الأشياء، ثم يعبر عن هذه الصور والأشكال بأصوات لغوية، وبتعبير آخر يقرن بين الصوت والشكل والمعنى .

ونخلص من كل هذا إلى أن العلاقة بين الفكر واللغة تحدث مباشرة عند ارتسام الصورة في الذهن وارتباطها بمعناها . وبمعنى آخر هناك تلازم بين اللغة كأصوات وبين الفكر كتصورات .

خامسا : نظرة العلماء إلى العلاقة بين الفكر واللغة :

للعلماء آراء مختلفة أحيانا ومتناقضة أحيانا أخرى بخصوص العلاقة بين الفكر واللغة، ولا تزال قضية هذه العلاقة مثار جدل كبير بينهم .

فاللغة عند الفلاسفة مثلا لا يمكن فهمها إلا من خلال ارتباطها بالفكر . فهذا الفيلسوف الإنجليزي جون لوك John Locke يرى « أن الكلمات إنما هي علامات حسية على الأفكار، وهذه الأفكار هي معناها المباشر. فاللغة هي وسيلة المواصلات للفكر » [30].

وأما الفيلسوف الأمريكي ألستون Alston فيرى أن اللغة لا يمكن أن تحدث من غير أن تعبر عن أفكار، وأن هذه الأخيرة لا يمكن أن توجد بمعزل عن اللغة. يقول : « ... والأفكار لها وجود غير مستقل عن اللغة كما أن وظيفتها غير مستقلة عن اللغة أيضا . ولو أن كلاً منا أراد أن يحتفظ بأفكاره لاختفت اللغة.فنحن نصدر مجموعة من الدلالات العلنية عن أفكارنا لأننا نحتاج أن نوصل أفكارنا إلى الآخرين، ومن ذلك يكون للتعبير اللغوي معناه » [31].

وأما علماء النفس .وعلى رأسهم بياجيه Piaget ـ فيؤكدون كذلك على تطابق الفكر واللغة، غير أنهم يرون أن كثيرا من الظواهر النفسية لها أثرها الكبير على الظواهر اللغوية . « فالتذكر، والاسترجاع والتخيل، وتداعي المعاني، والإدراك،والانتباه، والحالات الوجدانية المختلفة، وغير ذلك من مسائل علم النفس،هي التي تفسر لنا كيف يتعلم الطفل اللغة كلاما ثم كتابة، وكيف يصوغ الإنسان عباراته ويكون جمله ليعبر عن أفكاره... » [32].

واللغة عند بياجيه تنمو مع نمو السلوك العام للإنسان منذ الطفولة وحتى سن البلوغ . فهي (أي اللغة) ليست « مجرد دليل على نفس الطفل وعقله، بل أنه يعدها من أهم الوظائف الرمزية التي يتعامل بها الإنسان مع محيطه المادي والاجتماعي . وبالرغم من أنه يعطي البنيان العقلي مركز الصدارة بالنسبة للبنيان اللغوي، فإن اللغة في نظره تساعد في تطور الإدراك عند الطفل ... » [33].

وأما بلومفيلد Bloomfield ولفيف آخر من السلوكيين فيرون أن اللغة عبارة عن وحدات صوتية تكيفها البيئة ولا دخل للأفكار فيها . واللغة « لا

تتعدى في رأيهم شكلا من أشكال الحافز والاستجابة للحافز . فمتكلم اللغة يسمع جملة أو يشعر بشعور معين فتحصل عنده استجابة كلامية، من دون أن ترتبط هذه الاستجابة بشكل من أشكال التفكير. فالاستجابة الكلامية مرتبطة بالحافز ولا تتطلب تدخل الأفكار » [34].

وقد ثار جدل كبير بين علماء النفس بخصوص هذه العلاقة إلى أن انتهى أحدهم وهو فيجوتسكي Vigotsky إلى أن هذه القضية مازالت مدار البحث، وكل ما قيل بشأنها لم ينته إلى نتيجة يقينية . [35]

وأما علماء اللغة فقد اختلفوا هم أيضا في نظرتهم إلى هذه العلاقة وتناولهم إياها . فهذا دي سوسير عندما عرف اللغة قال إنها نظام من الرموز التي تعبر عن الأفكار، ويوضح قوة الترابط بين الفكر واللغة بعقد مقارنة فريدة بين اللغة وقطعة من الورق فيقول : « ويمكن مقارنة اللغة بصحيفة من الورق : الفكرة وجه الورقة والصوت خلفها . لا يستطيع المرء تقطيع وجه الورقة من غير أن يقطع خلفها في الوقت ذاته . الشيء نفسه في اللغة فإن المرء لا يستطيع فصل الصوت عن الفكرة ولا الفكرة عن الصوت » [36].

أما اللغوي الأمريكي سابير Sapir فيشير صراحة إلى هذه العلاقة، ويرى أن اللغة تؤثر تأثيرا كبيرا في طريقة تفكيرنا، وهي التي تحديد طريقة تفكير وتصرف أي مجتمع من المجتمعات، بل إن المجتمع لا يستطيع أن يرى العالم إلا من خلال لغته [37].

وأما وورف Whorf فيذهب إلى أن اللغة « ليست وسيلة للتعبير عن الأفكار، بل إنها هي نفسها التي تتشكل تلك الأفكار. ونحن نقسم ما حولنا من العالم بموجب الخطوط التي ترسمها لنا لغتنا، أو كما يقول أحدهم : إن العالم يخلق بواسطة اللغة » [38].

وخلاصة القول فإن العلاقة بين الفكر واللغة ما تزال محل نقاش بين الفلاسفة واللغويين وعلماء النفس . وهي في الحقيقة قضية متشعبة، خصوصا فيما يتعلق بوجود أفكار من غير اللغة، كما هو الشأن في فنون الرسم، والنحت، والموسيقى، وغير ذلك من الفنون والعلوم التي تقوم على رموز غير لغوية.

ومهما يكن من أمر فإننا نرى « أن العلاقة بين الفكر واللغة علاقة تبادلية، لأن كلا منهما يعتمد على الآخر، فنحن لا نستطيع أن نتكلم بما لا نقدر أن نفكر فيه، ولا نستطيع أن نفكر بعيدا عن قدرتنا اللغوية» [39].

سادسا : العلاقة بين الفكر والمعنى :

إن العلاقة بين الفكر والمعنى هي جزء من العلاقة بين الفكر واللغة. فلقد رأينا قبل قليل أن الفكر مرتبط بالبيئة الطبيعية والاجتماعية ارتباطا مباشرا، فهو ينقل الظواهر البيئية ويرسمها على صفحة المخ ومن ثم يعمل الإنسان على فهم معناها بواسطة اللغة التي هي وسيلته الأساسية في تجسيد الفكر، وبالتالي تجسيد المعنى، وهذا الأخير ما هو « إلا ظاهرة لغوية وفكرية في آن واحد . فالصوت المنطوق به دون معنى هو صوت أجوف مبهم وأعجم لا يدخل في حيز اللغة... فالمعنى من هذه الزاوية ظاهرة لغوية لأنه يعبر عن الصورة الذهنية على هيئة تجريد وتعميم تحملها الأصوات والرموز المكتوبة، وهو من هذه الناحية عملية فكرية دون منازع » [40].

ولقد كان للعلماء آراء مختلفة بخصوص العلاقة بين الفكر والمعنى . فعلماء النفس مثلا يفرقون بين المعنى والمدرك الحسي والصورة الذهنية، وسبب ذلك . في نظرهم . أن المدركات الحسية مقيدة بالحالة التي هي عليها في الواقع، أما الفكرة فهي مجردة من هذه القيود . الشيء نفسه يقال على الصورة الذهنية، فهذه الأخيرة . بوصفها فكرة . تختلف عن الأصل من حيث خصائصه العامة، ذلك لأنه لو حاولنا معرفة الفرق بين الفكرة التي تدل عليها الكلمة أو (معنى الكلمة) وبين التصور الذهني، لاتضح أن هذا الأخير لا يمثل إلا جزءا بسيطا من المعنى الموجود في ذهن الفرد، وبمعنى آخر نجد أن التصور الذهني لا يعد ترجمة حقيقية للمعنى . « فتجارب المرء وخبراته الماضية التي ترتبط بكلمة أو جملة سمعها ليست مجرد سلسلة من المدركات الحسية تحضر في ذهنه صورا كما أدركها في الماضي، وإنما تثار في ذهنه معان لهذه الكلمة أو الجملة هي مزيج من كل ماله صلة بهما من تجاربه الماضية...فكلمة « بابا) » مثلا تعني الناحية الوجدانية التي تربط السامع بأبيه من سرور وسعادة، إلخ .. ولكن ندَرَ أن يظهر هذا الوجدان في الصور الذهنية . ولعل هذا يوضح الفرق بين معنى الكلمة والصورة الذهنية التي تثيرها الكلمة » [41].

أما علماء اللغة فنظروا إلى هذه العلاقة من زوايا مختلفة، وكان لهم في ذلك نظريات متعددة نوجزها فيما يلي :

1. النظرية الذهنية : وتفسر المعنى على أنه فكرة ترتبط بالكلمة في ذهن المتكلم أو المستمع.

2 . النظرية السلوكية : وتضع المعنى ليس في الذهن ولكن في طريقة تجاوب المستمع معها.

3 . النظرية التجريدية : وتفسر المعنى على أنه فكرة تجريدية .

. الهوامش والمراجع :

1 ـ الشيخ أحمد رضا : مولد اللغة، دار الرائد العربي، بيروت 1983، ص26

2 - Nyrop (K):Grammaire historique de la langue Française,Paris Picard1899-1930,volume1p3

3 ـ عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب، تونس 1986، ص46.

4 ـ ابن جني : الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر(د.ت)، 33/1

5 ـ انظر: De Saussure:Cours de linguistique générale,ENAG,Reghaia1991,p33

6 ـ انظر: Jespersen(o):Language: its nature,développement and origin,London 1966,p23

7 ـ انظر: Robins(R.H):A short history of language,London1967,pp8- 11

8 ـ انظر: Caroll(J.B):The study of language,Harvard1966,p10

9 ـ انظر: Bloch(B) and Trager(G.L):Outline of linguistics analusisBaltimore1942,PP5-7

10 ـ وليد محمد مراد : تطور الجهود اللغوية في علم اللغة العام، دار الرشيد، دمشق 1986، ص219

11 ـ محمد عزيز الحبابي: تأملات في اللغو واللغة، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1980، ص59ـ60

12 ـ بسام بركه : الإشارة، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع30ـ31، صيف1984، ص 44

13 ـ ابن سينا : الشفاء، تحقيق م.خضيري، القاهرة 1970، ص 1ـ2

14 ـ الغزالي : معيار العلم، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف بالقاهرة 1969، ص 35ـ36

15 ـ ابن خلدون : المقدمة، دار القلم، بيروت 1986، ص535

16 ـ De Saussure : op.cit,p59

17 ـ Caroll(J.B):Language and Thought,London1964,p3

18 ـ أنظر: فندريس : اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، القاهرة 1950، ص404

19 ـ بسام بركه : مرجع سابق، ص44

20 ـ نوري جعفر : اللغة والفكر، مكتبة التومي بالرباط 1971 ، ص98

21 ـ محمد حسن عبد العزيز : مدخل إلى علم اللغة، دار النمر للطباعة، القاهرة 1983، ص84

22 ـ المرجع نفسه والصفحة نفسها.

23 ـ وليد محمد مراد : مرجع سابق، ص222

24 ـ نوري جعفر : مرجع سابق، ص100 ـ 101

25 ـ ابن سينا : مرجع سابق، ص1

26 ـ وليد محمد مراد : مرجع سابق، ص223

27 ـ السيوطي : المزهر في علوم اللغة، شرح وضبط محمد أحمد جاد المولى بك، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي دار التراث بالقاهرة (د.ت)، 1/ 36

28 ـ محمد عزيز الحبابي : مرجع سابق، ص 75ـ76

29 ـ السيوطي : المزهر 42/1

30 ـ أنظر : Malemberg(B): Les nouvelles tendances de linguistique,p.u.f,Paris1972,p19

31 ـ عبده الراجحي : فقه اللغة في الكتب العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1988، ص74

32 ـ المرجع نفسه ص74ـ75، نقلا عن : Alston(W):Philosophy of language,pp22-23

33. رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة، مكتبة الخانجي بالقاهرة 1985، ص 138 ـ 139

34. بسام بركه : اللغة والفكر، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع 18 ـ 19 (شباط ـ آذار 1982) ص 65 ـ 66

35. علي زوين : منهج البحث اللغوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1986، ص 181

36. انظر فيجوتسكي : التفكير واللغة، ترجمة طلعت منصور، مكتبة الأنجلو المصرية، 1976 ص 73 وما بعدها .

37. De Saussure : op.cit,p181

38. انظر: Sapir(E):An introduction to the study of language york1991,p207

39. نايف خرما : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، الكويت 1979، ص217 .

40. كريم زكي حسام الدين : أصول تراثية في علم اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية 1985، ص99.

41. نوري جعفر : مرجع سابق، ص 127.

سؤال الهوية
في خطاب المرويات الشفاهية

بقلم
أ/ أحمد زغب
أستاذ مساعد مكلف بالدروس بمعهد الآداب واللغات
المركز الجامعي بالوادي

الملخص :

محاولة لتوليد الدلالة العميقة للخطاب الشعري الشفاهي انطلاقا من نص شفاهي من الشعر البدوي، حيث تبدو المفارقة واضحة بين الذات (الشاعر والمجتمع الذي يمثله) ما يمثل الثقافي، والموضوع الذي يمثل الطبيعي . لم يعد المسار الصوري يهدف إلى الاتصال بالموضوع على محور الإرادة لكنه بالإضافة إلى ذلك يعبر عن التماهي الكامل بين الطبيعي والثقافي الأمر الذي يؤنسن الطبيعي ويثقفه

Résumé

Essai du génératif de la signification profonde du discours poétique orale à partir d'un texte du poème orale nomade , où le paradoxe se voit claire entre le soi (poète , société represenée) qui représente le culturel ,et le sujet qui représente le naturel.

Le parcours des images ne vise plus à la conjonction du soi au sujet sur l'axe de la volonté , mais ce parcours représente l'identification totale réciproque entre le culturel et le naturel ce qui humanise et culturise la nature .

تمهيد :

إن مسألة الهوية مسألة اجتماعية في المقام الأول، فالإنسان منتم بطبعه إلى مجتمعه، لذلك فإن هذه المسألة تثار فيما يتعلق بهوية الشخص في الإطار الاجتماعي فيشعر بالهوية مع أشخاص المجتمع الذي يعيش وينمو فيه، وهو ما يسميه جورج ميد اندماج الذات في الغير [1] وهذا ما يعبر عنه بالانتماء، ويعني انتماء الفرد إلى مجتمع معين، له سمات خاصة تميزه عن

غيره من المجتمعات في عاداته وتقاليده وثقافته وغير ذلك من معالم الخلاف الكثيرة بين المجتمعات .

فمتى ولماذا وكيف تثار مسألة الهوية ؟ مادام الإنسان كائنا اجتماعيا، ينتمي إلى مجتمعه ويمد جذوره فيه وهو جزء من هذا الكل فلا يخطر بباله أن يتساءل من أنا ومن نحن مادامت الحياة تسير مسيرتها المعتادة وتكرر دورتها المألوفة، وقد تمضي أجيال دون أن تتساءل عن الهوية [2] .

يقول الدكتور النبهان إن الانشغال بالهوية يكاد يصاحب كل صحوة قومية أو صدمة أو تصدع عميق يؤدي إلى الخوف من التلاشي والاندثار مثلما حدث ذلك لمجتمعنا العربي في مواقف تاريخية متفاوتة، ومثلما يحدث اليوم في عصر العولمة [3] .

غير أن السؤال . في ظروف الأزمات الكبرى التي تتعرض لها المجتمعات . هل يكفي للتعبير عن الهوية، هل يكفي لمواكبة التطور الاجتماعي وتلبية الحاجات الثقافية المتزايدة في ظل صدام عنيف مع ثقافة الآخر؟

وهل الخطاب الأدبي الرسمي المؤسساتي أقدر على مواكبة هذا التطور ومقاومة ذلك الصدام، هل الثقافة الكتابية المؤسساتية تطرح مسألة الهوية بشكل أعمق من الثقافة الشعبية ؟

سمات الخطاب الشفاهي مقابل الكتابي :

للإجابة عن هذه الإشكالية لابد لنا أن نوضح من البداية بعض السمات العامة للخطاب الشفاهي الذي تعتمده الثقافة الشعبية عموما في مقابل الخطاب الكتابي الرسمي .

يرى كثير من الباحثين في مسألة الشفاهية والكتابية [4] أن الخطاب الشفاهي شديد الاتصال بسياقه الاجتماعي مندمج في الجماعة منسلخ عن ذاتية الفرد، لذا فهو أكثر حيوية وارتباطا بالواقع، بينما الخطاب الكتابي مستقل عن سياقه يعمق مركزية الذات ويميل إلى تجريد الوقائع من سياقها الإنساني والاجتماعي .

ومن ثم يوضع الخطاب الشفاهي في تشاكل مع الجماعي الشعبي بينما يوضع الكتابي في تشاكل مع الفردي الذاتي .

ويرى هؤلاء الدارسون أن المعرفة المكتوبة منفصلة عن ذات الكاتب الذي يكون مجردا منها حياديا إزاءها، أما في التقاليد الشفاهية ، فإن العارف يمتلك المعرفة ويتخذ منها موقفا حميما من ناحية، ويواجه بها غيره من ناحية أخرى [5] وسواء أكانت هذه المواجهة سلبية كالهجاء والتحدي، أم إيجابية كالمديح وإظهار البراعة في الأداء، فإن لهجة المخاصمة تسبغها دائما بلونها الحيوي الفاتح. فلا يمكن تصور مشافهة دون حضور الباث والمتلقي، ولا يمكن تصور مشافهة يحضرها طرفان على الأقل دون انتظار ردود فعل كليهما من الآخر .

وعلى هذا نتصور الخطاب الشفاهي معبرا عن الضمير الجمعي، يدافع عن كيان الجماعة ولا يرى لنفسه وجودا إلا في كنف الجماعة ينطق بلسان حالها ويدافع عن مواقفها دفاعا مستميتا دون النظرة الموضوعية إلى تلك المواقف .كما يصرح بذلك شاعر شفاهي قديم :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد[6]

وعند تلقي الصدمات الكبرى التي تقوض المؤسسات الرسمية، من قبل الموجة العاتية لثقافة الآخر، التي تفرض سلطانها ومؤسساتها الرسمية البديلة، لا تبقى في هذه الحالة إلا أشكال التعبير الشعبية الشفاهية، تمثل الإمكانية الوحيدة التي تستخدمها المجتمعات المجتمع الجزائري مثلا إبان فترة الاحتلال) للتعبير عن واقعه المباشر بصفة عامة، وعن تطور الوعي الجمعي (الوطني مثلا).

إن الخطاب الشفاهي في ظروف من هذا النوع « قدر له أن يكون الوسيلة الوحيدة التي تمتلكها الجماعة الشعبية من اجل إدراك العالم ونقل المعرفة وتوجيه السلوك، وقد استطاع أن يقوم بهذا الدور عن طريق نظام من التجسيدات ذات الطابع الرمزي المستمدة من التراث الجماعي والمعبرة في نفس الوقت عن الواقع النفسي والاجتماعي » [7]

الهوية في الخطاب الشفاهي السردي :

تعبر المسرودات الشفاهية التي تتمثل في الحكايات الشعبية والخرافات والمغازي عن الانتماء إلى قيم الجماعة، وتدافع عنها دفاعا مستميتا إزاء الغازي الأجنبي مجسدة تلك الثنائيات الضدية بين الكفر والإيمان والخير والشر والظلم والعدل و والباطل والحق .... والجنة والنار، فالقيم الإيجابية تعبر عن الهوية والسلبية تعبر عن الآخر أو الغازي الكافر .

وإذا كانت معظم الحكايات والخرافات تمثل رؤية إنسانية عامة وتعبر عن حالات نفسية واجتماعية وثقافية تشترك فيها جميع الشعوب بصورة من الصور، رغم اختلاف البيئات الاجتماعية وتباعد المجتمعات في الزمان والمكان، فالواقع الذي تعبر عنه الحكاية. غالبا .تنعدم فيه النظرة الإقليمية والقومية [8] فإن المغازي والسير كبطولات السيد علي ونحوها تبرز أهم مظاهر وحدة الجماعة الإسلامية إزاء الغازي الأجنبي، فالمغازي تتحدث عن مواجهة تقع بين مسلمين وكفار، وهنا لا تكتفي بالتعبير والإشادة بالعناصر الأساسية للهوية العربية والإسلامية كالإيمان والصدق والممارسات الشعائرية كالصلاة والصوم الخ . والإشادة بالصحابة ومرجعيتهم ومثلهم الأعلى الرسول ﷺ بل أكثر من ذلك تتحدث عن الآخر باعتباره الكافر الذي يسقط عليه كثيرا من المظاهر السلبية التي يشبه المستعمر . والمستمع كما يقول الدكتور بورايو « وهو يستمع إلى هذه المغازي يحدث عملية زحزحة للأحداث التاريخية فتصبح كأنها تصور بنفسها واقعه وهو في هذه الحالة يصبح هو امتداد لجيش المسلمين الأوائل، ويصبح المستعمر صورة مكررة لجيش الكفار، ويعمل الرواة على تأكيد هذا التماثل، فيطلقون على الكفار في قصصهم نفس الأسماء التي تنتشر بين الجزائريين، والتي يطلقونها على الجالية الاستعمارية في الجزائر مثل الرومة والنصارى والكفار .. كما يجعلون شخوصهم من هؤلاء النصارى يتحدثون اللغة الفرنسية (ومن بينهم كفار قريش) فينطقون على ألسنتهم عبارات فرنسية مستعملة في الحياة اليومية، والرواة في وصفهم للمظهر الخارجي لهؤلاء الشخوص يلبسونهم نفس اللباس الذي يستعمله المعمرون الأوروبيون المنتشرون في الريف الجزائري مثل البرنيطة سروال بوطويل الفيستة .. ويظل هذا

الإسقاط ضمنيا يختفي وراء العنصر التاريخي في الشكل المنظوم للغزوة، لكنه كثيرا ما يبين عن نفسه في أثناء أدائه نثرا من طرف الراوي الذي يكشف عن صلة ما يحكية بالواقع الذي يعيشه جمهوره »[9]

وهكذا لعبت المغازي وحكايات البطولة دورا هاما في تغذية الشعور القومي وإسناد معالم الهوية العربية الإسلامية للجماعة هذه المعالم التي كانت تأخذ في الاهتزاز بفعل الواقع الاستعماري للبلاد، وركزت هذه المغازي على مظاهر وحدة الجماعة الإسلامية إزاء الغازي وأسقطت الخلافات والعصبيات القبلية التي وسمت المغازي المدونة الموروثة عن القرون السابقة [10]

الهوية في الخطابات الشعرية الشفاهية :

لا يكتفي الشاعر الشفاهي بالعرض الباهت للقضايا، وعلى يقف على مسافة من قضايا مجتمعه، إنما يندمج فيها اندماجا كليا، ويتخذ منها مواقف صريحة، خلافا لموقف القاص الشعبي الذي يميل إلى الرمزية عن طريق الأسطورة والكرامة وغيرها من الخوارق البعيدة عن الواقع ..

فالشاعر يتناول ما يلح عليه إلحاحا مباشرا من واقع مجتمعه وبيئته المحلية والمشاكل المحيطة به في حدود تصوره وإدراكه لأسبابها، كما يعبر عمّا يريد أن يكون عليه هذا الواقع .

فحين يطرح الشاعر الشفاهي الهوية يبدؤها في حدود قبيلته، وربما محيطه الجهوي ثم يمضي تدريجيا إلى بطولات قومه في إطار الفخر فيصل إلى التاريخ المشترك الذي يجمعه بقبائل أخرى، حتى يكاد يصل إلى التعبير إلى الانتماء القومي وإن بصورة غامضة .كل ذلك في إطار عرض المفاخر والمآثر .

يبدأ هذا الشاعر[11] مثلا، بالمآثر التقليدية من شجاعة ومروءة وكرم ، ويشيد بالتآلف بين أفراد القبيلة، وغوثها المحتاجين وتبسطها في الكرم :

نَجْـــــــعِ الْحِجَّـــــــاجْ رَحَـــلْ شَـــرَّقْ قَاصِـــدْ لِمْـــرَاجْ
عَـــــنْ بَعْـــــضَهْ اعْـــــزَازْ عَـــاتِي وْمَـــا يَقْـــبَلْشِ الـــذُّلْ

يجِيـــــــــهْ الْمِحْتَـــــــــاجْ يْجِـي فَـارَغْ يـدِّي بْلِحْمِـلْ[12]

فالشاعر بلسان حال القبيلة،لا يتجاوزها، يشيد بخصالها، وحين يعبر عن الانتماء إلى القبيلة والقبيلة الكبرى (لرباع) والمنطقة التي سكنها منذ ستة قرون . كما يقول . وتاريخه في هذه المنطقة يربط بالقبائل العربية المسماة في التاريخ بقبائل بني هلال .ومع ذلك يعبر عن حسرته على ماضيه المجيد بلسان القبائل العربية وماضي أمثاله من أهل المنطقة :

شُوفْ الدِّنْيَا تْدُورْ وَاللّهْ يَا رَاجُلْ وْمَـادَا مِنْهَـا نَـاسْ وَاللّهْ مَـا بَـالِي

نَا سُوفِي مِنْ الْوَادْ غَنَّايْ وْشَاعِرْ حِجَّـاجِي مِـنْ لَرْبَـاعْ أَعْمَـامِي وَأَخْـــــــــــــــــــــــــوَالِي

اسْهَلْنِي عَ التَّارِيخْ نَا عِنْدِي مْنَزَّلْ وْعِنْـدِي سِتْ قْـرُونْ هَـذَا مِنْزَالِـي

وْكِـي نِتْفَكَّـرْ حَـالْتِي وَاللّهْ نَهْبَـلْ وْمَادَا مِنْهَا رْجَالْ رَاهِي كِي حَالِي

أَنْتَ بَدْوِي رَحَّالْ مَاكِشْ مِ لُمْدُنْ وَاسْهَلْ عَ التَّارِيخْ تَلْقَاهْ هْلاَلِي[13]

ويلاحظ أن الشاعر عبر عن انتماء إقليمي ومحلي، ومع أن الإقليمية كما يقول الدكتور التلي بن الشيخ ليست نقيضا للقومية ولا بديلا عنها وإنما هي جزء من الروح القومية متمم لها، ذلك أن هذه الرؤية الإقليمية ليست عن وعي ومناهضة للروح القومية والإنسانية إنما هي ناتجة عن أن الشاعر أسير واقع إقليمي لا يفرق بين الإقليمية والقومية كما يراها الدارسون والشعراء المدرسيون.[14]

لهذا نلاحظ في الشواهد السابقة عدم ذكر الانتماء العربي والإسلامي والوطني لأن السياق الاجتماعي لا يطلب منه ذلك فليس هناك أغيار لهذا الانتماء أما حين يتعلق الأمر بالموقف إزاء الآخر فالأمر مختلف .

فحين اصطدم المجتمع الجزائري بمحاولات الاستعمار الفرنسي طمس الهوية الثقافية للجزائريين، قامت النخبة من قادة الحركة الإصلاحية،

وناضلت نضالا مستميتا من أجل الدفاع عن عناصر الهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائرية، استجاب لها المواطن البسيط والشاعر الشفاهي على الخصوص، واستوعب أفكارها بصورة ناصعة ، ووجدنا كثيرا من فحول الشعر الشفاهي، في مناطق مختلفة من الوطن يدافعون عن اللغة العربية والدين الصحيح ويرددون شعارات الجمعية الإصلاحية ، ومن ثم يبدأ التمايز الثقافي بين الشعب الجزائري المسلم من جهة والآخر المستعمر من جهة أخرى.

والمعروف أن الحركة كانت تداري على أهدافها السياسية، وتركز على التعليم من أجل تصحيح الدين وعصرنته وتطهيره من الخرافات والبدع التي علقت به إبان القرون الحالكة، ويعمق الشعور الأجيال بالانتماء العربي الإسلامي نجد أحد الشعراء الشفاهيين المتأثرين بالحركة الإصلاحية [15] يردد مسعى الحركة الإصلاحية بل ويلمح إلى الهدف السياسي البعيد المدى:

شَعْبِ الْجَزَائِرْ يتْعَافَى مْنِ الْخُرَافَةْ وُالتَّفْرِيقْ اللِّي فَ اَطْرَافَهْ

تَحْيَا الْجَمْعِيَّةْ الْوَطْنِيَّةْ وَالْخَيْرِيَّةْ النَّاسْ اللِّي يْحِبُّو الْحُرِّيَّة

تَحْيَا اللُّغَة الْعَرَبِيَّة بِالثَّقَافَةْ وْيتْجَدَّدْ عَهْدْ الْخِلاَفَةْ

كما تبدو معالم الهوية الوطنية الجزائرية لدى الشاعر الشفاهي، حين دعا الشاعر نفسه إلى مساندة الحركة وجمع الأموال من أجل فتح المدارس وتعليم الناشئة، والعمل على رقيّها، وكل ذلك نتيجة للصدام مع الآخر، الذي كان يضيق الخناق على نشاط الحركة، ويسن القوانين لمنع تدريس اللغة العربية:

نُشْكُرْ فِعْلِ الْعَصْرِيُّونْ الرَّجَّالَه أَصْحَابْ الْفُنُونْ

هُمَّا الرَّجَّالَةْ لْمَا يْحِبُّو حَتَّى شُغْلاَلَة

كُلّ وَاحِدْ يَدْفَعْ مِنْ مَالَهْ هَذَا شَيْ مْحَتَّمْ عَرْبُونْ

بَــاشْ الْمُــومِنْ يَــسْعَدْ حَالَــهْ يَرْقَــى مَــا يَبْقَــاشِ دُونْ

هَــــــــذِي الْحَقِيقَــــــــةْ سُــنْتَنَا هِــيَ الطَّرِيقَــةْ

سِــي عَبْــدِ الْعَزِيــزْ الثِّيقَــة قَــالْ نَحْيَــوْ بِــالْعُلُومْ

عَــنْ وَطْنِــي تْمَــزَّقْ تِمْزِيقَــهْ حَيْثُ كَانْ الدِّينْ نْكُونْ[16]

كما تأثر الشعر الشفاهي في منطقة القبائل بالحركة الإصلاحية رغم اختلاف أداة التعبير، فهذا الشاعر قاسي أو ضيف الله يتبنى أفكار الحركة الإصلاحية ويكيفها مع الوضع الخاص لمجتمعه، وذلك في أهم جانب من جوانبها وهو عصرنة الدين ورفع التحديات التي كان يتعرض لها الدين التقليدي المتصف بالجمود، فالشاعر يعبر بحماس شديد وإحساس بالنصر، فظهور الحركة الإصلاحية كان إضاءة جديدة على الوحي المنزل على محمد ﷺ .

- طلع البدر
- يضيء الجزائر
- من الشرق مرة أخرى
- أخذ الدين مكانته من جديد
- أعلنوا الخبر
- الحياة تعود إلى الدين.[17]

كما يشيد الشاعر نفسه بأهم مساعي الحركة الإصلاحية وهو التعليم ومحاربة الخرافات والبدع هذه المساعي تهدف إلى التمسك بالدين والاعتزاز بالانتماء إلى الجماعة الإسلامية، وذلك بعودة العزه والقوة إلى الدين هذه الصفا ت كما يقول الشاعر تقيم بين المحبرة والريشة [18] في إشارة واضحة إلى التعليم .

وعلى الجملة فإن أسئلة الهوية في المرويات الشفاهية السردية تتجلى في التعبير عن الانتماء إلى قيم الجماعة، والدفاع عنها إزاء الغازي الأجنبي مجسدة تلك الثنائيات الضدية بين الكفر والإيمان والخير والشر والظلم والعدل و والباطل والحق والجنة والنار، فالقيم الإيجابية تعبر عن الهوية،

والسلبية تعبر عن الآخر أو الغازي الكافر . أما في المرويات الشعرية الشفاهية فتتميز بالمباشرة في الطرح لكن النزعة القبلية والإقليمية تغلب عليها، غير أنها عند حدوث الصدام مع الآخر تأثرت بشعارات النخبة العالمة من أقطاب الحركة الإصلاحية، ورفعت شعاراتها وأهمها التعليم لرفع المستوى الحضاري للأمة وتحسيس الأجيال الناشئة بشعور الانتماء إلى التاريخ الثقافي العريق للأمة العربية الإسلامية .

. الهوامش:

---

1 ـ عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1984، 2/569

2 ـ عبد الإله أحمد نبهان ، « الهوية القومية » ، الموقف الأدبي ، مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، العدد 364 آب 2001

3 المرجع نفسه .

4 ـ ينظر : والتر أونج ، الشفاهية والكتابية ،ترجمة : حسن البنا عز الدين ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت، فيفري 1994.

وينظر : J. Goody La Raison Graphique Domestication de la pensée sauvage ed Minuit Paris 1979.

5ـ و. أونج ، الشفاهية والكتابة ، المرجع السابق ص 107 وما يليها

6 ـ البيت للشاعر دريد بن الصمة (ديوان الحماسة ج1/ص337).

7 ـ بورايو عبد الحميد، البطل الملحمي والبطلة الضحية في الأدب الشفوي الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1998 ، ص 20 .21 .

8 ـ ينظر : التلي بن الشيخ ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1990، ص15.

9ـ عبد الحميد بورايو ، المرجع السابق ص69.70.

10 ـ المرجع نفسه ص72.73

11ـ الصغير قدور بن علي بن جموعة من قبيلة أولاد حجاج بطن من الربائع عاش في البوادي الشمالية لمنطقة سوف في النصف الأول من القرن العشرين وهو هنا يشيد بقبيلته من أولاد حجاج.

12ـ رحلت قبيلة أولاد الحجاج إلى الأراضي الخصبة، إنهم قوم يحب بعضهم بعضا وهم شجعان لا يقبلون الذل يأتيهم ذوو الحاجات لا يملكون شيئا فينهبون من عندهم محملين بالخير .

13ـ يقول الشاعر أن الدنيا تتغير من حال إلى حال وأناس كثيرون لا يبالون بتقلباتها، فأنا سوفي من الوادي شاعر من قبيلة أولاد حجاج وهو بطن من بطون قبائل الربائع ، وتاريخي في هذه المنطقة مرتبط بالقبائل العربية الهلالية وأسكن هذه البلاد منذ ستة قرون ومع ذلك فحين أتذكر الحال آل إليها الوجود العربي في هذه البلاد ،أكاد أجن ولست وحدي على هذه الحال فكثير أمثالي .

14ـ التلي بن الشيخ ، المرجع السابق ص 12.

15ـ يدعى الهادي جاب الله عاش فيما بين 1880ـ 1978 تاجر تمور بين وادي سوف ووادي ريغ .

16ـ العصريون : الذين يدعون إلى عصرنة الدين ونبذ ممارسات قرون التخلف، وهم الرجال الحقيقيون الذي يدفعون الأموال عربونا حتميا من أجل إسعاد ورقي المسلمين ، وهذه الحقيقة فليست هنا طرق صوفية الطريقة هي إتباع السنة أما سي عبد العزيز فهو نجل الشيخ الهاشمي الشريف مؤسس الزاوية القادرية الذي ترك طريقة أبيه وتبنى أفكار الجمعية و الذي دعاهم إلى جمع الأموال من أجل إحياء الأمة بالعلم

17ـ ترجمنا هذه الأبيات عن الفرنسية عن تسعديت ياسين وهي بدورها ترجمتها عن النص الأصلي ، ينظر : Tassaadit Yacine Poésie Bérbére et identité Qasi Udifella Bouchene Awal pp 98.99

18ـ ينظر : Ibid p:102

شخصية الشيخ العالم وأبعادها في رواية "الزلزال" للطاهر وطار

بقلم

د/ علي زغينة

قسم الأدب العربي كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة بسكرة . الجزائر

الملخص :

إن شخصية الشيخ العالم في روايات الطاهر وطار ـ لا سيما الأولى منها، ونعني بها رواية الزلزال ـ تمثل نموذجا لشخصية متأزمة تعاني من الداخل، كما من الخارج، وتحاصر بثقافتها الماضية في ظل واقع يتغير باستمرار. وتعامل الشخصية مع ذلك الواقع يجسد ملحمة الالتقاء الديني باللاديني، أو بالأحرى الماضوي بالحداثي، وما يعنيه ذلك من تمزق الشخصية وتفتتها فيما بين ثقافة تعد بكل شيء، ونمط آخر يجرد من كل شيء.

ذلك ما ستجسده هذه الشخصية في حركيتها وسيرورتها في واقع مكاني ينذر بالتغير، وواقع زماني يأبى المضي إلا إلى أمام .فهي رواية صدام الأنا الشخصية بكل مافيها من نوازع وأبعاد، وما في الواقع من تغيرات ومغايرات .كل ذلك يترى على صعيد حركية روائية تشكل جدلية بين الماضي والحاضر، وتتجسد من خلال بنية الشخصية الروائية في أبعادها الكبرى، كشهادة على جيل أو نموذج عايش ذات يوم ثورة التحرير، ويعايش في حاضره ثورة البناء والتشييد.

Résumé:

Le personnage du savant théologist dans les romans de TAHAR OUATTAR ;Les derniers en particulier tel AZZILZAL est un personnage stressé , souffre psychiquement de l'extérieur comme de l'intérieur, Encerclé par la culture du passé , en vivant des circonstances en réalité se varient davantage.

Ce personnage se comporte avec sa réalité qui représente l'épopée de la confrontation entre le religieux et l'irréligieux , voire le passé et la modernité avec tout que cela signifie la déchirure de la personnalité entre la culture qui promet tout et celle qui dépourvoie de tout.

. الشيخ العالم:

هذا النموذج زخرت به الرواية الجزائرية بمختلف اتجاهاتها وتنوعها فيما بين رواية كلاسكية تعود إلى سبعينيات القرن الماضي ، أو رواية جديدة ما تزال تسلك سبل التجريب والتكينن ، ويتجلى عبر أبعاد شخصيته.

أ. البعد الشخصي:

وهو النموذج الذي يصادفنا في رواية "الزلزال"، إنه الشيخ عبد المجيد بو الأرواح، الشخصية الإقطاعية الانتهازية، الاجتماعية، الأيديولوجية، الـ...، ولكن الدينية في نهاية المطاف، باعتبار ماضيها وثقافتها، وتعاملها مع الحاضر بثقافة الماضي، ورفضها للراهن بالاعتماد على مواصفات الأمس الدابر. حيث إننا "لا نتجوّل طويلا في القراءة حتى تظهر لنا ملامح شخصية بورجوازية دينية تنظر باحتقار إلى الشعب..."[1].

وهي شخصية تقترب كثيراً من شخصية "الشيخ علاوة"- في رواية (بان الصبح) لعبد الحميد بن هدوقة . وتشبهها في كثير من ملامحها . فهي مثقفة . مثلها . ثقافة عربية إسلامية، كما هي ذات حنين إلى الماضي. وقد اشتغلت بالتدريس زمناً، وقد أبى المؤلف لهذه الشخصية إلا أن تكون "من دعاة حركة إصلاحية عرفها الشعب الجزائري قبل ثورة فاتح نوفمبر"[2]. إنها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان بوالأرواح من مريديها. ويكاد يحدث تطابق تام فيما بين الشخصيتين؛ فكلتاهما كانت ضد سياسة الحكومة. وبتعبير آخر، معارضة لانتزاع ملكية الأرض وضد الثورة الزراعية. حتى لكأن الكاتبين ينسخ أحدها عن الآخر، أو هو يفعل كنوع من التقارب والتأثر، لولا أن الشخصية عند (وطار) تمتاز بكثافتها الروائية، ورقيّ التقنية الفنية المعتمدة في توظيفها وإخراجها. إنها التداعي وتيار الوعي، مما أضفى عليها ظلالا وأبعاداً كانت شخصية (الشيخ علاوة) مفتقرة إليها. وهو ما قد يدخل في مجال المفاضلة بين الروائيين، بغضّ النظر عن أيّهما كان الأسبق، في طرق هذا الموضوع، وأيّهما كان متأثراً بالآخر، ابن هدوقة بوطّار أم وطّار بابن هدوقة ، وهو ما ليس مجال بحثنا هذا.

ب. البعد المزاجي

وشخصية بوالأرواح شخصية فضفاضة، مكثفة روائياً. تمثّل في واقع الرواية، وجهين متوازيين من وجوه الوعي، الظاهر والخفي، الديني واللاديني. وهي إذ تقدم نفسها في المجال الحركي للرواية، فمن منظور ديني تفعل ذلك، كما لو أنها تلوّح بالديني في مواجهة السياسي. أو هي تفسّر هذا بذاك

أو تنقضه، حتى لا يكون إلا ما تريد هي، ويكفل مصلحتها. و"هذه هي الانتهازية الحقة في أسمى صورها، فبوالأرواح يراعي مصلحته دائماً، يراعيها حين يمنع، ويراعيها حين يعطي، ويتظاهر بالكرم من أجل الحفاظ على هذه المصلحة إن الرجل الانتهازي مستعدّ للتكيّف حسب الظروف، ولا يأخذ بعين الاعتبار في كل تصرفاته إلا الحفاظ على مصلحته في كل الحالات"[3].

يقول بوالأرواح: "لا، لا الحرية حرية. الاستقلال استقلال. الحكم حكم. السلطة سلطة. لكن إعمال المبضع في الحياة، حتى حدّ المنكر. لا. قرأنا العلم الشريف، وجالسنا العلماء، وكافحنا مع الشيخ ابن باديس تغمده الله برحمته الواسعة، وتفقهنا في المذاهب الأربعة، ولم نعثر على هذا المنكر. لا الشيء لمن يملكه، والتمليك وارد في القرآن الكريم..."[4].

فهذه الفقرة تكشف لنا "شخصية دينية من الذين عاشوا فترة ابن باديس وتتلمذوا عليه وعلى شيوخ الزيتونة. إنه من أولئك الأثرياء منذ عهد الاستعمار. ونجده يتحسّر بألم وشوق ويحنّ إلى هذه الفترة الهادئة. بالنسبة إلى أمثاله. حيث كان هو وأصدقاؤه الباشاوات والأغاوات والقياد يعيشون في ثراء وحدهم مع المعمرين دون إزعاج"[5].

فالشخصية. هنا تقارع السياسي بحدّ الدين. وتثور على الواقع السياسي لتفسير رضاها عن الماضي الديني، وبالتالي تعرب عن سخطها على الواقع السياسي، كأن ليس لديها منطق آخر تنقد به أو تعرب بواسطته عن رفضها سوى تسخير الدين ورموزه. أو كأن التغير الذي طرأ على الأشياء قد امتد إلى كل شيء ولم يدع أي شيء بما في ذلك الدين ورموزه؛ "بدا له أن صورة ابن باديس المترائية غريبة إلى حد كبير عن الفكرة التي غرسها في نفسه عنه طيلة السنوات التي أعقبت وفاته، بكل الأحداث التي تخلّلتها"[6].

جـ. البعد النفسي:

وتبدأ رحلة الكشف والإقرار مع الشخصية، وتنفتح مغاليقها كلما أوغلت في عمق الرواية؛ "لم يشأ أن يواصل الإقرار بما بدا له أنه الحقيقة تتكشف من خلال حيوية صورة ابن باديس واكتفى بالإعلان: لو عاش لكان لنا معه شأن. إنما الدين هو الدين، وليس شيئاً آخر، الدين الإخلاص للسلف. وكل بدعة ضلال"[7].

ومن الواضح هنا، أن "المؤلف لا يريد أن يحاكم ابن باديس ولا جمعية العلماء، من خلال موقفه من بوالأرواح، ولكن من الواضح كذلك أنه يشك في إخلاص الكثير من مريدي هذه الجمعية"[8].

ومع ذلك، فتصوّر الشخصية للأشياء لا يأتي إلا نابعاً من الدين أو مشوباً بمسحة من الفكر الديني. كأن وعيه لا يستحضر سوى ماله صلة به، فكلمة "الزلزال" مثلاً، بما يحيط بها من جوّ نفسي خاص، وما تشير إليه من انقراض، قد شاء المؤلف "أن يوسع من هذه الدلالة الرمزية فأنطق بها بوالأرواح في كل مناسبة اصطدم فيها بظاهرة تغيّر، أو فشل في العثور على من يبحث عنه، كما أنطق بها غيره في مناسبات مماثلة. وحتى الإمام الخطيب في صلاة يوم جمعة يتحدث عن هذا الزلزال الذي لا يكاد يفارق الإحساس به الشيخ بوالأرواح"[9]. يقول هذا الأخير في نقد شيخ الجامع وخطبته: "بدل أن يركز الشيخ خطبة الجمعة على التقوى، استغرق في شرح الزلزال وعظمته وذهول المرضعة عمّا أرضعت، يوم حلوله، ووضع كل ذات حمل لحملها، وظهور الناس كأنهم سكارى وما هم بسكارى، الذهول، والهلع، وامتلاء النفس باللون الداكن، تلكم هي الحالة التي وصف بها تعالى، قيام الساعة"[10].

ولازمة الزلزلة هذه ستستمر على مدار فصول الرواية، ولكن على غير منوال واحد وبأساليب متعدّدة، ومتفاوتة. كأن ذلك التنويع للأزمة هو بمثابة تنوّع اللحظات النفسية التي تمر بها الشخصية والحالات التي تعتريها، من حيث: "إن تجارب الإنسان النفسية لا تأخذ نسقاً واحداً، هكذا يقرر الفيلسوف الفرنسي "برغسون" لدى كلامه عن "الديمومة"، وإنما تتشكّل. هذه التجارب. وتتلوّن بمرور الدقائق واللحظات. ويرى "دستوفسكي" بأن هذا التناقض هو سرّ مأساة الإنسان إذ إنه ينتهي دائما بتضييع الإنسان"[11]. وقد يبدو عجيباً "أن يربط بوالأرواح وأمثاله بين التطور الاجتماعي الذي يشاهدونه، وبين قيام الساعة، وهو أمر ديني يرتبط بآية الزلزال، التي يعتمد المؤلف عليها في تحديد نفسية بو الأرواح طوال تجواله في قسنطينة"[12].

غير أن معرفة مدى تضعضع نفسية "بوالأرواح" تسمح بذلك، فيكون من الطبيعي أن تتباين انفعالاته وأحاسيسه، بما يرد على خاطره من أفكار وذكريات تنبعث من جدث ذلكم الماضي، فتقرع الحاضر كالنذير، أو تثير لدى الشخصية ما يشبه الثورة والإنكار للحاضر بما فيه، وما آل إليه: "أحقّاً هذا هو مطعم بالباي الذي عرف الآغوات والباشوات والمشائخ، وكبار القوم، أصحاب الأرض والأغنام والجاه..."[13].

فهو لم تعد لديه القدرة على التكيّف مع المدينة بوجهها الجديد ؛ "لا يستطيع العيش فيها، بل لم يعد يذكر حتى الأماكن التي عاش فيها لمدة طويلة، لم يعد صالحاً لهذا الزمن الذي ليس فيه مكان للأفكار القديمة من الدينية والرأسمالية بين الأفكار الكادحة من العمال والفلاحين والشباب..."[14].

فغلبة التصوّر الديني على ذهن الشخصية جعلها لا تذكر سوى رموز الماضي، لكن أيّ ماض؟ إنه الأمس المهين الذي يدينه به الآخر، الخصم المخالف في النظرة والأيديولوجيا؛ "ما بالك لا تذكر إلا الباشاغوات والأغوات وعملاء فرنسا! أنسيت رجال العلم، والصالحين وباقي الأعيان؟"[15]. فكأنه كان منهم، أو لأنه كذلك، أو هو يحاول أن يتبرأ منهم ويبرئ نفسه من ذلك الانتماء المهين. والماضي هنا، هو الركيزة النفسية التي تعتمد عليها عواطف الشخصية في إحساسها العميق ببشاعة الواقع الراهن. على أن "من مهام الفنان الرئيسية "الإيهام بالواقع" حتى يعيش القارئ في مستوى الحدّ الأدنى من المعقولية التي تتيح له فرصة الحكم على الأشياء واتخاذ موقف محدّد منها"[16].

د. البعد الاجتماعي "الطبقي"

إن نظرة إلى الشخصية وإلى سلوكها تشفّ عن كونها تأخذ بالدين وتعتبر به في الظاهر، أما باطنها فلا ديني، حيث إن المهمة التي قدمت لقضائها دنيوية بحتة، ومن ثمّ فهي تعتبر مسلكها خداعاً شرعياً للسلطة وضرورة يبيحها الدين، مما يساعد على القول بأن " النظرة الطبقية التي يؤمن بها بوالارواح، ويعمل على تثبيتها بين قرابته ومعارفه ليست شيئاً مصطنعاً دعت إليه ظروف اجتماعية خاصة، بل هي متمكنّة من نفسه لشدة ما عاش في طبقة متميزة حتى إنه يتساءل أحيانا حول طبيعة ما يسميه "العالم السفلي" لأنه لم يعش فيه، ولم يخالط أهاليه، وإنما كان ينظر إليه من فوق فيبدو له "في حجم صغير" وتبدو له شؤونه تافهة"[17].

وهي نظرة تتّسم بسمة الوعيد والاستخفاف تنظر بها الشخصية إلى الشعب وإلى الجماهير السادرة في تيهها وضلالها، وجريها خلف بريق الأحلام وألق الأماني التي تعد بها السلطة، وتعمل جاهدة لتحقيقها. فهذه الجماهير أو "هذا العالم ما يزال بالرغم من تفاهته وصغر حجمه، يزحف على العالم العلوي، ويهدّده باستمرار ولذلك يلتمس بوالأرواح من سيدي مسيد أن يقف في طريق هذا الزحف"[18].

ونتساءل . هذا المحلّ . الشعب الحقيقي في نظر الشخصية، ما هو؟ والجواب كامن في أن ما يلفت انتباه الشيخ هو رموز الماضي، كأنه لا يجد معنى لحياته إلا في كنف الماضي مع أولئك النفر من الماضين؛ "لفت انتباه الشيخ بوالأرواح صورة معلقة في الجدار، فاقترب منها ليتبين أصحابها. ولشدّ ما كانت دهشته كبيرة حين وجدها للشيخ بن باديس محاطا بالشيخين التبسي والإبراهيمي، التجار بما فيهم الخونة والمفلسون معنا، مع السلف. الشعب الحقيقي هو هؤلاء، وليس العمّال والخمّاسة والرعاة.." [19].

فلقد اختص "الماضي" في حياة بوالأرواح بداخله، أما "الحاضر" فقد اختص بخارجه، وهذان البعدان "الماضي والحاضر"، "هما الخطان المتوازيان اللذان يحددان شاطىء النهر، أو الشخصية الرئيسية في الرواية، أما ماضيه أو داخله فيمكن الإلمام به وإن تناثر بين الصفحات، بين الوعي واللاوعي"[20].

وهنا تتضح النية المبيّتة للكاتب بقصد إدانة الشخصية، والفخّ الذي نصبه للإيقاع بها، فيجعلها تحدد انتماءها بنفسها؛ "ويعلن لنفسه: وجدت أخيراً من أنتمي إليهم. هؤلاء هم الصالحون"[21]. وأولئك "الصالحون" هم، ما هم؟ إنهم ثلة من شيوخ جمعية العلماء والتجار بمن فيهم الخونة والمفلسون، وكل رموز السلف، فأولئك هم الصالحون في عرف الشخصية.

وفي هذا الطرح ما فيه من إدانة صارخة بسقوط الشخصية وتهاوي فكرها في فلك الرجعية والخيانة، مما ينفّر منها باعتبارها الوجه الماضي العميل المعادي لطموحات الشعب، الواقف. لأمس واليوم. نضالاته بهدف التحرّر من الاستعمار وأذنابه وكل رموزه المزروعة وسط الشرائح الاجتماعية.

وبذلك فقد استطاع الكاتب أن يصل إلى "الكشف الشامل عن العالم الداخلي للإنسان وإلى إعادة خلق انفعالاته وأفكاره وعواطفه، وإلى النظرة النفسية العميقة التي لا يمكن بدونها خلق شخصيات نموذجية تتدفق حياة وحيوية"[22]. وتمضي الشخصية في تجسيد رجعيتها وإبراز ماضويتها، دون أن تدري، أو هي تدري بأنها تسير عكس التيار، وتود العودة بالقافلة إلى الوراء. يرد ذلك في حديث "بالباي" وبوالأرواح: "صدق الله العظيم، أنا ياسي عبد المجيد بوالأرواح أحسست بالزلزال، يوم كان الرعاة والحفاة والعراة يدخلون من الريف والقرى ليقتلوا الأسياد هنا ويخرجوا. ومنذ ذاك أحسست بالزلزال الحقيقي.. يه كم آغا، وكم باش آغا وكم قائداً، وكم ضابطاً مات على يدي راعي أغنام، أو خماس أو حطاب أو فحّام أمام المطعم"[23].

ولعل ضخامة المهمة التي تجنّدت لها الشخصية، وأقدمت على إنجازها هي ما جعلها تحتدّ في خطابها وتعنف في سلوكها مثل الحدّة والعنف اللذين رأينا عليها. فالمهمة ليست عادية، إنها ضد سياسة الدولة. فهي مساجلة بين فكرين متعارضين من الأساس وقطبين متنافرين لا يلتقيان أبداً:

. أتدري ما الذي أتى في هذا الحرّ الشديد؟

. لا؟ !

. جئت أسبقهم.

. من؟

. الدولة.

. الدولة؟

ـ نعم. قرّب أذنك. المسألة سرّ، ولا يعلم بها إلا القليل النادر، اسمع سيسطون على أرزاق الناس.

. على أرزاق الناس؟

. هناك مشروع إلحادي خطير، يُهيّأ في الخفاء.

. تقول؟

. نعم ينتزعون الأرض من أصحابها .." [24]

فهو "لم يكن مرتاح البال لمصير أرضه، ككل الإقطاعيين، ينقم على الشيوعيين هؤلاء الملحدين الذين يأخذون أوامر من الروس، ليطبقوها على بلاد الإسلام ككل إقطاعي ديني" [25]. والمتمعن في الحوار . ابق . تشف أن "الشيخ عبد المجيد بوالأرواح" هو الفقيه الشريف الذي يخدمه بقية البسطاء من الناس كما كانوا يخدمون أجداده. إنها خدمة موروثة هي الأخرى كما ورثت الأرض، وكل مالا يسير في الاتجاه الذي يريده "بوالأرواح" فهو كفر ومنكر" [26].

وارتباط الشخصية بالماضي وتفكيرها المحموم بمصلحتها المكفولة ببقاء ذلك الماضي، جعلها تقف في وجه كل محاولة لتغييره. يتضح ذلك من موقفها الواضح "من الثورة الزراعية بصفة خاصة، والعدالة الاجتماعية بصفة عامة، وهو موقف معاداة لا هوادة فيه ولا ليونة" [27]. كما جعل ذلك من كل محاولة للثورة على بقايا الماضي، مؤشراً لا يفتأ ينكأ في الشخصية جرحاً قديماً، كأنما هي تودّ. من أعماقها. لو خلد ذلك الماضي أو لظل باقيا على حاله. و "بوالأرواح في وقوفه ضدّ كل مظاهر الديمقراطية، يقف ضد التاريخ بجميع بناءاته الداخلية وضد التطور الإنساني،لأنه يدرك مسبقاً أن مثل هذا

التطور في غير صالحه. ولكن الفعل التاريخي إذا كان يصنعه الرجال فهو الجوهر عملية تتمتع باستقلاليتها وبقوانينها الخاصة. وإحساس "بوالأرواح" في العمق بالتاريخ هو إحساسه بالموت الذي يقترب منه يوما بعد يوم"[28].

د. البعد الديني "الطرقي"

يتأوه ويقول: "آه، هذا جامع سيدي قمّوش..لا حول ولا قوة إلا بالله. إذا لله وإذا إليه راجعون ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ (*)[29] وفي لحظة اشتداد الموقف وتأزم الظروف من حول الشخصية، وإحساس هذه بالخطر يتنامى، وفي داخل هذا الجو من القنوط في إعادة التاريخ إلى الوراء، ليس غريباً أن يلجأ (بوالأرواح) إلى الغيب، وإلى أولياء الله الصالحين لتخرجه من ورطته الاجتماعية. وهو يدرك مسبقاً، أن ذلك لا يوصله أبداً إلى ما يريد ولا يقدّمه في شيء"[30]. ولكنه اليأس القاتل ورفض الحاضر بما فيه يضطرانه لذلك، فيستغيث بالوليّ سيدي راشد، ويلهج بالضراعة والدعاء: "يا صاحب البرهان، يا سيدي راشد... قل كلمتك..حرّكها بهم وبفسقهم وفجورهم"[31].

والملاحظ هنا "أن كل تضرع بشري يتوجه للمقدّس أو يتمفصل حوله، يحمل في طياته صلاة دينية، لكنه في نفس الوقت مناقض للديني جذرياً عندما لا تكون القدرة الملتمسة هي الله بل رجلاً "[32] مهما كانت صفته ومنزلته، كما هي الحال مع بوالأرواح؛ ففي أعماقه تعتمل ثورة على الحاضر، وتتشكّل نواة تفكير حالم وأماني لا تنفكّ تراوده وهو يغوص في ظلمات محنته، فيحلم بانبعاث رموز الماضي، ويمنّي نفسه بمجيء رجال دين وشخصيات تراثية يعيدون للماضي وجهه المنير، وكأنه يتأسّى بما ورد في الأثر من أنه يُبعث على رأس كل مائة سنة من يصلح للأمة دينها ويجدّد رسالتها.

تقول الشخصية بهذا الصدد: "..الحكم حكم، أما التخريب والكفر والإلحاد فمسائل أخرى. سيلهم الله هذه الأمة، وتنجب ابن باديس آخر، وأفاضل آخرين، وسينقذونها ولو أتى عليها ألف زلزال، سيواصلون ما بدأه أسلافهم، وعرقلت الأحداث إنهاءه"[33]. وهذه النظرة الحالمة المتطلعة إلى الغيب، تشفّ عن ذلك الجانب الخفيّ في الشخصية بما فيه من تسليم واستسلام. إنه جانب الإيمان والتسليم بالقضاء والقدر، مما يعكس "السمات الأساسية للشخصية الرومانسية من ميل جادّ إلى الإطلاق والتعميم والإيمان

بالقدر الميتافيزيقي"[34]. حيث إن "كل شيء قضاء وقدر ولا رادّ لقضائه جلّ وعلا، الأعمار بيد الله، والله لطيف، وهو أعدل العادلين"[35].

ومن هنا، من لحظة البوح والكشف، وتحرّك الكوامن الراسبة في الأعماق، تبدأ الشخصية في التكشّف والانحدار، وتبرز ثقافتها الدينية وتحدد اتجاهها وتعاملها مع كبريات قضايا الساعة: "يوم القيامة يخرج صاحب الدابة، دابته ذيلها في المشرق، ورأسها في المغرب، عليها قدر مثل الأرض سبع مرات، فيها ماء يغلي يمدّ صاحب الدابة يده ويتناول أصحاب الأفعال السيئة ليقذف بهم في قدره"[36].

وتأخذ الشخصية في إدانة نفسها بنفسها، فتدمّر ثقافتها، وتتنكّر لمرجعيتها، أو هي تنتقد نفسها ساخرة من نفسها: " ابدأ بكل صاحب بدعة يا صاحب الدابة. استغفر الله. هذه خرافات عجائز ما كان يجوز لها إطلاقاً أن تقتحم ذهني"[37]. فهو الإحساس الفوري لبوالأرواح بنزوله وتدنّيه "في عقيدته الدينية إلى درجة الإيمان بوجود صاحب الدابة، فيستغيث به كلما أحس بدوار في رأسه من شدة التغيّر الذي يشاهده، ويقول: ابدأ يا صاحب الدابة بسكان قسنطينة الجدد الذين يثقلون كاهل صخرتها ويتسبّبون في زلزالها.."[38].

وحقيقة فإنه "لا بديل للدين حتى الآن، فهو يمكّن الفرد من الاشتراك بطريقة فريدة مرضية في الإحساس بمعنى الأشياء، ولا يقدم لنا العلم بديلاً للصلاة والعبادة"[39]. فبعد أن تدين الشخصية نفسها، وتندّد بثقافتها، تعود فتحدد الخطوط العريضة لذاتها وإنّيتها والمحطات التي تشكلت فيها ملامح تلك الذات أو تلك الإنّية. فإذا هي ماضياً: "أنا شيخ الستين وحافظ كلام الله، وخرّيج الزيتونة"[40]. كما هي في الحاضر: "أنا عبد المجيد بوالأرواح عمّ الطاهر صهرك، مدير ثانوية بالجزائر العاصمة وعالم في الدين والنحو والصرف"[41]. وهي .رغم انتمائها الديني ومرجعيتها . لا تتورع عن إبداء علمانيتها وخيانتها لمبادئها ذاتها؛ حيث إن العلمانية "تهدف إلى الفصل بين القيم الروحية والقيم المادية، وبهذا تصيب الإنسان بالتناقض الداخلي والازدواج النفسي"[42]. وهو ما حدث لبوالأرواح؛ "...يوم ألقي القبض على عضو هامّ منّا، بذلت أقصى جهدي لإبلاغ رأيي للمخبرين، جلست في أكثر من مقهى، وتحدثت إلى أكثر من شخص، قلت رأيي: نحن جمعية دينية لا علاقة لنا بأي شيء يتصل بالسياسة أو يمسّ السلطة. كلّ ما بيننا وبين السلطات هو فصل الدين عن الدولة. وضمان حرية نشاطنا"[43]. وهو في هذا

يلتقي مع الخط الذي سارت فيه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مرحلة من مراحل نضالها ضد الاستعمار ومهادنتها له.

ورغم ما يبدو عليه ظاهر الشخصية من انتماء سابق إلى جمعية العلماء فهي، مع ذلك وكنوع من خيانة المبادئ، تتعاطى مع الفكر الطرقي ومع الزوايا؛ تلك المؤسسات الدينية السلفية التي حاربتها الجمعية في فترة من الفترات، وشنّت عليها حرباً ضروساً. وهي تسوّغ لنفسها ذلك حرصاً منها على مصلحتها؛ فوقوف بوالأرواح "ضد الثورة الزراعية يجعله يقف مع الطرقية وأصحاب البدع، لأنهم في نظره أحسن بكثير ممن يدعون إلى انتزاع الأراضي من أهلها، وتوزيعها على الفلاحين الصغار: " هم ولا الملحدون الكفرة الذين لا منفذ لقلوبهم"[44].

فهل هو الحكم بنفاق الشخصية، وبالتالي إدانتها . في نظر القارئ . من خلال سلوكها وتفكيرها؟ يتجلّى ذلك من خلال هذا المونولوج للشخصية: "أسأل في زاوية سيدي عبد المؤمن عن عيسى ابن خالتي، ثم أمرّ إلى سيدي راشد لأصلي العصر هناك. يقين أن عيسى يكون حيث هو، في زاويته يتلو الأوراد، ويعلم القرآن ويكتب الرقي، ويتلقى الزيارات. لقد كان مثالاً في التصوف والزهد والاستقامة. حفظ الآجرومية والرسالة. ولاشك أنه قرأ سيدي خليل بعد ذلك، إنه أبعد الناس عن الحياة ومشاكلها"[45].

وتبرز صفه التناقض في سلوك الشخصية ومواقفها الدينية المتذبذبة فيما بين الماضي والحاضر، فإذا هي تجادل نفسها، فتلغي ما أرادت إثباته، وتؤكد . على نفسها . ما قصدت أن تنفيه: "ومتى كنت تؤمن بالأضرحة والمقامات؟ لقد حاربتها إلى جانب الشيخ بن باديس. ودعوت الناس إلى نبذها. إنها عبادة قبور. بدعة أبدعها العوامّ. لا. كنت تؤمن بها منذ كنت! حتى وأنت تخطب في المنابر ضدها. لأنها جزء من ماض كبير..."[46]

فهل كان الدين مجرد غطاء تتغطّى به الشخصية وقناعاً ترتديه في المناسبات؟ ألم يكن شيئا أكثر من ذلك؟

الواقع أن "الدين عند بوالأرواح، وعند طبقته، ليس سوى وسيلة للتغرير بالشعب البسيط، وللمحافظة على المنزلة الاجتماعية التي يحتلّونها. فإذا كانوا بعيدين عن أعين الناس، ظهروا على حقيقتهم وداسوا كل القيم والأخلاق واستحلّوا كل ما يحرّمه الدين. فإن كانوا بمحضر الناس البسطاء، تظاهروا بالتقوى والخوف من الله"[47] وليس في ذلك أي تعارض مع الفهم المغلوط للدين إذا شابه التأويل المغرض، وعمل فيه الاجتهاد بدون

أهلية أو بسوء نية وخبث طوية. وقد كتب "وايتهيد" ذات مرة: "الدين هو ما يقوم به الإنسان حين يكون وحيداً"[48]. وفي مثل حال "بوالأرواح" وغربته لا تكون الحال التي يعيشها إلا حالة دينية. بمعنى صوفي. وبلوى ابتلي بها. ولا يكون موقفه منها، إلا موقفاً دينيّاً، تبعاً لتكوين شخصيته وتركيبتها النفسية والثقافية والاجتماعية.

و. البعد القيمي

وتتكامل ملامح التناقض في الشخصية. إن صحّ هذا التعبير. لتبرز للوجود في معالم مشوّهة منفرّة، هي المعالم الحقيقة لشخصية بوالأرواح في استغلاله الدين، وانتهازيته وإقطاعيته، وما ضويته:"لم تكن تتفق حتى مع ابن باديس، كنت ولا تزال، ترى أن كل ما يربط العامة بالله، جائز شرعاً، حتى ولو كان عبادة الأوثان. لم تجاهر برأيك، ولكنك كنت شديد الإيمان به. القول للعامة بعدم التعلق بقبور رجال العلم والدين كالقول بعدم الصبر على قضاء الله، والثورة ضد الفقر. الدين لا يتجزأ، وكل ما يربط العامة بالله وبالماضي دين. وكل محاولة لفصل الدين عن الماضي، إنما هي محاربة للدين ذاته"[49].

وعبر هذا المونولوج، تتكشف لنا شخصية بوالأرواح عن صفات "التناقض والانتقال من حالة مرضية شاذة إلى حالة مرضية أخرى؛ فهو أحياناً يبدو شخصاً ورعاً، له إلمام بالدين الإسلامي وأحكامه، ولكنه يوظّف في الوقت نفسه هذه الأحكام لخدمة منافعه الخاصة، وقد يجاهر بعدائه للطرقية، وولائه لحركة الشيخ عبد الحميد بن باديس، ويعتبر التقرب إليها « بدعة أبدعها العوام » . إلا أنه كان يؤمن بها في قرارة نفسه وبنفوذها..."[50]. مما يعني. في نهاية المطاف. أن شخصية بوالأرواح ليست سويّة، وغير مستقرة، كما هي متذبذبة متأرجحة في سلوكها وأقوالها. وعلى العموم، فهي الشخصية السلبية التي تحيل على الإيجاب، وسلطان الدين الذي يتراجع أمام نفوذ وسطوة الأيديولوجيا، وإلا فهو ما حملته شخصية بوالأرواح عبر "الزلزال".

مجمل القول:

وخلاصة ما في أمر الشيخ العالم. عند وطار وابن هدوقة. أن وظيفته الأساسية دينية، أو يفترض فيها أن تكون قائمة على الإصلاح من وجهة نظر دينية، باعتبار الانتماء الروحي والثقافي للشخصية، وصلتها التاريخية بجمعية العلماء المسلمين، وهي المعروفة بمنهجها الإصلاحي ومبادئها المعتمدة في هذا المضمار. غير أن ما تحقق في الرواية من تلك الوظيفة هو العكس تماماً، حيث تتناقض الشخصية في سلوكاتها واتجاهاتها كلّ

التناقض مع مرجعيتها الدينية تلك. وتتجسّد فيها صفات كالانتهازية وإيثار المصلحة الخاصة والآنية على المصلحة العامة الدائمة، ومعارضة الواقع إذا تضارب مع مصلحتها، وتسفيه كل الاجتهادات والآراء ما لم تكن متوافقة مع تعاليم السلف أو مستمدة منها، مع كونه غير مخلص في قرارة نفسه لتلك التعاليم، أو هو كان يسايرها طالما كانت في خدمته.

ومن ثمّ اتسمت شخصيته بصفة الاهتزاز وعدم الثبات على مبدإ من المبادئ والتقلّب من حال إلى حال تبعا للمواقف التي يقفها والانفعالات التي تعتريه في كل حين وآن، كأنما هو . في حقيقته . ابن اللحظة الواحدة الراهنة، يعيشها على النحو الخاص بها لينتقل إلى غيرها من اللحظات والمواقف المتسارعة من حوله كتسارعه هو ولهاثه في الحياة، وتدحرجه نحو النهاية، نهاية المطامع والرغبات الانتهازية التي لا تنتهي. وهو ما يعني في لا شعوره رغبة دفينة في الثبات والسكون والمحافظة على ما كان مثلما كان، حيث لا مستساغ عنده لكل تغيّر أو تطوّر، مادام ذلك في غير صالحه هو الشيخ البرجوازي المؤمن بالطبقية ومنطق الامتيازات الذي يهمّش معظم الطاقات والشرائح الاجتماعية الكادحة، ويعطّل حيويتها أو يكاد يلغيها من حسابه، ولا يبقى إلا على ثلّة قليلة من أمثاله المطعون في مصداقيتهم ووطنيتهم، حتى ولو كان ذلك التصنيف جائراً ومسيئاً لجمعية دينية كان يعتبر نفسه من مريديها وتلامذتها.

فهو إذا انتمى، فلا يتورّع من الانتماء إليها مادام ذلك يكسبه شرفاً، ويخفّف من وطأة إحساسه الشديد بالغربة وانقطاعه عن المجموع. بل إن ذلك الانتماء هو آخر ورقة صالحة باقية في حوزته تضفي على وجوده قيمة، لأن الدين هو الثابت الوحيد الذي مازال على حاله لم يمسّه التغيير. فهو آخر ملجإ يلجأ إليه، وآخر ملمح من ملامح ذلكم الماضي الذي يمجّده ويحنّ إليه وتتحقق فيه ذاته. وإذا لم يجد الأمر كذلك، فهو ضد كل محاولة لتغييره، وكل سياسة تثور عليه. يعمل جاهداً لتعطيلها بالحيلة الظاهرة أو بالقوة الخفية، سواء أكان ذلك موافقاً الدين أو متعارضاً وإياه.

وإذا يتأكد للشخصية خيبة المسعى، رغم استنفاد الحيل، فلا يبقى أمامها سوى الدعاء بالكارثة تعمّ الجميع، وبالفناء لعالم تحس بأنه بات فارغاً من كل معنى، مادامت لا تجد نفسها متضمّنة فيه على نحو من الأنحاء، أو مادامت تحس بأنه يسير على عكس هواها ومصلحتها. فكل حركات بوالأرواح كانت في الغالب حركات نفسية وفكرية وانفعالية، فانطبع بها سلوكه، وهو

السلوك المتوقّع من عالم حيويته الكبرى في عقله، وذخيرته الضافية في ثقافته، مما يجعلنا نقول بتناسب ما كان يأتيه من أفعال أو يقوله من كلام مع حالته النفسية، ومن موقع كموقعه وسط الأزمة.

وإذا كانت شخصيته قد صُوّرت بمثل ما صُوّرت به، فلأنها تمثّل قيمة أو مجموعة من القيم يدينها مجتمع الرواية، ومن ورائه الكاتب. وما النهاية المنطقية للشيخ بوالأرواح إلا الغاية التي تهدف إليها الأيديولوجيا في المصير الذي يجب أن تلاقيه الشخصية الدينية؛ فهو الموت الأكيد أو الجنون، وكلاهما يعني الخروج النهائي من عالم لا بقاء فيه إلا للأيديولوجيا، وللقيم الأيديولوجية.

الهوامش:

1. ساري، محمد: البحث عن النقد الأدبي الجديد، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1984، ص169.
2. د. مصايف، محمد: الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، الدار العربية للكتاب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983، ص55، 56.
3. م ن، ص 64.
4. وطّار: الزلزال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ط3، 1980، ص 13.
5. ساري، محمد: البحث عن النقد الأدبي الجديد، ص 170.
6. وطّار: الزلزال، ص17.
7. م ن، ص 18.
8. د. مصايف، محمد: الرواية العربية الجزائرية الحديثة، ص 63.
9. م ن، ص 59.
10. وطّار: الزلزال، ص 20.
11. د. خليل، عماد الدين: في النقد الإسلامي المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1401هـ 1981 ص 58، 59.
12. د. مصايف، محمد: الرواية العربية الجزائرية الحديثة، ص 68.
13. وطّار: الزلزال، ص 23.
14. د.الأعرج، واسيني: الطاهر وطار، تجربة الكتابة الواقعية (الرواية نموذجا)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 83.
15. وطّار: الزلزال، ص 24.
16. د. شكري، غالي: معنى المأساة في الرواية العربية (ج1، رحلة العذاب)، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1400هـ 1980 ص 79.
17. د. مصايف، محمد، الرواية العربية الجزائرية الحديثة، ص 69.
18. م ن، ص 69.
19. وطّار: الزلزال، ص 26.
20. د. شكري، غالي: معنى المأساة في الرواية العربية، ص 249.

21. وطّار: الزلزال، ص 26 .
22. د. الأعرج ، واسيني : الطاهر وطار، تجربة الكتابة الواقعية (الرواية نموذجا) ، ص 87.
23. وطّار: الزلزال، ص 29 .
24. م ن، ص 30،31.
25. ساري، محمد : البحث عن النقد الأدبي الجديد، ص 176 .
26. عامر، مخلوف : تجارب قصيرة وقضايا كبيرة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984 ص 60
27. د. مصايف ، محمد: الرواية العربية الجزائرية الحديثة ، ص 72.
28. د. الأعرج ، واسيني : الطاهر وطار، تجربة الكتابة الواقعية،)الرواية نموذجا)، ص 89
29. وطّار: الزلزال، ص 34.
(❖) ـ سورة الحج: 2،1.
30. د. الأعرج ، واسيني : الطاهر وطار ، تجربة الكتابة الواقعية (الرواية نموذجا) ص 83 .
31. وطّار: الزلزال، ص 35 .
32. د. طوالبي، نور الدين: الدين والطقوس والتغيرات، تر: وجيه البعيني، منشورات عويدات ، بيروت – باريس، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، ط1، 1988 ص51.
33. وطّار: الزلزال، ص 42.
34. د. شكري ، غالي : معنى المأساة في الرواية العربية، ص 73.
35. وطّار: الزلزال، ص51.
36. م ن، ص 52.
37. م ن، ص 52.
38. د. مصايف ، محمد: الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، ص 63.
39. ولسون ، كولن : ما بعد اللامنتمي (فلسفة المستقبل) ، تر: يوسف شرورو ،عمريق ، منشورات دار الآداب بيروت، ط5 نيسان (أبريل) 1981 ص 194.
40. وطّار: الزلزال، ص 55.
41. م ن، ص 105.
42. د. خليل ، عماد الدين: في النقد الإسلامي المعاصر، ص 168.
43. وطّار: الزلزال، 109.
44. د. مصايف ، محمد: الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، ص 63 .
45. وطّار: الزلزال، ص 115.
46. م ن، ص 129.
47. د. مصايف ،محمد : الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام ، ص 63.
48. ولسون ، كولن: ما بعد اللامنتمي ، ص 196.
49. وطّار: الزلزال، ص 130.
50. شريبط ، أحمد : تأويل الشخصية والمكان، المساءلة، اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ع1 ربيع 1991، ص 72.

التداخل النصي الجزائري / الجزائري

(دراسة في الشعر الجزائري المعاصر)

بقلم

أ/ جمال مباركي

قسم الأدب العربي. كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة بسكرة . الجزائر

الملخص :

يتناول هذا المقال الخطاب الشعري الجزائري المعاصر في ضوء نظرية التناص باحثا تداخل النصوص الجزائرية فيما بينها ضمن مستويات التناص المختلفة .

Résumé.

Cet Article traite le discours poétique Algérien à la lumière de la théorie d'intertextualité, Il enquête sur les entrecroisements intertextuels aux différents niveaux de l'intertextualité.

أول ما يلفت انتباه القارئ للخطاب الشعري الجزائري المعاصر هو التقارب اللغوي والدلالي الكبير للنصوص الشعرية ، ولظاهرة تداخل النصوص هذه ، أسبابها الخارجية ودواعيها الفنية ومن بينها تقارب الشعراء زمانيا ومكانيا وإيديولوجيا وثقافيا، وقراءة إنتاج بعضهم بعضا، وإعجاب شاعر منهم بالقول الشعري لشاعر آخر .

ومظهر هذا التداخل واضحة في المتن الشعري الجزائري المعاصر سواء أتم ذلك عن وعي أم كان بغير وعي نتيجة الوقوع تحت إحساس نفسي متشابه أو التعبير عن رؤى وأفكار متقاربة بينهم ساعة النظم، مما نتج عنه (تناص) توالدي يصعب رصده والنزول في صور هذا التداخل إلى أدق مظاهره ومستوياته .

ونلمس هذا التداخل النصوصي على مستوى البنية المعجمية ، والحقول الدلالية وإدماج النصوص الغائبة في النصوص المقروءة الحاضرة .

وفي هذا الإطار يمكن الإشارة إلى التجربة الشعرية لدى الشعراء (مصطفى محمد الغماري، و عياش يحياوي ، وعبد الله حمادي، وياسين بن

عبيد ...)، هؤلاء نلحظ تسرب نصوصهم إلى بعضهم بعضا ،ويبدو لي أن هذا التقاطع اتخذ صفة العفوية وعدم القصد، وصفة الاعتماد على الوعي بحيث تشير الصياغة في النص الحاضر إلى نص آخر سابق .

ومن نماذج هذه النصوص التي تتعايش بطريقة من الطرق مع نصوص جزائرية أخرى قول (ياسين بن عبيد) :

ألقاك من سفر الدنيا .. لنا خبر تدني مشاحطنا الخضراء والصور
ألقاك ما إستلك الليلان من كبدي ليل إغترابي وليل داؤه الضجر
ألقاك في الغضب الثوري مغردة عصماؤك البكر لاتبقي ولا تذر
تعلوبها صهوات الجمر .. ملهبة صدر المبادئ لاترعى الألى غدروا[1]

هذا النموذج الشعري يشتغل على نصين آخرين بطريقتي التداخل اللغوي والامتصاص الدلالي، فهو يستحضر أبيات من قصيدة طويلة لـ : (عبد الله حمادي) :

(...) ألقاك والدرب المطير حكاية
ظمأى تناغي منتهاك ومخلدي
ألقاك والنور المفتت بسمة
خضراء بورق في ضحاها تعبدي
ألقاك والجرح المنوط غمامة
تشتي ويكبر في ثراها تمردي
ألقاك...ألقى في احتضانك وثبة
علوية المغزى تبارك مصعدي
ألقاك...ألقى في اختطافك نوبة
سحرية تذكي لهيب تجلدي[2]

كما يتداخل على الصعيدين التشكيلي والدلالي مع قول (الغماري) :

جرح الكرامة في كفيك ملتهب سيفا على العار لايبقى ولا يذر
يثور حداه ... والآلام ممطرة حقدا .. توثب في أعماقه الشرر
فتهتف الشفة الخرساء هادرة أسيف خالد في الوادي أم القدر؟
لبنان من دمك المطلول أغنيتي ومن ضحاياك شبت في دمي العبر
باسم المسيح سقوا بيروت نبض دمي ويرفض النور ما خانوا .. وما غدروا[3]

كما يستنصص النص الحاضر بيتا من نص آخر هو قول الشاعر:

ألقاك يا خضراء في قممي
في السهل فوق الحدود السود ألقاها [4]

ويمكن رصد هذا التداخل النصي بين النص الحاضر والنصين الغائبين من خلال المؤشرات التناصية الآتية :

1. تفجر النص الحاضر من الدوال اللغوية نفسها التي تفجر منها النصان الغائبان (ألقاك ...)

2. النص الحاضر يمتص الدلالة نفسها التي عبر عنها النصان المشتغل عليهما

3. استخدام القاموس الشعري الذي يكاد يرتبط ارتباطا كليا بمجال الطبيعة .

4. استخدام اللون الأخضر الذي استخدمه الشاعران في النصين الغائبين. يقول النص الحاضر :

ألقاك من سفر الدنيا ...لنا خبر تدني مشاحطنا الخضراء والسور

ويقول النص الغائب الأول [5]:

ألقاك والنور المفتت بسمة
خضراء يورق في ضحاها تعبدي

ويقول النص الغائب الثاني :

ألقاك يا خضراء في قممي
في السهل فوق الحدود السود ألقاها

5. التداخل اللغوي حيث اعتمد الشاعر في النص الحاضر على استمداد العديد من الدوال اللغوية من النصين الغائبين نحو (السور، لا تبقي ولا تذر، أغنيتي (مغردة) حكاية (لنا خبر) ، تذكى (ملهبة) ....)

كما يتداخل النتاج الشعري لهذا الشاعر مع نصوص الغماري، ويتمظهر هذا التناص من خلال إنتاج النص الحاضر للدلالة نفسها التي ينتجها النص الغائب ، وهذه الدلالة هي تجسيد لماض حضاري مشرق في الحاضر الإباحي القاتم كما يتمظهر هذا التداخل النصي من خلال استخدامه للغة الضوئية المستمدة من قواميس الإشراقيين والمتصوفة ، يقول (ياسين بن عبيد) في قصيدته (على شفتي طائر من حنين) :

على كبدي بلدي
فالطيور التي حومت فوقه ظمأ
لتمت في يدي
أثر العابرين
وأنت كما أنت كالطائر المختبي
هاجسا في غبار السنين
على شفة الجرح أنت

وأنت القرون

وأنت الصدى رافضا أعصر الآخرين[6]

هذا المقطع الشعري الذي لا يكتفي فيه الشاعر بخلع الحياة على الشيء الغير الحي وأنسنته لغير العاقل كما لم يكتف فيه بإقامة المشاركة الوجدانية بينه وبين الأشياء، بل يتجاوز ذلك إلى جعل الجوامد وغير العقلاء تحس وتفكر عوضا عنه، يحيلنا إلى نص غائب للغماري هو قصيدته (أغنية الطائر الحزين):

يقتات من ظمأ السنين ويحتسى خمر السكون
هو في حياتي قصة تروى ..... ونبع من فنوني
رفت على صدإ اغترابي في هدوء مستكين
فكأنني لم ألفها أملا ... تفتح في غصوني
تنهل في دربي حداء... شب في هرم السنين
وتلوب ضامئة ..فيسكر حرها مطر اليقين[7].

ويقول (ياسين بن عبيد) في النص نفسه:

فهل تشبه الطير إلا جناحا
وتعتصر الخافقين التياحا
وترسو على بلدي .. بلد الطيبين
.....
مددت لعينيك سري
به بحت والمشتهى الصعب آت
وقلت لأسرابك الخضر ، هل تذكرين؟[8].

كما يستنصص أبياتا للغماري من قصيدته (الليل والنجوم الحيرى) :

أخضر الأيام ...ياطير الضحى ...يا ابن الصحاري
لو كنت تدري ما مقامي في القيود وما مساري ؟
لرأيتني وترا يشيل على المدى خمر احتضاري
وبكيتني أشلاء لحن ...لا يقربها قراري
وحملتني في ريشة خضراء... توغل في المطار[9].

ويقول(يسين بن عبيد):

أنت يا طائري المتوحد بالضوء
يا بوحها المتجلي على قمم المتعبين
تطول بنا الغربة اليثربية

ينفضني عاتقاي
وتمضي الخيول أمامي جيلا فجيلا
أقول : بمن يا خيول غدي تحتمين؟[10].

هذا المقطع هو إعادة كتابة لقول(الغماري):

الطائر الفرد الحزين عليك .. مقطوع الوتين
غناك في كبد الأسى ....بالهم بالألم الدفين
غناك قافية موشحة ... تنمنمها شجوني
جمر اغترابي في الحنايا مورق... وعلى الجبين
واديك يشهد يا ربيع الشوق يا نجوى أنيني
إني على واديك باق .. قصة تروي حنيني
مطر .. يصوب فيرتوي ظمأ على الوادي الحزين[11].

ويبدو لي من خلال هذا التداخل النصي أن النص الحاضر يهادن النص الغائب على المستوى الدلالي والإشاري ، ويواصل دلالته وانطلاقا منه كأنه تتمة له، فالشاعر في النص الغائب يصور نفسه طائرا يعاني الغربة النفسية في واقع مرير « يقتات من ظمأ السنين ويحتسي خمر السكون » ، ويعيش في عالم عربيد يسير في لجة عمياء ، لكنه دائم الحنين والوجد إلى حضارته الإسلامية التي يرى أنها مازالت قادرة على العطاء ، ومن ثم تحول إلى طائر أضواء جواب آفاق يهفو إلى الخضراء التي ملكت زمام أمره .

هذه الدلالة يواصلها النص الحاضر ويعمقها في نفوسنا فهو طائر يشعر بالاغتراب الحاد في واقع مدنس ، لكنه يبقى في حنين دائم إلى إشراق حضارته الإسلامية " أنت يا طائري المتوحد بالضوء – تطول بنا الغربة اليثربية" .

أما على المستوى الإشاري فالنص الحاضر يستعيد العديد من الدوال اللغوية من النص الغائب فيشخص الاغتراب الروحي في صورة الطائر المغترب ، وذلك بالاتكاء على نصوص غائبة من شعر الغماري ، ومن هذه النصوص قول الغماري :

أنا طائر رمت بالرياح بعشه
فانشل يطويه الضياع وينشر
شلاء مثل جناحه أشواقه
وجراحه بدم البراءة تقطر
لهب السنين الجائعات بريشه
ويد الخناجر في مداه تزمجر

تتدفق الأحزان في شريانه
ويجوب عينيه السكون ويحفر[12].

كما يمكن رصد العديد من العلاقات التي تقيمها نصوص جزائرية معاصرة مع نصوص جزائرية أخرى متزامنة معها ، عن طريق التداخل النصي القائم على الوجود اللغوي من نص غائب في نص حاضر بشكل نسبي

ومثال ذلك قول الشاعر :

اشتاق للرحلة السمراء تدنينا وتغرس الحب طفلا في مآقينا
وتنشر العطر في أصداف غربتنا فيزهر العطر في اللقيا بساتينا
غنيت للأمل المشنوق من زمن وكنت في قلعة الأوهام مشنوقا
يا غربة في دهاليز الأسى انغمست ردحا .. ومجزرة الأحلام ترديناً[13].

واللافت للانتباه في هذا النموذج الشعري أنه يمثل إعادة كتابة لنص الغماري على المستوين الدلالي والإشاري، يقول(الغماري):

تخضر همسا نديا في جفاف مدى
صاد..وتزهر اللقيا بساتينا
تهيم في الساحة السمراء قافية
خجلى وحلما نديا في مآقينا
يجوبني عطرك الريان وشوشة
فيزهر اللحن ما أحلى تلاقينا ! [14].

فالتداخل النصي واضح بين النصين إلى حد استنساخ النص الحاضر للنص الغائب ، ونستشف ذلك من خلال هيمنة دلالة النص المعارض على النص المعارض بطريقة استمرارية اجترارية . واستحضار(عياش يحياوي) للعديد من الدوال المعجمية من القاموس الشعري الغماري المرتبط بمجالات الطبيعة ، والأفعال المستخرجة من العوالم واستخدام الألوان ، وهذه الدوال التي استرجعها النص الحاضر من النص الغائب هي:(تزهر، بساتينا، العطر، السمراء ، الحلم ، مآقينا ، اللقيا،....)

والملاحظ أن تجربة عياش يحياوي في ديوانيه (تأمل في وجه الثورة) و(عاشق الأرض والسنبلة) تم إنتاج نصوصهما بالاستناد على التجربة الغمارية سواء أكان ذلك من ناحية توليد الدلالة التي أعادها النص الحاضر في حدودها الأولى كما هي في نصوص الغماري ، أم من ناحية تشكيل البنى المعجمية ،أم في طريقة الأداء،ومن نماذج هذا التداخل قول(عياش يحياوي) :

سمراء أنت رفيف ضوء مزهر عبق ... مداه المجد يا سمراء

أهواه سيفا للتحدي شامخا الفجر وعدك ..... والدلال إباء
أهواك قرآنا يجوب بي الوجـــود الرحب يهوى نور الفقـراء
أحببتني آت وملء مواجدي رعشت رؤى وضبابة هيماء[15]

فهذا المقطع الشعري يتداخل معجميا ودلاليا مع شعر الغماري في العديد من نصوصه ، حيث يسترجع قول الغماري :

سمراء أنت الهوى ينثال في دمنا سحقا لعباد أوثان وكفرنا[16]
سمراء عفوا أنت أنت مواجدي ولأنت أنت الصحوة العرباء.[17]

كما يستحضر بينات معجمية من قصيدة الغماري (أزهار الحنين):

أهواك خضراء يا سمراء ملء دمي
فإن صددت ... فلا أهواك حمراء
أهواك عذراء في طهر كفاطمة
فإن غدرت فلا أهواك شمطاء.[18]

كما يتداخل مع قوله :

أحبيبتي بعد الوصال مجرح
آت أضمد جرحه أقراه
آت وفي شفتي اشتياق مزهر
ألقاه يشربني الهوى ألقاه.[19]

كما يشتغل على قول الغماري :

رف الحنين مدى بجرحي ممعنا
وزوارقي في شاطئ هيماء[20]

ويلوح لي أن هذا التداخل النصي مرده إعجاب الشاعر (عياش يحياوي) بالتجربة الشعرية الغمارية ، مما جعل حضور نصوص الغماري في الكثير من شعره واستنصاصه لها واضحا لا تكبد الباحث عنتا كبيرا لاكتشافها،لأن هذا التداخل نلمسه على مستوى البنية السطحية للنصوص الحاضرة ، ويمكن للقارئ أن يرصد التداخل النصي بين النصين الحاضر والغائب كالآتي :

1. على المستوى الدلالي :

فإن النص الحاضر تهيمن عليه دلالة النص الغائب التي تعبر عن ذلك الشوق العارم والحنين الدائم لملاقاة السمراء التي لا يهدأ للشاعر بال إلا

بجانبها .هذه الدلالة التي يمتلئ بها النص الغائب يعيدها النص الحاضر في حدودها الأولى دون أن يضيف لها معاني جديدة .

2. على المستوى الصياغي :

ينصرف النص الحاضر إلى العديد من الدوال اللغوية من النص الغائب، يتكأ عليها لينسج شعريته وهذه الدوال المعجمية المشتركة بينهما هي (سمراء، أنت ، الهوى ، ملء ، المواجد، الحبيبة، آتٍ مزهر، هيماء، ...) غير أن(التناص) هنا لا يتعلق بتداخل نص مع نص آخر معين ، وإنما يرتكز على إقامة علاقة مع العديد من النصوص الغمارية الموزعة على عدة دواوين، لذلك فإن أنت قرأت نصا من شعر (عياش يحياوي) انتابك إحساس بالتداخل النصي ، وتبادر إلى ذهنك أنه ينتمي إلى عدة نصوص للغماري قد حضرت فيه وساهمت في تشكيله.

كما يمكن رصد التداخل النصي الجزائري/الجزائري من خلال تأثر الشاعر (نورة سعدي) في قصيدتها (ذات يوم ربيع) بقصيدة من أنا للشاعر(محمد الأخضر السائحي) يقول النص الحاضر :

أخي لم أراك وحيدا كئيبا
بعيدا بفكر يناجي السحاب
أرى فوق هدبيك حزنا عظيما
وبحر هموم وشاح ضباب
أخي أي خطب دهاك
وما سر هذا الوجوم ؟[21].

ويقول النص الغائب:

يقول رفيقي:لم أراك كئيبا ؟، فقلت : صغير يعاني المشيبا
تركت حبيبا وحيدا يناجي النجوم ... لعل هناك مجيبا
وفارقته مرغما في حياتي أعاني من الدهر ظلما رهيبا
فعيشي مرير ،بغيض كريه، وجسمي مريض يقاسي الخطوبا [22]

والملاحظ في هذا التداخل النصي القائم بين النموذجين ، أن التقاطع قام على أساس الإفصاح عن المرجع الذي اتكأت عليه الشاعرة في كتابة نصها نتيجة استحضارها لكثير من الدوال التي كتب بها النص الغائب ، والدلالة التي ولد من أجلها ، ومن ثم يسهل التحقق من هويته المرجعية ، لأن إعادة كتابة النص الحاضر تمت بطريقة اجترارية صامتة ، لم تضف

للنص الغائب شيئا يذكر،ولذلك يحق لنا الحكم بغلبة النص الغائب على النص الحاضر الذي استولى عليه واحتواه.

وقد ينهض التناص ويتمظهر في الشعر الجزائري المعاصر على أساس التضمين، وذلك باقتطاع شطر أو بيت أو مجموعة أبيات من بعض النصوص الجزائرية المتزامنة، ثم دمجها في النص الحاضر كي يعطيه اكثر من مصدر ويثري دلالته التوصيلية التي يريد البوح بها، ومثال ذلك قول (محمد ناصر):

(وإذا أراد الله نشر فضيلة) نشرت محاسن فضلها صماء
قد طبق الأفاق نورك ساطعا وشعاع بعض المخلصين ذكاء
تثبت لهزات العواصف أصلها متمكن، وفروعها شماء
وتلونت راياته كفرا فذي الحمراء، والسوداء، والسمراء
(إلا هواك عرفته فضممته ورعاه مني الجفن يا سمحاء)
من تغره الألوان زاهية فإني ما عشقت سواك يا خضراء
خضراء يا بنت الرسول تكاثرت من حولك الحساد والأعداء
بدرية العينين يا بنت الجهاد نحن فيك إلى الجهاد دماء[23].

هذا النص ينسج شعريته من نصوص انفتح عليها وترسبت فيه، وهذا الإنفتاح قائم أولا على الاقتطاع والامتصاص، فالشاعر في البيت الأول يقتطع الشطر الأول من بيت لأبي تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلته طويت أتاح لها لسان حسود[24]

كما يضمن بيتا من قصيدة (أزهار الحنين) للغماري:

إلا هواك عرفته فضممته ورعاه مني الجفن يا سمحاء[25]

وفي قول الشاعر في البيت الرابع:

تثبت لهزات العواصف أصلها متمكن وفروعها شماء

فيه امتصاص للآية الكريمة في قوله تعالى ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾[26]

وقد يأخذ التناص في الشعر الجزائري المعاصر شكل الاستمداد الإشاري والتشرب الدلالي، ويبدو ذلك بوضوح في قوله (عيسى لحيلح):

تحزب العشق يا ليلى من تحزبه فالعاشقون تقاضوا حق ما ذرفوا[27]

فهذا البيت يستمد إشاراته ودلالته من قول (عبد الله حمادي)في ديوانه (تحزب العشق يا ليلى) :

تحزب العشق يا ليلى فحيكموا تباعد الهجس منه قيد أسفار[28]

ومن أمثلة التناص الذي يتداخل فيه الشعراء الجزائريون على مستوى البنية المعجمية والدلالية قصيدتي (رحيل إلى مرافئ الأحزان) و(سفر غجري)[29] لمحمد شايطة التي يتداخل فيها مع قصيدة (محاولة تسكع داخل مملكة الحزن)[30] للشاعر كمال أنيس يقول شايطة في قصيدته (سفر غجري) :

على ساحل البوح والاشتهاء أناديك
من قمة البين والاكتئاب أناديك
ينهار صوتي وأبقى أقاوم وحدي

هذا المقطع يتداخل فيه الشاعر مع قول (أنيس)

أناديك من شبق الموت
من قمة العشق سيدتي
أناديك....
ملء فمي وصراخي وصوتي وحنجرتي

وقد يقوم التناص في الشعر الجزائري المعاصر على تمدد الألفاظ والعبارات وهجرتها من شاعر إلى آخر، حيث يأتي شاعر بلفظة أو عبارة تستعذب يقرأها الشعراء المعاصرون له ، فتمدد بخطابهم الشعري عن وعي أو دون قصد ، ومن ثم تكتسب صفة التداخل الجماعي حتى لا يصعب معرفة صاحبها الأول ، ما لم نراعي تاريخ كتابة النص ، ومن قبيل هذا التداخل النصي قول (شايطة) :

هو الشوق يجتاحني ...
وأنا راحل قد أعود أو لا أعود

فالعبارة الأخيرة مستمدة من قول (أنيس) :

ولكني راحل ..
يا مدينة عشقي
ويا زمن الذكريات
راحل قد أعود أو لا أعود

ومن نماذج هذا التناص الذي تتداخل فيه الألفاظ والعبارات الشعرية قول (شايطة) :

تعالي ضعي قبلة فوق هذا الجبين

هذه العبارة استوحاها من قول (أونيس):

إذا جئت أخيرا فلا تهربي
ضعي قبلتين على جبهتي

ومن الألفاظ والعبارات الشعرية التي تعاقب عليها الشعراء وتعاوروها فوقعت موقع الشركة بينهم عبارة (إني هنا ... وحدي هنا..) التي وظفها كل من (عبد الوهاب زيد) (ومالك بوذيبة) و(الشريف بزازل) [31].

ومن العبارات التي تداولها الشعراء الجزائريون المعاصرون دون الإشارة إلى صاحبها الأصلي عبارة (وطن يفتش عن طن) التي وظفها الشاعر عز الدين ميهوبي في قصيدته (وطن تائه) في قوله:

وطن يفتش عن وطن
وعيون فاتنة من . لدامور .
تحتضن المقابر والكفن
وطن يصدر من مدامعه الرجولة و الأنوثة
والسياسة والزعامة والفتن[32]

هذه العبارة أخذها الشاعر (عزالدين جعفري) ووظفها في قصيدته (نقش على ذاكرة الزمن) جاء فيها :

سفن كلاب البحر أشرعة
وطن يفتش عن وطن
زمن زمن [33]

وهي عبارة لم يبتدعها الشاعران ، وإنما أخذاها من قصيدة (هذا الفلسطيني اسمه ياسر عرفات) الفلسطيني (معين سبيسو) :

بيروت يا وطنا يفتش عن وطن

وتعاقب الشعراء على عبارة أو مفردة واحدة ظاهرة قديمة في عالم التناص الشعري العربي القديم ، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى مثل هذا النوع من التداخل النصي الذي يقوم على صورة أو كلمة واحدة يأتي بها شاعر ثم تمتد وتنتشر في خطاب العديد من الشعراء لتصبح تراثا جماعيا، وهذه الألفاظ تبدأ في تناص داخلي[34] عند مبدع واحد ، ثم تواصل رحلتها في خطاب شعراء آخرين ، ومثال ذلك لفظ (الجسر) عند أبي تمام :

لا يطمع المرء أن يجتاب غمرته [35] بالقول ما لم يكن جسرا له العمل[36]

هذه اللفظة (الجسر) تتسرب إلى قوله في مدح المعتصم لما فتح عمورية :

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب[37]

ثم يأتي ربيعة الرقي ويقول :

قولي : نعم ، ونعم إن قلت واجبة قالت : عسى ، وعسى جسر إلى نعم

وتعامل الشعراء مع لفظة واحدة وتعاقبهم عليها تأخذ . ي رأي عبد القاهر . بيعة التدرج في منازل الجودة ، وكلما تفاعلت مع نصوص لاحقة ازدادت لطفا وخلابة وحسنا ، فلفظ (الجسر) كان لها من الجودة في البيت الثاني ما لم يكن لها في البيت الأول ، ثم ازدادت حسنا في بيت (ربيعه الرقي) حتى تصل إلى أبعد مراتب الحسن.[38]

وليست كل المفردات متساوية في الانتشار والتعاقب ومن ثم لا يمكن للدارس التناصي أن يتخطف كل لفظة يتعاورها الشعراء ويحكم عليها بالتداخل النصي لأن من طبيعة تلك المفردات أن تكون لها خصوصية شعرية[39] بخلاف تلك الألفاظ اللغوية مثل لفظ (كان) و(أمسى) أو (قال) .... التي يكون فيها التداخل في نصوص الشعراء مصادفة وبشكل عفوي ومطلق.

. خاتمة:

وما نود الخلوص إليه من هذا المقال هو أن الشعراء الجزائريين المعاصرين قرأوا نتاج بعضهم بعضا ، واستحضروا ما قرأوه في نصوصهم بإشكال تناصية مختلفة تجعل النصوص الحاضرة تتعايش مع النصوص الغائبة وقد اتخذ هذا التداخل النصي مستويات متعددة تبعا للكفاءة الفنية في التعامل مع النصوص السابقة والقدرة على البناء الشعري لكل واحد منهم ، وهذه المستويات هي :

1. إعادة كتابة النص الغائب بشكل اجتراري صامت مثلما رأينا بين قصيدتي (ذات يوم ربيع) لـ(نورة سعدي) و(من أنا) لـ(محمد الأخضر السائحي).
2. استحضار النص الغائب بشكل صريح يقوم على الاقتطاع والتضمين مثلما رأينا بين محمد ناصر و الغماري .
3. التعامل مع النص الغائب بطريقة الامتصاص الذي يهادن النص الغائب، فلا يسخر منة ولا يحط من شأنه ، وإنما يأتي النص الحاضر تكملة

لإنتاج الدلالة التي تضمنها النص الغائب ، ومثال ذلك نصوص يسين بن عبيد وشعر الغماري.

4. غياب طريقة "الحوار" التي تنقد دلالة النص الغائب وتثور عليها وتفجرها فتبطل مفعولها ومسايرتها لأحداث العصر، والسبب في ذلك أن هؤلاء الشعراء الذين تناص نتاجهم الشعري مع بعضهم البعض يملكون تصورا واحدا للكون والحياة .

الهوامش :

1 ـ ياسين بن عبيد ،أهديك أحزاني/مطبعة المطبوعات الجميلة /الجزائر/1997/ص97.
2 ـ عبد الله حمادي ، تحزب العشق يا ليلى/ دار البعث، قسنطينة / الجزائر/ 1982 ص182 .
3 ـ مصطفى محمد الغماري، قصائد مجاهدة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع/الجزائر /1982/ص15، 16 .
4 ـ الغماري، أسرار الغربة ، ط2 / الشركة الوطنية للنشر والتوزيع /الجزائر /1982/ ص51.
5 ـ هذا التحديد لا يقوم على تاريخ الكتابة ، وإنما يقوم على الأقرب اشتغالا في النص الحاضر .
6 ـ ياسين بن عبيد، أهديك أحزاني/ص34.
7 ـ الغماري ، ألم وثورة/المؤسسة الوطنية للكتاب/الجزائر/1985/ص2 .
8 ـ ياسين بن عبيد، أهديك أحزاني/ص35.
9 ـ الغماري ، ألم وثورة /ص30 .
10 ـ أهديك أحزاني /ص37 .
11 ـ ألم وثورة /ص23 .
12 ـ الغماري، أغنيات الورد والنار/الشركة الوطنية للنشر والتوزيع /الجزائر /1980/ص138 .
13 ـ عياش يحياوي، عاشق الأرض والسنبلة/ص11 .
14 ـ الغماري، ألم وثورة /ص76 .
15 ـ عياش يحياوي ، عاشق الأرض والسنبلة /ص10.
16 ـ الغماري، ألم وثورة /ص76 .
17 ـ المصدر نفسه/ص77 .
18 ـ الغماري، أسرار الغربة /ص56 .
19 ـ المصدر نفسه /ص66.
20 ـ نورة سعدي ، جزيرة حلم /ط1/ دار البعث قسنطينة / 1983/ص14 .
21 ـ محمد الأخضر السائحي ، بكاء بلا دموع /الشركة الوطنية للنشر والتوزيع/الجزائر/ 1980 ص7.
22 ـ محمد ناصر ، أغنيات النخيل /المؤسسة الوطنية للكتاب /الجزائر /1981/ص81 ـ82 .
23 ـ إيليا الحاوي، شرح ديوان أبي تمام /ط1/ دار الكتاب اللبناني /بيروت /ص169.
24 ـ الغماري، أسرار الغربة/ص65 .

25 ـ سورة إبراهيم/الآية :16.
26 ـ عيسي لحيلح، غفا االحرفان/المؤسسة الوطنية للكتاب /الجزائر /1980/ص87 .
27 ـ عبد الله حمادي/تحزب العشق يا ليلى /ص109.
28 ـ محمد شايطة، احتجاجات عاشق /ثائر منشورات رابطة إبداع الثقافية/الجزائر /ص30 ـ 63.
29 ـ ملف المهرجان الشعري الوطني السادس لمحمد العيدآل خليفة (21 ـ 24 مارس 1987) دار الثقافة ببسكرة، ص 142 .
30 ـ وظفها (عبد الوهاب زيد) في قصيدته (البحث عن جوالة سمراء) في جريدة المساء (1987/08/02) و(مالك بوذية) في قصيدته (مقاطع حب صغيرة) ، جريدة النصر ، (1989/10/28) و(الشريف بزازل) في قصيدته (دع الشعر والشعراء) في جريدة النصر (1988/05/16) .
31 ـ عز الدين ميهوبي، في البدء كان أوراس /ط1/دار الشهاب /باتنة /1985/ص 92.
32 ـ عزالدين جعفري، نقش على ذاكرة الزمن / جريدة النصر /(1982/10/10) .
33 ـ معين بسيسو، ثمانية وثمانون يوما خلف متاريس بيروت / دار ابن رشد بيروت /1985/ص 325.
34 ـ التناص عند النقاد المعاصرين نوعان : داخلي وخارجي ، الداخلي : هو علاقة نصوص الكاتب ببعضها البعض ، أما الخارجي : فهو علاقة نصوص الكاتب بنصوص غيره من الكتاب .ينظر سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي (النص والسياق) /ط1/المركز الثقافي العربي /الدار البيضاء المغرب /1989/ ص94،95 .
35 ـ الغمرة : غبار القتال .
36 ـ إيليا الحاوي ، شرح ديوان أبي تمام /ص 420.
37 ـ المصدر نفسه /ص 32.
38 ـ ينظر : عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز في علم المعاني / تحقيق : محمد رشيد رضا /ط2/دار المعرفة / بيروت ص 97، 78 .
39 ـ ينظر محمد عبد المطلب ، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني/ط1/ الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)/ 1995/ص 192,191.